

# مَصَدِّرُ الْمُكْبِرِ الْأَرْبَعَةِ

تأليف  
د. محمد عبد المنعم حفاجي  
الباحث والمعيد بجامعة الزقازيق

والزوجية  
بيروت





رابط بديل  
[lisanerab.com](http://lisanerab.com)

# مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

مَصَدِّرُ الْمَكْتَبَةِ الْأَرَبَّيَّةِ



# مَصَدِّرُ الْمُكْتَبَ الْأَرَبِيَّ

تألِيف  
د. محمد عبد المنعم حفناوي  
الباحث في المكتبة بمائة الألف

وَلَازِلَ الْمُجِيدُ  
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الحيل  
الطبعة الأولى  
١٤١٢ - ١٩٩٢

## **تحذير**

هذا الكتاب عن مصادر المكتبة الأدبية له أهميته في البحث، وعند الباحثين من الأدباء فهو ينير لهم الطريق، ويرشدهم إلى أسهل طرق البحث وأيسرها ويمدهم بثقافة واسعة، ومعلومات مفصلة عن كل المراجع والمصادر في الأدب ودراساته المختلفة.

ولا شك أن هذا الكتاب سيكون ذخيرة لكل الباحثين في طريقهم إلى الاتكتمال والنضوج والبحث والتوفيق النام.

والله ولي التوفيق.

محمد عبد المنعم خفاجي



مكتبة لسان العرب

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

الرابط بديل [lisanerab.com](http://lisanerab.com)

## المصادر ومدلولها

- ١ -

المصادر والمراجع في البحث هي الأساس الذي يمدنا بكل مواد البحث الأولية، وهي التي يتم بها تكوين البحث وإنماهه، والتي تؤخذ عنها الأفكار والأراء المختلفة المتعلقة بموضوع البحث.

والمصادر أو المراجع الأصلية هي أقدم ما يحوي مادة عن موضوع ما، وهي المراجع ذات القيمة الأساسية في الرسائل الجامعية، ومن ثم كانت كثرتها في الرسائل مدعاة لظهور قيمتها العلمية وسبيباً من أسباب جودة البحث وذريوعه وانتشاره.

ويمكن تقسيم دراسة المراجع بصفة عامة إلى قسمين:

١ - دراسة أهم مراجع البحث الخاصة بكل علم أو فن على حدة مثل دراسة أهم مراجع الأدب أو التاريخ أو علم الاقتصاد.

ولا شك أن دراسة المصادر الخاصة بكل علم من العلوم والفنون يجب أن يسبقها بعض الدراسة الخاصة بطبيعة هذه العلوم والفنون وال المجال الذي يبحث فيه كل منها وكذلك معرفة تطورها التاريخي وأشهر المؤلفين الذين ساهموا مساهمة فعالة.

٢ - دراسة المراجع التي تفيد في خدمة أكثر من علم أو فن واحد، وهذا يستدعي تقسيم هذه المراجع إلى أنواع ودراسة كل نوع منها على حدة

وأهم هذه الأنواع هي دواوين المعرف والمعاجم وكتب التراجم وقواميس البلدان وكتب التراث العربي الموسوعة.

## - ٢ -

ويذهب بعض الباحثين إلى أن المصدر والمرجع بمعنى واحد، وهو كل ما يتعلق بالبحث عن دراسات ووثائق قديمة أو حديثة مخطوطة أو مطبوعة، فالمصادر على هذا هي كل ما يرجع إليه في البحث، والمراجع هي كذلك أيضاً.

ويفرق آخرون بين المصدر والمرجع فال مصدر «الأصلي» هو ما يتصل بموضوع البحث اتصالاً مباشراً معاصرأً أو قريباً من زمن المعاصرة فرسالة ابن المعتر في أبي تمام<sup>(١)</sup> مصدر لأن ابن المعتر قريب جداً من المعاصرة لأبي تمام، فقد توفي أبو تمام عام ٢٣١ هـ. وابن المعتر عام ٢٩٦ هـ.

هذا ويعبر بعض الباحثين عن المصدر بالمراجع الأصلية، وعن المرجع الحديث بالمرجع الثانوي وتشمل المراجع الأصلية ما يلي :

### ١ - المخطوطات ذات القيمة التي لم يسبق طبعها.

الكتب التي يكون المؤلفون لها قد شاهدوا الفكرة التي هي موضوع البحث ومن بينها كتاب الأوراق للصولي قسم أخبار المقتدر، لأن الصولي توفي عام ٣٣٦ هـ والمقتدر الخليفة العباسى توفي عام ٣٢٠ هـ، فقد شاهد الصولي عصر الخليفة المقتدر ومن ثم تكون كتابته عنه ذات أهمية كبيرة وهذا الجزء لا يزال مخطوطاً بمكتبة الأزهر الشريف، وإليه رجعت في كتابي «ابن المعتر».

### ٣ - اليوميات والمذكرات التي يكتبها الأعلام والشخصيات الكبيرة.

### ٤ - الوثائق بمختلف ألوانها.

---

(١) كتابي رسائل ابن المعتر - طبع القاهرة ١٩٤٥ .

أما المراجع الثانوية فهي المراجع التي أخذت مادة أصلية من مراجع متعددة وأخرجتها في ثوب آخر جديد.

- ٣ -

وعلى أي باحث يكتب بحثاً في الأدب أن يرجع أولاً إلى أهم المراجع التي تشير له طريق البحث ومصادره، ومن أهمها ما يلي :

١ - دوائر المعارف العالمية، ومنها: دائرة المعارف الإسلامية وهي مترجمة إلى العربية - دائرة المعارف الإنكليزية.

الرسائل الجامعية التي كتبت في الموضوع ومن أمثلتها مثلاً: رسالتى عن ابن المعتز، وهى منشورة - الطبعة الأولى عام ١٩٤٨ في ٤٠٠ صفحة - والطبعة الثانية في أكثر من ٨٠٠ صفحة عام ١٩٥٨ ، وفي العزم طبعها طبعة ثالثة في نحو ألف صفحة بعون الله تعالى وحوله - رسالة طه حسين عن أبي العلاء وهى منشورة بعنوان تجديد ذكرى أبي العلاء - رسالة نعمات فؤاد عن إبراهيم عبد القادر المازاني - رسالة أحمد الشريachi عن الشيخ رشيد رضا، وهى مخطوطة لم تطبع بعد.

٢ - الكتب التي تمد الباحث بمصادر البحوث الأدبية وفي مقدمتها ما يلي :  
(أ) مصادر الدراسة الأدبية: جزان كيران - تأليف يوسف أسعد داغر طبع بيروت ١٩٦١ ، ١٩٦٣ .

(ب) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: مؤلفة كارل بروكلمان المستشرق - الألماني المشهور - وقد ترجم الدكتور الكبير عبد الحليم النجار رحمة الله (١٩٦٣) من الكتاب ثلاثة أجزاء طبعت في القاهرة ولم تكمل باقي الكتاب بعد

وجمع بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» تاريخ كل العلوم والفنون والمعارف الإسلامية والعربية التي تخصص فيها طوال حياته .

وكان من أهم أغراضه من تأليف هذه الموسوعة العمل على تحقيق الاتجاه العالمي الشامل في الأدب، فهو ينظر في الحياة العربية العقلية قبل كل شيء إلى مكان هذه الحياة في العالم المحيط بها، متى ظهر لها احتكاك أو اتصال بذلك العالم: وهو يحاول جهده أن يسجل الدور العالى الذي اضطلع به أدب العرب - بأوسع معالمه - في دفع مواكب العلم وتحث ركاب الثقافة والحضارة وهداية المجتمع الإنساني إلى غايات الحق، والخير والجمال<sup>(١)</sup>.

والكتاب في طبعته الألمانية مقسم إلى جزءين:

- ١ - فالجزء الأول يشمل: المدخل - الكتاب الأول في الأدب الإسلامي العربي إلى آخر عصر الأمويين - الكتاب الثاني في الأدب الإسلامي العربي في عصر العباسيين في جميع أنحاء العالم الإسلامي.
- ٢ - والجزء الثاني ويشمل:

(أ) تاريخ الأدب الإسلامي في اللغة العربية من سقوط بغداد.

(ب) تاريخ الأدب الإسلامي في اللغة العربية من حملة نابليون حتى عام انتهاء بروكلمان من تأليف كتابه أي عام ١٨٩٢ م.

وفي عام ١٩٣٧ نشر بروكلمان ملحقاً لكتابه في جزءين جديدين، وفي عام ١٩٤٢ نشر مجلداً ضخماً في الأدب الحديث والمعاصر.

(ج) تراجم الأدباء: للمرحوم الأديب العراقي إبراهيم العلوى، وقد طبع منه ثلاثة أجزاء، ثم توفي رحمه الله، ووقف الكتاب عند هذا الحد.

(د) إحصاء العلوم للفارابي الفيلسوف العربي المتوفى عام ٣٣٩ هـ - ٩٥٥ م وقد تحدث في الكتاب عن العلوم الإسلامية والفلسفية وموضوعاتها.

(١) ح ١٨، ص ٣٧، معجم الأدباء لياقوت.

(هـ) الفهرست لابن النديم البغدادي، المتوفى عام ٤٣٨ هـ<sup>(١)</sup> أو عام ٣٩٤ هـ على الصحيح<sup>(٢)</sup>، وقد انتهى من تأليف كتابه عام ٣٧٧ هـ على ما ذكره في مقدمة الكتاب.

(و) رسائل إخوان الصفا وهي تبحث في مختلف العلوم والفنون العربية في القرن الرابع الهجري.

(ز) مفاتيح العلوم للخوارزمي المتوفى عام ٣٨٧ هـ ويعد أول دائرة معارف عربية.

(ح) مفتاح السعادة لطاش كيري زاده (٩٠١ - ٩٦٨ هـ)، وقد جمع مؤلفه فيه جميع أنواع العلوم المعروفة حتى عصره. وقسمها إلى سبعة موضوعات (علم الخط - علوم اللغات - فروع العلوم العربية - علوم الفلسفة - العلوم الأخلاقية - العلوم الشرعية - علوم التصرف).

(ط) كشف الظنون لحاجي خليفة المتوفى عام ١٠٦٧ هـ، وهو مطبوع في بولاق عام ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م وفي ليدن من قبل عام ١٨٣٥ - ١٨٤٨ وفي القسطنطينية عام ١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م، ثم طبعته وزارة المعارف التركية في مجلدين كبيرين عام ١٩٤٣ و ١٩٤٤ (٣) وفي خزانة الأوقاف في بغداد مختصر مخطوط لكشف الظنون اسمه «أسامي الكتب والفنون مختصر كشف الظنون» وهو برقم ١٧٧٨.

(ي) كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع للمستشرق فنديك، وصححه السيد محمد علي البلاوي من علماء الأزهر، وطبع عام ١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م.

---

(١) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ج ٩، ص ٤١.

(٢) الظاهر أن ما كتبه كحالة (عام ٤٣٨ هـ) تحرير مطبعي لعام ٣٨٤ هـ.

(٣) ذيل هذا الكتاب القيم مؤلفون كثيرون منهم: شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت بل الم توفى =

(ك) هدية العارفين في أسماء المؤلفين لإسماعيل باشا البغدادي المتوفى عام ١٣٣٩ هـ - ١٩٢٠ م وهو مطبوع كذلك في جزءين في القسطنطينية عام ١٩٥١ و ١٩٥٥ م.

(ل) معجم المطبوعات العربية والمصرية لسركيس وهو مطبوع في القاهرة في أحد عشر جزءاً عام ١٩٢٨ - ١٩٣٠.

(م) جامع التصانيف الحديثة لسركيس أيضاً وهو مطبوع في جزءين.

(ن) كتاب الذريعة: لأنغا بزرك الظهراني، وقد ظهر منه الجزء الأول عام ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م والجزء الخامس عشر عام ١٩٨٤ هـ - ١٩٦٥ م.

## - ٤ -

وعلى الباحث أن يرجع كذلك إلى فهارس دور الكتب العربية، ومن أهمها:

١ - فهرس دار الكتب المصرية ظهر منه تسعه أجزاء.

٢ - فهرس المكتبة الأزهرية ظهر منه سبعة أجزاء.

٣ - فهرس المكتبة الظاهرية بدمشق.

---

= عام ١٢٧٥ هـ وهو صاحب الفصل في إشاء مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة، وقد عين عارف حكمت قاضياً للمدينة عام ١٢٣٤ هـ ومدحه شاعر المدينة المنورة حسين الوسني المدي بقصيدة طويلة، ومنهم كذلك إسماعيل باشا البغدادي المتوفى عام ١٣٣٩ هـ - ١٩٢٠ م وعنوان كتابه هو «إيضاح المكون في الذيل على كشف الطنوش في أسامي الكتب والفنون» وهو مطبوع عام ١٩٤٥ في جزئين في تركيا.

٤ - فهرس مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة ولا يزال مخطوطاً وغير ذلك من الفهارس العربية وهناك فهارس مطبوعة لأشهر المكتبات ودور النشر في العالم العربي .

وهناك كذلك مجموعات من السلالل لها أهميتها ينبغي الرجوع إليها في الأبحاث الأدبية والعربية ومن أهمها :

- ١ - سلسلة أقرأ - تصدر عن دار المعارف بالقاهرة.
- ٢ - سلسلة أعلام العرب تصدر بالقاهرة.
- ٣ - سلسلة الشوامخ وكان يصدرها بالقاهرة الدكتور محمد صبر السوريني .
- ٤ - سلسلة أئمة الأدب لخليل مردم - سوريا.
- ٥ - سلسلة الطرائف لحنا نمر - لبنان.
- ٦ - سلسلة مناهل الأدب لبطرس البستاني - لبنان.
- ٧ - سلسلة الأوابد لرفيق فاخوري ومحبي الدين درويش - سوريا (حلب).
- ٨ - سلسلة فلاسفة العرب للأب قمیر.
- ٩ - سلسلة فلاسفة العرب للأب حنا فاخوري .
- ١٠ - سلسلة السلسلة الأدبية لسليم الجندي - دمشق.
- ١١ - سلسلة السلسلة الأدبية لعمر فروخ - بيروت.
- ١٢ - سلسلة الدراسات الأدبية - عن دار المعارف بالقاهرة.
- ١٣ - سلسلة من تراثنا الأدبية تصدر في القاهرة.
- ١٤ - سلسلة ذخائر العرب - دار المعارف بالقاهرة.
- ١٥ - سلسلة أعلام الإسلام وكانت تصدر عن مكتبة عيسى الحلبي بالقاهرة (دار إحياء الكتب العربية).
- ١٦ - سلسلة مكتبة الدراسات الفلسفية - دار المعارف بالقاهرة.
- ١٧ - سلسلة مكتبة نوابغ الفكر العربي - دار المعارف بالقاهرة.
- ١٨ - سلسلة مجموعة فنون الأدب العربي - تصدر عن دار المعارف بالقاهرة .

وهناك أيضاً مجلات متخصصة لا يصح إغفالها، بل يجب الرجوع إليها في الأبحاث الأدبية واللغوية، ومن أهمها:

- ١ - مجلة الأزهر - ظهر منها خمسة وأربعون مجلداً حتى الآن وهي شهرية.
- ٢ - مجلة المقتطف - ظهر منها ١٢٥ مجلداً واحتسبت عن الصدور عام ١٩٥٣.
- ٣ - مجلة الرسالة المصرية (١٩٣٣ - ١٩٥٣).
- ٤ - مجلة الثقافة المصرية (١٩٣٩ - ١٩٥٣).
- ٥ - مجلة الهلال المصرية (من عام ١٩٢٥ حتى اليوم).
- ٦ - مجلة إحياء المخطوطات العربية - تصدر عن جامعة الدول العربية بالقاهرة، ثم بالكويت، ثم بالقاهرة أخيراً.
- ٧ - مجلة الأديب اللبناني ويصدرها في بيروت الأديب الكبير أليبي أديب وقد مضى على قيامها أكثر من ربع قرن، ولا تزال تتوالي الصدور شهرياً.
- ٨ - مجلة الآداب اللبنانية - ويصدرها في بيروت سهيل إدريس، وهي شهرية.

## - ٥ -

هذا وأشهر المكتبات العامة التي تحتوي على مخطوطات نادرة في العالم هي:

- ١ - مكتبة الأزهر الشريف.
- ٢ - المتحف البريطاني - ولها فهرس للكتب العربية.
- ٣ - المكتبة البلدية في الإسكندرية - ولها فهرس لمخطوطاتها.
- ٤ - مكتبة الاسكوريوال بالأندلس - ولها فهرس للكتب العربية وفهرس لمخطوطاتها.
- ٥ - مكتبة جامعة اسطنبول - ولها فهرس لمخطوط الكتب الشرقية.
- ٦ - المكتبة الأهلية بباريس - ولها فهرس لمخطوطاتها العربية.

- ٧ - مكتبة جامعة برنستون بأمريكا - ولها فهرس للمخطوطات العربية.
- ٨ - مكتبة بايزيد بإسطنبول.
- ٩ - مكتبة معهد المتحف الآسيوي بلينغراود - ولها فهرس لمخطوطاتها العربية.
- ١٠ - مكتبة الشرقية لجامعة القديس يوسف بيروت ولها فهرست لمخطوطاتها العربية.
- ١١ - المكتبة الصادقية بتونس.
- ١٢ - مكتبة الزيتونة، ولديّ فهرست بأندر الكتب العربية فيها.
- ١٣ - المكتبة الظاهرية بدمشق - ولها فهرس لمخطوطاتها.
- ١٤ - مكتبة القاتيكان.
- ١٥ - مكتبة جامع القرويين بفاس.
- ١٦ - دار الكتب المصرية بالقاهرة.
- ١٧ - مكتبة جامعة القاهرة.
- ١٨ - مكتبة جامعة لندن.
- ١٩ - المكتبة الأهلية بمدريد.
- ٢٠ - مكتبة نور عثمانية بتركيا.
- ٢١ - مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت - بالمدينة المنورة.
- ٢٢ - مكتبة الحرم المكي الشريف.
- ومن المكتبات المشهورة في المملكة العربية السعودية دار الكتب الوطنية بالرياض.

\* \* \*

## - أولاً -

كان منهج المؤلفين القدماء من أدباء العربية في كتبهم ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء والنقاد في مختلف العصور أو رواية آثارهم الأدبية وشرحها وتحليلها ونقدتها والموازنة بينها وبين غيرها من الآثار، مع الإلمام ببعض أصول الأدب والشعر ونحو ذلك مما نجده مفرقاً في كتبهم ومن أشهرها ما يلي:

- ١ - كتب في الشعر: وقد بدأ جمع الشعر القديم منذ القرن الهجري، فجمعـت دواوينـ الشـعـراءـ الـجـاهـلـيـينـ وـالـإـسـلـامـيـينـ وـالـمـحـدـثـيـنـ، وجـمعـتـ أـشـعـارـ الـقـبـائـلـ الـعـرـبـيـةـ عـلـىـ بـطـمـاـ نـرـىـ فـيـ كـتـابـ «ـدـيـوـانـ الـهـذـلـيـنـ»ـ وـأـلـفـ مـجـمـوعـاتـ مـخـتـارـةـ مـنـ الشـعـرـ الـعـرـبـيـ وـمـنـ بـيـنـهاـ:
- ٢ - المفضليات للإمام الصبي (١٧٨ هـ) وقد جمع فيها مائة وعشرين قصيدة أكثرها مما أدب به المهدى وهو ولی للعهد لأبيه المنصور العباسى . وأكثر مختارات الكتاب من الشعر الجاهلى .
- ٣ - الأصميات: وهي مختارات من الشعر الجاهلى والإسلامي جمعها الإمام الأصمى (٢١٦ هـ) لنحو ٧٢ شاعراً.
- ٤ - جمهرة أشعار العرب لأبي زيد الانصارى (٢١٤ هـ) ويروى كذلك أنه توفي عام ١٧٠ هـ وهو خطأ، ويمتاز الكتاب بتنسيق

القصائد وحسن تقسيمها وتبويتها وترتيبها وإطلاق أسماء نقدية عليها، كما يمتاز بمقدمته الرائعة.

والجمهرة مقسمة إلى سبعة أنسام هي : المعلقات - المجمهرات - المنتقيات - المشويات - المذهبات - المرائي - الملحمات . وكل قسم منها يشمل على سبع قصائد لسبعة شعراء، ويكاد يكون عمل أبي زيد في الجمهرة من مقدمات النقد للشعر القديم.

٤ - السبع الطوال أو المعلقات وهي : سبع قصائد لسبعة شعراء جاهليين على الأرجح ، يقال إن حماداً الرواية (٩٥ - ١٥٥ هـ) هو أول من جمعها وأطلق عليها هذا الاسم (المعلقات - أو السبع الطوال).

٥ - حماسة أبي تمام ، والوحشيات لأبي تمام وهي حماسة الصغرى - وحماسة البحتري ، وحماسة ابن الشجري (٤٥٠ - ٥٤٢ هـ) ومخترات ابن الشجري ، والحماسة البصرية لصدر الدين بن الحسن البصري (من القرن السادس الهجري) ، وحماسة الخالدين .

٦ - مختارات البارودي - أربعة أجزاء ، وتضم مختارات لأعلام الشعر العباسى بشار - ابن الأختن - أبي نواس - أبي العناهية - مسلم - المتنبي - المعرى - ابن هانئ - مهيار - الطفراوىي ، وقد قسم البارودي مختاراته إلى سبعة أقسام : الأدب - المدح - الرثاء - الصفات - النسب - الهجاء - الزهد .

٢ - كتب جامعة في الأدب : ومن أوائلها الكتب التالية :

١ - البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥ هـ) ثلاثة أجزاء .

٢ - الحيوان - للجاحظ أيضاً - سبعة أجزاء .

٣ - عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٧٦ هـ)<sup>(١)</sup>.

---

(١) مُقْسَمٌ إِلَى عَشْرَةِ أَبْوَابٍ هِيَ : كِتَابُ السُّلْطَانِ - كِتَابُ الْحَرْبِ - كِتَابُ السُّؤْدَدِ - كِتَابُ الْعِلْمِ وَالْبَيْانِ - كِتَابُ الطَّائِعِ وَالْأَحْلَاقِ - كِتَابُ الرَّهْدِ - كِتَابُ الْأَخْوَانِ - كِتَابُ الْحَوَاجِنِ - كِتَابُ =

٤ - الكامل للمبرد (٢٨٥ هـ) وهو مطبوع في جزعين، وشرحه سيد بن علي المرصفي (١٩٣١ م) في سبعة أجزاء مطبوعة في القاهرة.

٥ - العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٩ هـ)، وقد قسم ابن عبد ربه الكتاب إلى أقسام شبيهة بما فعل ابن قتيبة في عيون الأخبار، فالباب الأول عنده هو باب السلطان والثاني خاص بالحروب على نمط ما فعل ابن قتيبة وكذلك يتشابه الكتابان في أبواب أخرى مثل: العلم والأدب - الزهد - الطعام - الطبائع - النساء. ويظن أن العقد الفريد احتذاء كامل لعيون الأخبار لابن قتيبة.

٦ - الأمالى<sup>(١)</sup> لأبي علي القالى (٣٥٦ هـ) وهو مطبوع في مصر في جزعين، يليه جزء ثالث والنوادر، ثم جزء رابع.

٧ - زهر الآداب للحصرى (٤٥٣ هـ) وهو أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيروانى وهو غير الحصرى الشاعر أبو الحسن علي بن عبد الغنى القيروانى (٤٨٨ هـ) صاحب قصيدة «يا ليلى الصب متى غدھ».

وهو مطبوع في أربعة أجزاء بتحقيق زكي مبارك، ثم طبع بعد ذلك بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد.

٨ - نهاية الأرب للنسويري (٧٣٣ هـ) في ٣٢ مجلداً طبع بعضه في القاهرة ولم يطبع باقية بعد، والكتاب مقسم إلى خمسة فنون.  
(أ) الفن الأول في السماء والأثار العلوية والأرض.

---

= الطعام - كتاب النساء وقد نشر المستشرق الألماني سروكلمان الكتاب في المانيا وطبع في مصر، ثم في بيروت والمطبعة المصرية في أربعة أجزاء

(١) سميت بالأمالى مجموعات كثيرة من كتاب المحاضرات والمحاجات والدورس ومن بينها، أمالى ابن الشجري - أمالى الزجاج (٣١٦ هـ) - أمالى المرتضى (٤٣٧ هـ) .. الخ.

- (ب) الفن الثاني في الإنسان وما يتعلّق به.
- (ج) الفن الثالث في الحيوان.
- (د) الفن الرابع في النبات.
- (هـ) الفن الخامس في التاريخ وهو أطول أقسام الكتاب.
- وكل قسم من هذه الأقسام مقسم إلى جملة أبواب<sup>(١)</sup>.
- ٩ - النجوم الزاهرة لابن تغري بردي - ٧ أجزاء.
- ١٠ - صبح الأعشى - للإمام القلقشندى (٨٢١ هـ) وهو مقسم إلى مقدمة وعشرين مقالات وخاتمة، وطبع في ١٤ جزءاً في مصر.
- ١١ - الوسيلة الأدبية لحسين المرصفي أستاذ البارودي - وهو مطبوع.
- ١٢ - المواهب الفتحية - لحمزة - فتح الله (١٩١٨ م).
- ومن الكتب الجامعية في الأدب: وحي الرسالة للزيارات - القلم للرافعي - فيض الخاطر لأحمد أمين - مطالعات للعقاد.
- ٣ - كتب في النقد: ومن بينها:
- (أ) كتاب فحولة الشعراء للإمام الأصمسي (٢١٦ هـ).
- (ب) كتاب طبقات الشعراء لابن سلام (٢٣١ هـ)<sup>(٢)</sup>.
- (ج) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ).
- (د) كتاب الموازنة بين الطائبين «أبي تمام والبحترى» للأمدي المتوفى عام ٣٧١ هـ.
- (هـ) كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني (٣٩٢ هـ).
- (و) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) أي صناعة التراث وصناعة الشعر.

---

(١) طبع من الكتاب ١٨ جزءاً، وما زال باقياً منه ١٤ جزءاً.

(٢) ذكرنا كتاب طبقات الشعراء لابن سلام هنا لأنّه من أهم كتب النقد في القرن الثالث، وسنذكر بعد ذلك كتاب «طبقات الشعراء» لاس المعتر في كتب التراجم لأنّه ليس له صفة نقدية، وهناك كتب كثيرة في طبقات الشعراء أكثرها مخطوط تبلغ نحو ٤٢ كتاباً - راجع صفحة ٥٥٤ - ٥٥٨ من كتابي الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام - طبع القاهرة ١٩٤٩ م.

- (ز) كتاب إعجاز القرآن للباقلاني (٤٠٣ هـ)<sup>(١)</sup>.
- (ح) كتاب العمدة لابن رشيق (٤٦٠ هـ) في صناعة الشعر ونقده.
- (ط) نقد النثر - ونقد الشعر لقدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ).
- (ي) كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي الأمير (٤٦٦ هـ).
- (ك) كتاب المثل السائر لابن الأثير.
- ومن كتب النقد الحديث، كتاب النقد العربي الحديث ومذاهبه لخفاجي.

#### ٤ - كتب في التراجم الأدبية: ومن بينها:

- (أ) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) في عشرين جزءاً، وهو مطبوع في القاهرة، وبيروت.
- (ب) كتاب طبقات الشعراء لابن المعتر (٢٩٦ هـ).
- (ج) يتيمة الدهر للشعالي (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) وهو تراجم لأدباء القرن الرابع للهجري في مختلف أنحاء العالم الإسلامي - وهو مطبوع في أربعة أجزاء وقسمه الشعالي إلى أربعة أقسام.
- الأول: في شعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس.
- والثاني: في شعراء العراق.
- والثالث: في شعراء فارس وجرجان.
- والرابع: في شعراء خراسان وما وراء النهر.
- (د) الذخيرة لابن بسام (٥٤٢ هـ) وهو تراجم لأعلام شعراء الأندلس، وقد نشر منه في القاهرة ثلاثة أجزاء.
- (هـ) معجم الشعراء للمرزباني (٣٧٤ هـ).
- (و) معجم الأدباء لياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) وهو مطبوع في عشرين جزءاً.
- (ز) وفيات الأعيان لابن خلkan.
- (ح) كتاب نفح الطيب للمقربي الأندلسي (٩٩٢ - ١٠٤١ هـ) ويحتوي على ترجمة مفصلة للسان الدين بن الخطيب الوزير (٧٧٦ هـ)،

---

(١) طبع عدة طبعات في القاهرة، ومنها طعة بتعليقات لي.

وتراجم مجملة لأعلام الأندلس وشعرائها، ويحتوي الكتاب على مقدمة وقسمين كبيرين:

- ١ - فالقسم الأول في الأندلس وحياة المسلمين فيها.
  - ٢ - والقسم الثاني في التعريف بلسان الدين بن الخطيب.
- ومن كتب الترجمات الحديثة: رائد الشعر الحديث لخفاجي - حافظ وشوقى لطه حسين - الرافعى للعریان - ابن الرومي للعقاد.

## - ثانياً -

وكان هذا هو المنهج العربي القديم في دراسة الأدب، ولما جاء المستشرقون وعنوا بدراسة الأدب العربي، أخذلوا يدرسونه على نمط تاريخي فابتكرروا علم (تاريخ أدب اللغة العربية) بأصوله المعروفة، ووضع بروكلمان فيه كتابه المشهور «تاريخ الأدب العربي» على هذا النمط الاستشرافي من العناية بتقسيم الأدب إلى عصور ودراساته في كل عصر دراسة مفصلة.

وكان أول من ابتكر هذا النمط الاستشرافي في دراسة الأدب العربي الإيطاليون في القرن الثامن عشر، ثم أخذه عنهم المستشرقون الألمان في القرن التاسع عشر، وقد ظل هذا العلم مجھولاً في الشرق العربي، وكان أول من نقله عنهم حسن توفيق العدل الذي درسه في ألمانيا ثم عاد إلى تدريسه في دار العلوم - بالقاهرة وألف فيه كتاباً صغيراً سماه «تاريخ آداب اللغة العربية» وتوفي العدل عام ١٩٠٨ م.

وعلى ضوء هذا المنهج الاستشرافي في دراسة الأدب العربي ظهرت كتب عديدة من أشهرها:

- ١ - تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي - ٣ أجزاء.
- ٢ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان - ٤ أجزاء.
- ٣ - في الأدب الجاهلي لطه حسين.
- ٤ - الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى - ٣ أجزاء.
- ٥ - تاريخ الأدب العربي للزيارات.

- ٦ - الأدب العربي - للسباعي بيومي - ٣ أجزاء.
- ٧ - فجر الإسلام وضحي الإسلام لأحمد أمين.
- ٨ - المجمل، والمفصل لطه حسين وآخرين.
- ٩ - تاريخ الأدب العربي لشوفي ضيف.

الحياة الأدبية في العصر الجاهلي - طبعة أولى ١٩٤٩ - طبعة ثانية ١٩٥٨ في أكثر من ٦٠٠ صفحة - تأليف محمد عبد المنعم خفاجي .

الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام - تأليف محمد عبد المنعم خفاجي .

الحياة الأدبية في عصر بني أمية - الحياة الأدبية في العصر العباسي - الأدب العربية في العصر العباسي الأول - الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني - الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد - الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام - الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين وكلها بقلم محمد عبد المنعم خفاجي .

قصة الأدب في مصر (٥ أجزاء) قصة الأدب في الأندلس (طبعة أولى في خمسة أجزاء، وطبعة ثانية قصة الأدب المهجري (في جزءين)، وكلها من تأليف محمد عبد المنعم خفاجي .

\* \* \*

# المكتبة

- ١ -

يجب على الطالب أن يعرف حيث يدخل المكتبة كيف يهتدي إلى الكتاب المطلوب بسهولة ويسر ولكي نسهل عليه الأمر نرشده إلى المعلومات الآتية :

١ - في كل المكتبات المنظمة فهارس بأسماء المؤلفين مرتبة حسب حروف المعجم فعمر في قسم العين ومحمد في قسم الميم - وبعض المكتبات تلاحظ الحرف الأول - والثاني في الترتيب، فاسم عامر يوضع في أول حروف العين (ع.أ)، وعمر يوضع في أواخر حرف (العين ع.م) ومحمد يوضع قبل محمود، ومحمود يوضع قبل منصور، ومصطفى يوضع بعد محمد، ومدثر قبل مصطفى وهكذا ..

وأكثر المكتبات تبدأ بحرف (أ.ب) ثم بحرف ابن، وبعدها تسير في ترتيب المؤلفين بحسب حروف المعجم، والبدء بآب ثم ابن، مراعاة أيضاً لترتيب حروف المعجم الذي يجب البدء بالألف ويرتب الكلمات المبدوءة بالألف ترتيباً أبجدياً بحسب الحرف الثاني (أ وأ - ثم أباء، ثم أفتاء، فباء، فجيم . . . الخ.

وي بعض المكتبات تقدم أولاً اسم محمد قبل آب وابن، تيمناً بالاسم ولكرته .

٢ - وفي المكتبات أيضاً فهارس بأسماء الكتب مقسمة بحسب الفنون (علم الفقه، علم التفسير، علم الحديث، علم الأصول، علم التوحيد، علم الأدب، علم اللغة، علم النقد، علم التاريخ، الترجم، السير... الخ).

٣ - وبعض المكتبات تفرد مخطوطاتها بفهرست خاص، والمطبوعات بفهرست خاص، والدوريات - أي المجلات والصحف - بفهرست خاص.

ومن ثم يمكن للذى يريد كتاباً من مكتبة أن يكشف عنه في فهرس المؤلفين، أو يكشف عنه في فهرس الكتب والفنون.

## - ٢ -

ويسمى العلم الذي يبحث في شؤون المكتبات علم الوثائق والمكتبات<sup>(١)</sup> (الببليوغرافيا) باعتبار أن الوثائق التاريخية والسياسية والاقتصادية، ومنها المذكرات اليومية للأعلام، مما تفرد له المكتبات قسماً خاصاً فيها.

ويسمى هذا العلم باسم «ببليوغرافيا» ويبحث كذلك هذا العلم في الفهارس القديمة للكتب، وفي المراجع الحديثة عنها وفهارس المكتبات المعاصرة ويبحث كذلك في كل ما يتصل بتنظيم المكتبات.

والمكتبات الحديثة كثيرة، وكانت المكتبات معروفة في الإسلام منذ أواخر العصر الأموي...

وفي عصر الدولة العباسية أنشئت المكتبات الضخمة في بغداد والقاهرة ودمشق، وقرطبة وشبيلية، وفي القيروان وفاس وفي مكة والمدينة وحلب،

---

(١) العلم الذي يبحث في شؤون الكتب والمكتبات وفي الفهارس القديمة للكتب وفهارس الحديثة لها وفي فهارس المكتبات المعاصرة ويبحث كذلك في كل ما يتصل بتنظيم المكتبات.

وفي جرجان والري وأصفهان وشتي عواصم الملك الإسلامي ، ومن بينها بيت الحكمة في بغداد ، ودار الحكمة في القاهرة وغيرها .

وكانت المكتبات مكاناً للعلم والدراسة القراءة والتأليف والترجمة والمحاضرة وغير ذلك من الأهداف التي قصد إليها بإنشائها .

وعني الأفراد بإنشاء مكتبات خاصة لهم وتنافسوا في اقتناء المخطوطات النفيسة لها .

وظل ذلك شعار الأمم الإسلامية حتى العصر الحديث . . .

\* \* \*

## التراث وأهميته

- ١ -

يطلق التراث في البحث على الكتب المخطوطة التي لم تطبع بعد في جميع مواد الثقافة العربية والإسلامية.

وكتب التراث في البحوث الأدبية تشمل كل المخطوطات في شتى موضوعات الدراسة الأدبية، وهذه المخطوطات موزعة في شتى مكتبات البلاد العربية والإسلامية ومكتبات أوروبا وأميركا، ومعرفتنا بها ممكنة عن طريق فهارس هذه المكتبات، وعن طريق مجلات المخطوطات المتخصصة كمجلة معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية وعن طريق كتاب بروكلمان «تاريخ الأدب العربي».

وكتب التراث في البحوث الأدبية قد يكون فيها كتب على جانب كبير من الأهمية، وقد يكون فيها كتب لم تعرف قيمتها بعد، ولذلك يجب البحث عنها في كل مكان، ويجب تصويرها وإيداع صورها في دور الكتب العلمية في بلادنا العربية، وهذه مهمة جامعة الدول العربية وجامعاتنا العربية المختلفة، والهيئات الثقافية في العالم العربي كمجلس الفنون والأداب، وكᐉمماجمع اللغة العربية في مختلف البلاد العربية، وكوزارات الثقافة والتربية والتعليم فيها.

ومن المهم أن تعرف أن بعض المتخصصين يطلق التراث على الكتب القديمة التي ألفت قبل العصر الحديث مخطوطة أو مطبوعة فهو على هذا الرأي يطلق على جميع المصادر القديمة للثقافة الإسلامية العربية وتعريفه على ذلك الرأي : ما خلفه لنا أسلافنا العرب والمسلمون من كتب ومؤلفات ورسائل وبحوث وما تحتويه هذه الكتب مطبوعة أو مخطوطة من آراء ونظريات لا سبيل إلى حصرها . والتراث إما تراث علمي وإما تراث أدبي ، فال الأول ما ألف في مختلف العلوم ، والثاني هو كتب الأدب العربي .

## - ٢ -

ولقد عنى بالتراث مؤتمر الأدباء السابع الذي انعقد في بغداد في اليوم الثاني من صفر ١٣٨٩ هـ (١٩ أبريل - نيسان ١٩٦٩) ، فطرح موضوع «توثيق الارتباط بالتراث العربي» على بساط البحث ، مع موضوعات أخرى .

إن علينا أن نرجع إلى التراث ، ونستمد منه ، ونأخذ عنه ، ونجدد وفق أصوله فتراثنا الأدبي القديم والحديث صورة واضحة للفكر العربي إلى مختلف عصوره وأجياله الفكر الذي طالما مثل أعظم شريعة ، وأروع نهضة ، وأرفع حضارة ، وأسمى مبادئ وأجل ثقافة ، الفكر الذي كان العالم كله يتلذت إليه ، ويخشى عليه ، ويحيى عليه ويعشو إلى ضوء نهاره المشرق المسفر ، الفكر الذي كانت له مكانته من حركات التجديد والبناء ، وكانت له منزلته الجليلة وريادته النبيلة للأمم والشعوب والنهضات .

تراثنا الأدبي يمثل حقاً كل معالم تاريخنا وقوميتنا وشعائرنا ومشاعرنا وألامنا وأمالنا ويمثل ميلينا وأذواقنا وعواطفنا ، وهو جزء من كياننا وثقافتنا ، لا غنى لنا عنه ، ولا ملاذ لنا سواه .

إن تراثنا الأدبي أضخم أصل من أصول شخصيتنا الحرة الطموح ، ومن عجب أن تزري طائفة من المثقفين فيما بهذا التراث الأدبي الخالد ، وتطرح قيمه ومثالياته ، وتندادي باتخاذ الأدب الغربي نموذجاً نسج على منواله أدباً وثقافتنا وفكرنا .

أليس في هذه الدعوة امتهان لكرامتنا، وإذلال لنفسنا وتاريخنا ورمي لل الفكر العربي بالجمود والضوب، هذا الفكر الذي ارتفع بالإسلام وسما بالقرآن، ونبأ بمدنية الشرق وحضارة المسلمين.

إننا في حاجة دائمة للرجوع إلى هذا النبع الرقراق، والممهل العذب، والغدق النمير، من أجل ثقافتنا وتفكيرنا وجوانب حياتنا الروحية والأدبية، والله ولـي التوفيق.

والخلاصة أن أهمية التراث الأدبي العربي ترجع إلى :

- ١ - أنه يمثل الفكر العربي الإسلامي .
- ٢ - أنه يمثل تاريخنا وحضارتنا وحياتنا وأماننا وألامنا .
- ٣ - أنه يمثل أضخم أصل من أصول شخصيتنا .
- ٤ - إذا كان المستشركون يعنون بتراثنا الأدبي يأخذون منه ويرجعون إليه فالآخرى بنا أن نضعه موضع العناية والتقدير وأن نستفيد منه لما فيه من كنوز ثقافية وأدبية، وإذا رأيت بعض الجهلة هنا ينفر من كتب التراث فاعلم أنه جاهل مفتون بالغرب ومذاهبه الهدامة .

\* \* \*

## فحولة الشعرا، للأصمعي

«اما أبو عبيدة فإذا مكثوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين..  
واما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته»

أبو نواس

أبو سعيد الأصمعي عبد الملك بن قریب الباهلي البصري من أجل الرواة والأدباء والنقاد في القرن الثاني وأوائل الثالث الهجري<sup>(١)</sup>.

نشأ بالبصرة، واختلف إلى حلقاتها العلمية الحافلة، كحلقة أبي عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ - ٧٧١ م)، وحلقة سيوه (١٨٩ هـ - ٨٠٥ م)، وحماد بن سلمة، وسواهم.

وكان أثيراً لدى أستاذه أبي عمرو بن العلاء الراوية البصري، وحمل علمه ورواياته ومذهبه في الأدب من بعده.

وكثرت رحلاته إلى الbadية، يشافه الأعراب، ويروي لهجاتهم وأشعارهم وظرفthem، والكثير من أخبار الأدب عنهم حتى صارشيخ الرواة في البصرة.

(١) راجعه في ترجمته. ١٥٠ - ١٧٢ نزهة الآلاء لاس الأساري، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤٢٠ - ٤١٠ / ١٠، مرآة العنان لليساعي ٦٤ - ٧٧، بغية الوعاء للسيوطى ٢٣٣، طبقات الزبيري رقم ٩٤، ١٤٩ - ١٤٧/٣ تاريخ الأدب العربي لروكلمان، ٢٩٨/٢ ضاح الإسلام لأحمد أمين، فحولة الشعراء للأصمعي. وغير ذلك من مختلف المصادر والمراجع

وكان يقول: «حفظت ستة عشرة ألف أرجوزة»، وهذا إلى جانب ما كان يحفظه من قصائد وأخبار ومؤثرات. وصار للأصممي حلقة كبيرة في البصرة، يجلس فيها الكثير من شباب هذه المدينة الزاهرة، ومن صاروا بعد قليل من أعمال الأدب والشعر والبيان: كالجاحظ (٢٥٥ هـ - ٨٦٧ م) والرياشي (٢٧٥ هـ - ٨٨٨ م) واليزيدي (٢٠٢ هـ - ٨١٧ م) وأبي حاتم السجستاني (٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م) والقاسم بن سلام (٢٢٣ هـ = ٨٣٧ م) ومحمد بن سلام (٢٣١ هـ = ٨٤٥ م) وسواهم.

وكان الأصممي في مطلع حياته يعيش في فقر شديد، فأشار محمد بن سليمان العباسي أمير البصرة على الرشيد أن يجعل الأصممي مؤذباً لبنيه، فاستدعاه الرشيد إلى بغداد عاصمة ملكه، فلبى الدعوة وأقام في بغداد وفي مجالس الرشيد تألفت مواهبه، وظهرت عبريته، حتى كان الرشيد يناظره ويستمع إلى طرائفه ومذخور أدبه وروايته، ويأخذ بقوله في الشعر والنقد، ويسميه «شيطان الشعر». وكانت الأحداث التي مرت بالأصممي تزيد من ألق مواهبه، فلقد عاصر الكثير من أعمال المفكرين والأدباء والشعراء والرواية، وشاهد نهايات الدولة الأموية وقيام دولة العباسيين، وعاش الأيام كلها في عهد السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد.

وكان يمتاز بحلابة الحديث، وجمال التعبير، وطلاوة الأسلوب، حتى كان الإمام الشافعي (٢٠٤ هـ = ٨١٩ م) يقول عنه: «ما عَبَرَ أحدٌ من العرب بأحسن من عبارة الأصممي».

وصار الأصممي شيخ البصريين في الأدب والرواية، ولم يكن ينافسه إلا أبو عبيدة (١١٤ - ٢١٣ هـ)، وكثيراً ما كان الرشيد يجمع بينهما في مجالسه للمناظرة، ويقول أبو نواس وقد سئل عنهما: «أما أبو عبيدة فإذا أمكنوه فرأى عليهم أخبار الأولين والآخرين.. وأما الأصممي فبل بل يطربهم بنغماته»!

وكان الأصممي حافظاً راوية عالماً بارعاً فطناً بأسعار العرب وأخبارهم، كثير التطوف بالبوادي لاقتباس علومها وتلقين أخبارها من غرائب الأشعار،

وعجائب الأخبار، واستولى على الغاية في حفظ اللغة واللهجات ورواية التوارد<sup>(١)</sup>.

## عالم أمين

ويقول عنه تلميذه أبو حاتم: إنه أروى الناس للرجز، ولا تكاد تجد مصدراً من مصادر اللغة والأدب والشعر إلا روى له، وأنحد منه، واحتفى بروايته ..

وكان إسحاق الموصلي (٢٣٥ هـ = ٨٤٩ م) يتلذذ له، ويأخذ عنه، وبعده، ويقول فيه: ما رأيت أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي، ولا أحفظ لجيده، ولا أحضر جواباً منه. ونوه به وبأمانته العلمية الكثير من أعلام الفكر الإسلامي : كالشافعي وأحمد بن حنبل، وغيرهما.

وكان الخليفة المأمون يجله ويكرهه، واستدعاه إلى بغداد فاعتذر بضعفه وشيوخه، فكان يبعث إليه بما يعن له من مسائل يأخذ فيها برأيه، فيرد من الأصمعي الجواب عليها. وفضل خلفاً الأحمر الكوفي (١٨٢ هـ = ٧٩٨ م) في علم الشعر ونقده.

وتوفي في خلافة المأمون بالبصرة، وبعد أن ترك ذكرًا مدوياً، وعلمًا غزيرًا.

وترك الأصمعي مؤلفات كثيرة، بعضها لا يزال مخطوطاً، ومنها: كتاب معاني الشعر<sup>(٢)</sup>، كتاب الأجناس، والأنواع، والصفات، والميسر والقراح، وجزيرة العرب، وكتاب الغريب المخطوط في الأسكوريال، وكتاب رجز العجاج المخطوط بدار الكتب المصرية.

ومن أشهر كتب الأصمعي كتاب «تحوله الشعرا» الذي نقدمه في هذه الدراسة. وهو من أطرف ما وصل إلينا من تراث الأصمعي النبدي، بل أقدم كتاب عربي في النقد. وفي القاهرة منه مخطوطةتان:

(١) ٩٦/٤. سرح الشربي لمقامات الحريري تحقيق محمد عبد المعتمد ١٦٥٠ وبيات الأعيان لأبن خلكان

(٢) ١٨٢ الفهرست لابن التديم.

الأولى: ضمن مجموعة برقم ١١٨١ مجاميع أباظة ٧٣٢٣ - مكتبة الأزهر.

والثانية: نسخة مخطوطة أخرى في المكتبة التيمورية نسخت عام ١٣٣٩ هـ عن نسخة مكتبة الأزهر غالباً.

وقد نشره توري، ثم طبع في القاهرة عام ١٩٥٣ بتحقيق علمي دقيق والكتاب برواية تلميذه أبي حاتم السجستاني العالم اللغوي الثقة، ونهجه نهج الحوار والمساءلة، يسأل أبو حاتم أستاذه الأصمعي عن أحد الشعراء: هل هو فحل أولاً، أو هل هو من الفحول، فيجيبه الأصمعي برأيه فيه، مستدلاً على الحكم النطوي الذي يصدره ببعض ما يؤثر للشاعر من قصائد أو أبيات جيدة، تسلكه في عداد الفحول من الشعراء، وينبه على الشاعر الذي لم يبلغ هذه المترفة، مبيناً تقصيره وحاجته إلى الزيادة على ما قال، حتى يصير فحلاً، وفي بعض الأحيان يتهم الأصمعي بالشاعر الذي يصدر حكمه عليه وعلى شعره تهكماً لاذعاً..

وقد يبالغ الأصمعي في الحكم أحياناً فيقول: ليس في الدنيا مثل هذا البيت أو مثل هذه القصيدة!

## فحول الشعراء وطبقاتهم

وفحولة الشعراء أو فحولهم هم الذين جمعوا الجودة والمزية على غيرهم من الشعراء كمزية الفحل على سواه، أو الذين غلوا على من هاجهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعراً فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة الذي عارض امرأ القيس وحكم له بالغلبة عليه.

ونعني بالفحول باصطلاحنا الحديث أعلام الشعراء وموهوباتهم من حظوا بتقدير النقاد وأجلالهم.

وفي هذا الكتاب لم يترك الأصمعي شاعراً جاهلياً أو مخضرياً أو إسلامياً إلا أبدى رأيه فيه في صراحة وعدالة.

وتميز أحكام الأصمعي النقدية بالجرأة والشجاعة، فهو مثلاً يعد الأعشى الشاعر الجاهلي المشهور ليس من فحول الشعراء، وكذلك صنع مع عمرو بن كلثوم، وعدي بن زيد، ولبيد، ومهلل، وهم من أعلام الشعر الجاهلي. وبعد عمر بن إبي ربيعة مولداً، وكذلك الكميـت الأسدي وعبيـد الله بن قيس الرقيـات، ويـضع زـعامةـ الشـعـرـ الجـاهـلـيـ فيـ يـدـيـ النـابـغـةـ وـأـمـرـئـ الـقـيـسـ،ـ معـ ماـ فـيـ الـأـصـمـعـيـ مـنـ روـحـ الـعـصـبـيـةـ لـالـشـعـرـ الجـاهـلـيـ ولـالـجـاهـلـيـينـ حـتـىـ لـيـسـأـلـ عـنـ مـكـانـةـ جـرـيرـ وـالـفـرـزـدقـ وـالـأـخـطـلـ،ـ فيـقـولـ:ـ «ـهـؤـلـاءـ لـوـ كـانـواـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ كـانـ لـهـمـ شـأنـ»ـ.

يفضل الأصمعي النابغة الذبياني على سائر الشعراء الجاهليـينـ،ـ وـيرـاهـ أـوـلـ الفـحـولـ...ـ ثـمـ يـسـتـدـرـكـ عـلـىـ هـذـاـ الحـكـمـ لـمـكـانـةـ اـمـرـئـ الـقـيـسـ فـيـ الـشـعـرـ فـيـقـولـ:ـ بـلـ أـوـلـهـمـ كـلـهـمـ فـيـ الـجـوـدـةـ اـمـرـئـ الـقـيـسـ لـهـ الـحـظـوـةـ،ـ وـلـهـ السـبـقـ،ـ وـكـلـهـمـ أـخـذـوـاـ مـنـ قـوـلـهـ،ـ وـاتـبـعـوـاـ مـذـهـبـهـ.ـ وـهـوـ أـوـلـ مـنـ بـكـيـ الـدـيـارـ.

وهو على أية حال شديد التعلب للنابغة يراه أشعر الناس، ولا يقدم عليه أحداً إلا امرأ القيس، والنابغة عنده أشعر من زهير، وزهير في رأيه لا يصلح أن يكون أجيراً له، بل أن أوس بن حجر أشعر من زهير.

وهناك شاعر جاهلي آخر اعتد بشعره، وأعلى من منزلته، وهو طفـيلـ الغـنـوـيـ (ـتـوـفـيـ ١٣ـ قـ.ـهـ.)ـ الـذـيـ رـآـهـ أـشـعـرـ مـنـ اـمـرـئـ الـقـيـسـ،ـ مـعـ أـخـذـ طـفـيلـ مـنـ اـمـرـئـ الـقـيـسـ.ـ وـكـانـ طـفـيلـ كـمـاـ يـقـولـ الـأـصـمـعـيـ -ـ يـسـمـىـ «ـمـجـبـراـ»ـ لـحـسـنـ شـعـرـهـ.ـ وـيـقـولـ الـأـصـمـعـيـ:ـ إـنـ كـثـيرـاـ مـنـ شـعـرـ اـمـرـئـ الـقـيـسـ لـصـعـالـيـكـ كـانـواـ مـعـهـ،ـ وـيـذـكـرـ مـنـهـمـ عـمـرـوـ بـنـ كـلـثـومـ (ـتـوـفـيـ ٦٩٠ـ هـ =ـ ٧٠٨ـ مـ).ـ

ومن الشعراء الذي نفى الفحولة عنـهمـ:ـ الرـاعـيـ النـمـريـ الشـاعـرـ الـأـمـوـيـ المشـهـورـ (ـتـوـفـيـ ٤١ـ هـ =ـ ٦٦١ـ مـ).

وقـالـ عـنـ لـبـيـدـ الشـاعـرـ الجـاهـلـيـ صـاحـبـ الـمـعـلـقـةـ المشـهـورـةـ «ـعـفتـ الـدـيـارـ..ـ»ـ (ـتـوـفـيـ عـامـ ٤١ـ هـ =ـ ٦٦١ـ مـ):ـ أـنـهـ لـيـسـ بـفـحـلـ وـشـعـرـهـ كـأـنـهـ طـبـلـيـسـانـ طـبـرـيـ<sup>(١)</sup>ـ يـعـنيـ أـنـهـ جـيدـ الصـنـعـةـ وـلـيـسـ لـهـ حـلـاوـةـ.

(١) أي من صنعة طبرستان وكانت مشهورة بصعمها.

ويذكر كعب بن زهير صاحب القصيدة المشهورة في مدح الرسول ﷺ ،  
ويرى أنه ليس فحلاً (وكعب توفي عام ٢٤ هـ = ٦٤٤ م).

وكان يفضل جريراً على الفرزدق، ويتعصب له، ويقول: إن تسعة  
أعشار الفرزدق مسروق وقد علق المرزباني في «الموشح» على هذا الرأي  
وقال: إن هذا تحامل شديد من الأصمعي على الفرزدق لهجائه باهله قبيلة  
الأصمعي .

وكتب بن سعد الغنوبي شاعر أموي يقول فيه الأصمعي إنه ليس من  
الفحول إلا في المرثية التي رثى بها أخيه .

ويقول عن هذه المرثية إنه ليس في الدنيا مثلها .

ويقول في جعفر البارقي وهو من صناعيك الشعراء في العصر الأموي :  
إنه لو أتم خمساً أو ستة من القصائد كان فحلاً .. وكذلك قال في ثعلبة بن  
صعير المازني : لو قال مثل قصيده الرائية - التي روتها له المفضل الضبي في  
كتابه «المفضليات» - خمساً من القصائد، كان فحلاً .. وكذلك قال في  
الحويدرة الشاعر المحضرم .

ويقدم الأصمعي ليلى الأخيلية (ت ٨٠ هـ - ٦٩٩ م) على الخنساء  
(٥٤ هـ = ٦٧٣ م)

ويرى أن بشاراً (ت ١٦٧ هـ = ٧٨٣ م) خاتمة الشعراء، ويفضله على  
مروان بن أبي حفصة (ت ١٨٠ هـ = ٧٠٦ م) لأن مرwan سلك طريقاً كثراً  
سالكوه، وبشار سلك طريقاً لم يسلكه أحد، وانفرد به، وأحسن فيه، وهو  
أكثر فنون شعر، وأقوى على التصرف، وأغزر، وأكثر بديعاً.

\* \* \*

وأرجح أن الكتاب ألف نحو عام ١٦٧ هـ. والأصمعي في الخامسة  
والأربعين ، وتبدو أهميته في أنه في نظرنا يعد أقدم المصادر العربية في النقد  
والحكم على الشعراء. وكان المعروف من قبل أن أقدم المصادر العربية في  
النقد هو كتاب «طبقات الشعراء» لأبن سلام الجمحي (٢٣١ هـ = ٨٤٥ م)

الذى ألفه نحو عام (٢١٧ هـ) وبظهور كتاب «فحولة الشعراء» تقدم مصادرنا النقدية نحو نصف قرن من الزمان.

## أول مصادر النقد

كان الباحثون يرون أن «طبقات الشعراء لابن سلام» أول مؤلف في النقد<sup>(١)</sup>. فما ظهر كتاب الأصمعي ونشر وقرأه الدارسون عادت أولية المصادر المؤلفة في النقد الأدبي في لغتنا العربية إلى كتاب «فحولة الشعراء» للأصمعي وأصبح هذا الكتاب هو أول مصادرنا النقدية القديمة، وعاد كتاب ابن سالم «طبقات الشعراء» هو المصدر التالي له.

وفي الحقيقة أن الأصمعي هو الأستاذ الأول للنقاد العرب جمياً، والشروة النقدية التي يضمها كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، مما ينسب إلى الأصمعي، ثروة كبيرة لو جمعت كلها لوضعت الأصمعي في أعلى مكان في النقد العربي، ولأبانت عن فضله وسبقه ومواهبه النقدية.

وإذا كان استاذه أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية كما يقول الجاحظ في «البيان والتبيين» (١ : ٢٠٩)، فإن الأصمعي كان أعلم الناس بالشعر وجوهره وجديه من رديشه، وكان دقيق الحكم على الشعراء، مصيباً في نظره الندي وأحكامه على شعرهم.

ويذكر ابن سالم في كتابه «طبقات الشعراء» أن لأهل البصرة قدماً تابتة في العربية، وقد بدأ النقد اللغوي فيها على أيدي مثل ابن إبي اسحاق الحضرمي أساساً لحركة النقد الأدبي في البصرة التي ظهرت على يدي الأصمعي الذي خطى خطى استاذه أبي عمرو بن العلاء، ونهجه، وسار في دربه، وغرف من بحره وكان أبو عمرو أشد الناس تسلیماً للعرب. أما الكوفة فانفردت بجمع الشعر وتدوينه وكان حماد أول من جمع الشعر، كما كان قتادة مرجعاً للناس في روایته. ولما ظهر حلف الأحرmer نهضت حركة النقد في الكوفة، ثم سارت مع حركته في البصرة في خطى متقاربة.

---

(١) ٢١٨ تاريخ آداب اللغة العربية بلورجي ريدان . ٧٤ تاريخ النقد الأدبي عد العرب لطه إبراهيم

والأصمعي يعتد بمنزلته في النقد اعتداداً كبيراً، يروى أنه وهو في بغداد في زمن الخليفة الرشيد عرض بعض الشعراء عليه شعراً رديئاً، فبكى الأصمعي، ولما سُئل عن سبب بكائه، قال: ييكيني أنه ليس لغريب قدر، لو كنت بيلاقي البصرة ما جسر هذا أن يعرض عليّ هذا الشعر وأسكت عنه.

وهو صاحب الأحكام النقدية المشهورة على مدرسة «عيذ الشعر» وصاحب نظرية تقلل الشعر في القبائل العربية فيروى أن الشعر كان أولاً في اليمن، ثم صار إلى ربيعة، وصار بعدها في قيس، وجاء الإسلام فصار في تميم. وصاحب كثير من النظريات الأدبية والنقدية التي أخذت عنه، ورجع فيها النقاد إليه.

ولقد نشأ في القرن الثاني الهجري مذهبان في النقد: مذهب يتعصب للجيد ممن كان وفي أي زمن كان.

ومذهب يتعصب للقديم الجاهلي ولا يفضل عليه شيئاً.

وكان الرواة كالأصمعي وأبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء أستاذهما من البصريين، وكhammad وخلف الأحمر من الكوفيين، يهتمون برواية الشعر وجمعه وكان للأصمعي وخلف منزلتهما في النقد، وخلف يجمع كثيراً من الآداب<sup>(١)</sup> وكان كثير الشعر جيدة<sup>(٢)</sup>، وكان يفضل شعراً لمروان بن أبي حفصه على شعر للأعشى<sup>(٣)</sup>.

والكثيرون لا يجرؤون مع خلف في حلبة النقد، ولا يشقون له غباراً لنفاذها فيها، وحذقه بها، وإنجادته لها<sup>(٤)</sup>.

### التعصب للشعر الجاهلي

وكان خلف وتلاميذه من مدرسة الكوفة يتعصبون للجيد وحده. بينما كان أبو عمرو بن العلاء يتعصب للقديم الجاهلي وحده ويرى فيه النموذج

(١) ٢٤٣/٣ البيان والتبيين للجاجطي.

(٢) ٣٠٨ الشعر والشعراء لأبن قتيبة.

(٣) ٤٠٣/٣ العقد الفريد لأبن عذرية.

(٤) ١٩٧/١ العمدة لأبن رشيق - تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد

الفنى الأكمل . ويفضله على غيره ، وقال عن الأخطل : لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً .

وقال الأصمعي : جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج - سنتين -  
فما رأيته يحتج ببيت إسلامي . وكذلك نهج تلميذه الأصمعي منهجه ، فقال  
عن الفرزدق وجرير والأخطل : لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن .

ومن نظرية أبي عمرو بن العلاء وتلميذه الأصمعي في التعصب للشعر  
الجاهلي والغلو في الإنكار على المحدثين وشعرهم ، نشأت نظرية عمود  
الشعر العربي عند الناقد الجليل أبي الحسن الأمدي - «٣٧١ هـ = ٩٨١ م»  
صاحب كتاب «الموازنة بين الطائفين - أبي تمام والبحري - في شعرهما» ،  
الذى يعد من أروع كتب النقد العربي القديم ، وقد سبق الأمدي في اعتناق  
هذه النظرية أدباء ونقاد كثيرون ولكن الذي فصل الكلام عليها ، وطبقها على  
شاعرين مشهورين مثل أبي تمام والبحري ، هو الأمدي . وأساس «عمود  
الشعر» هو الرجوع إلى كل القيم الفنية القديمة الموروثة من الشعر الجاهلي ،  
واتخاذها منهاجاً يتحكم إليه النقاد في الشعر والشعراء ، والحكم عليهم  
بالجودة أو الرداءة .

ولا شك أن كتاب «فحولة الشعراء» لأبي سعيد الأصمعي قد صار  
مصدراً للكثير من الآراء النظرية بعد الأصمعي ، وبعد عصره . ويأخذ منه  
الناقدون ، ويرجعون إليه ، ويحتفون برأيه ، فإذا قال الأصمعي - مثلاً - في  
طفيل الغنو الشاعر الجاهلي (١٣ ق. هـ - ١٦٠ م) إنه كان يسمى «محبراً»  
لحسن شعره وجدنا ذلك عند النقاد في القرن الرابع والخامس الهجري كابن  
رشيق صاحب «العمدة» ومن قبله المرزبانى صاحب «الموشح» و «المؤتلف  
والمحتف» ، و «معجم الشعراء» .

ويستمر صدى الأصمعي وكتابه وآرائه النقدية في جميع مصادر الأدب  
العربي ، وعند جميع النقاد القدماء ، زمناً بعد زمن ، وجيلاً بعد جيل ، لأن  
الأصمعي كان له التراث العربي النبدي كبير وزن ، وكان له فضل أولية  
وأستاذية .

# طبقات الشعرا، الجاهليين والاسلاميين

لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي البصري

- ١ -

نشأ ابن سلام (عام ٢٣١ هـ) في بيته البصرة العلمية الحافلة، التي كانت من أكبر مراكز الحياة العقلية العربية. وكان عمران البصرة قد أخذ في الاتساع، والحياة فيها تزدهر وتغلب عليها الصبغة الحضارية. ونبغ منها فحول العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء. وفي القرن الثاني كان ثراء البصرة بالغاً غاية ما يتصور، واتسع البصريون في المال والتجارة، ويرزت المدينة في الميدان اللغوي، ليتحررها في العمran والثقافة، ولقربها من الbadia التي عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة، وقد اشتهرت هذه المدينة بمربيها، الذي كان في الإسلام سوقاً أدبية كبيرة كسوق عكاظ في الجahiliya. والمربي: ضاحية من ضواحي البصرة في الجهة الغربية منها، مما يلي الbadia، بينه وبين البصرة ثلاثة أميال، وكان سوقاً عاملاً للإبل والتجارة أولاً، ثم للغة والشعر والنقد والبلاغة أخيراً، فأصبح صورة لعكاظ، فهو سوق للتجارة وسوق للدعوات السياسية، وسوق للأداب، وصار المجتمع العربي من مختلف العواصم يتناشدون فيه القصائد، ويروون عن أغراه طرائف الأخبار والأثار. وزخر المربي بالشعراء، فكان لجرير فيه حلقة، وللفرزدق حلقة، وكذلك كان للعجب ولذى الرمة، وغير هؤلاء، حلقات ينشدون فيها أشعارهم، وحولهم الناس يسمعون منهم، ويررون عنهم، وكان شباب البصرة يخرجون إليه لتلقى الأعراب ومشافهتهم والأخذ عنهم وتدوين بلاغاتهم، يقول أبو نواس

(١٤٥ - ١٩٨ هـ) : «بكرت إلى المربد ومعي الواحي أطلب أعرابياً فصيحاً»،  
ويقول الماجحظ : أدركت رواة المسجديين والمربيين.

وفي هذه البيئة العلمية نشأ ابن سلام ، فأخذ عن حماد بن سلمة ، وعن  
الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٠ هـ) ، وعن كثير من العلماء .

ومن مربد البصرة ، وحلقات المسجديين ، ودورس العلماء ، ومشافهة  
الأعراب ، وأحاديث البلاء ، ومجالس الفصحاء ، أخذ ابن سلام الكثير من  
ضروب العلم والمعرفة . فتخرج عالماً أدبياً متذوقاً ناقداً ، أميناً في الرواية ،  
حرি�ضاً على الإفادة والاستفادة ، حتى لقد روى عنه الإمام أحمد بن حنبل  
(٢٤٠ هـ) ، وأبو العباس ثعلب (٢٩١ هـ) وغيرهما من أئمة الدين واللغة  
والآدب ، كما يقول ابن الأنباري (٥٧٧ هـ) في كتابه نزهة الألباء في طبقات  
الآدباء ، وقد استشهد بأرائه ، ورجع إليه في تعين طبقات كثير من الشعراء  
أبو الفرج (٣٥٦ هـ) في كتابه «الأغانى» ، وأبو علي القالي (٣٥٦ هـ) في  
كتابه «الأمالى» ، والزجاج في أماليه أيضاً ، وعول عليه كل النقاد : كابن قتيبة  
(٢٧٦ هـ) في «الشعر والشعراء» ، وابن رشيق (٤٥٦ هـ) في «العمدة» ،  
وسواهـما ، وذكره مؤلف كتاب «كشف الظنون» في مقدمة من كتبوا في طبقات  
الشعراء .

وهكذا كان هذا الرواية العالم بالشعر ، المؤلف في نقهـه ، والذي عاش  
في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري والثلث الأول من القرن الثالث ،  
حيث درس وتثقـف ، وأحاط باللغة والأدب والأشعار ، واهتم بالنقد مع تأثر  
بروح عصره في الاستيعاب والشرح والتحليل ، وألف كتاب «طبقات الشعراء  
الجاهليـن» ، وكتاب «طبقات الشعراء الإسلامـيين» اللذين جمعـا في كتاب  
واحد باسم «طبقات الشعراء الجاهليـن والإسلامـيين» ، أو باسم «طبقات  
فحول الشعراء» . ويبدو أن المقدمة المطبوعة في أولهـ في طبعة المكتبة  
المحمودية هي مقدمة كتاب «طبقات الشعراء الإسلامـيين» ، يرشـد إلى ذلك  
الكثير من النصوص التي وردت في هذه المقدمة كقولـه : «ورتبـت هذا المؤلف  
على عشر طبقات ، كل طبقة تجمع أربعاً من فحول شـعـراء إسلامـ». وقد  
حقـق الأستاذ محمود شـاـكر الكـتاب تـحـقيقـا علمـياً فـريـداً ، وقد روـاه عن ابن

سلام ابن أخيه أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي (٣٠٥ هـ)، الذي ينوه الحصري في «زهر الآداب» بأدبه وبلاغته.

- ٢ -

في مقدمة الكتاب الحافلة بالآراء النقدية، يذهب ابن سلام إلى أن الشعر صناعة وثقافة، وأن الذي يعرفه ويميز بينه هم نقاده الخبيرون به، وعدد الالواناً من جهل العلماء بالنقد، وبالشعر. ومنهم ابن إسحاق (١٥٢ هـ) الذي روى شعراً على السنة رجال لم يقولوا الشعر قط، ثم جاوز ذلك، فروى شعراً على لسان عاد وثمود، مع وضوح الدلائل على أن هذه الأمم البائدة لم يبق أحد يستطيع أن يروي لها أو عنها، على أن إسماعيل عليه السلام كان أول من تكلم العربية، وإليه تنسب العرب كلهم إلا حمير وبقایا جرهم، حتى كان أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) يقول: ما لسان حمير وأفاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربتنا. ويدرك ابن سلام أن لأهل البصرة قديماً ثابتة في العربية ولغات العرب، وكان أبو الأسود (٦٨ هـ) أول من أنجز سبيل العربية، وووضع قياسها، وعلى أثره سار تلاميذه: يحيى بن يعمر، ثم ابن أبي إسحاق الحضرمي، الذي كان أول من مد القياس والعلل، ثم أبو عمرو بن العلاء. وكان ابن أبي إسحاق أشد تجريداً للقياس، وأبو عمرو أوسع علمًا بكلام العرب ولغاتهم. وظهر عيسى بن عمر، فأخذ عن ابن أبي إسحاق، كما أخذ عن يونس، وعن أبي عمرو. وكان ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان على لغة العرب، من حيث كان أبو عمرو أشد تسليمًا لهم. وكان مذهب البصريين في التحوّل لا يقبل إلا القياس ويرفض ما عداه، فكان نقدتهم اللغوي النحوي أساساً لحركة النقد الأدبي في البصرة.

وظهر الخليل بن أحمد، فابتكر العروض، ثم جاء خلف الأحمر (١٨٢ هـ)، وكان أفرس الناس بيت شعر، وأصدقهم لساناً، ثم أبو عبيدة (٢٠٨ هـ)، والأصمي (٢١٦ هـ) والمفضل الضبي (١٨٩ هـ). وكان يونس يجعل عيوب الشعراء أربعة: الإبطاء، والإكفاء، والسناد، والزحاف.

وتناولت المقدمة - فيما تناولت - الشعر العربي ونشأته وتطوره وتنقله في القبائل، وانتقاله.

وقد رتب ابن سلام في كتابه *الشعراء الجاهليين والإسلاميين* في منازلهم، وأساس ذلك هو قول السلف فيهم، ثم اجتهد العلماء ورأيهم، وإن كان للقبائل وعصبيتها لشعرائها أثر في ذلك.

ويذكر ابن سلام في مقدمة الكتاب ضياع الكثير من نصوص الشعر الجاهلي، ومن أدلة ذلك: ضياع الكثير من شعر طرفة بن العبد، ومن شعر عبيد، وكان من أقدم الشعراء، ويستطرد إلى أن القصائد إنما قصدت في عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وأول من قصد القصائد الشعرية هو المهلل بن ربعة.

وفي تنقل الشعر في العرب يذكر ابن سلام أن الشعر كان في ربعة، ثم تحول في قيس. ثم آل إلى تميم، وحماد الرواية (١٥٦ هـ) هو أول من جمع أشعار العرب، وروى أحاديثها. وكان قتادة مرجعاً للناس في رواية الشعر.

### - ٣ -

ويعرض ابن سلام للطبة الأولى من شعراء الجاهليين، وهم: امرؤ القيس، والنابغة وزهير والأعشى، ويقدم الكثير من النقاد أمرؤ القيس، وأهل الكوفة يقدمون الأعشى، وأهل الحجاز يقدمون زهيراً والنابغة، وكان ابن أبي إسحاق يقدم المرقش من الجاهليين، وكثيراً من الإسلاميين، وكان عمر بن الخطاب يقدم زهيراً لأنه كان لا يعظزل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، وكذلك كان جرير يقدمه في الجاهليين ويمدح الفرزدق في الإسلاميين، ويقول: «زهير شاعرهم، والفرزدق تبعه الشعر، والأخطل يجيد مدح الملوك وصفة الخمر»، ويقول عن نفسه: إني نحرت الشعر نحراً، وكان خلف يعجب بالأعشى، وكذلك كان ابن أبي العلاء الذي شبه جريراً بالأعشى والأخطل بالنابغة والفرزدق بزهير.

أما الطبة الثانية عند ابن سلام فهم: كعب بن زهير - والخطيبة .. أوس بن حجر - بشر بن أبي خازم.

والثالثة : النابغة الجعدي - وأبو ذؤيب والشماخ ولبيد .  
 والرابعة : طرفة ، وعبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل ، وعدى بن زيد .  
 والخامسة : خداش بن زهير - الأسود بن يعفر - والمخبيل - وتميم بن أبي مقبل .  
 والسادسة : عمرو بن كلثوم التغلبي - والحارث بن حلزة ، وعترة العبسي - وسويد بن أبي كاهل اليشكري .  
 والسابعة : سلامة بن جندل - الحصين بن الحمام المري - المتلمس - المسيب بن علس .  
 والثامنة : عمرو بن قميئه ، النمر بن تولب - أوس بن غلفاء عوف بن عطية .  
 والتاسعة : ضابع بن الحارث البرجمي ، وسويد بن كراع ، والحويدرة الذبياني - وسحيم .  
 والعشرة : أمية بن حرثان بن الأسكندر - وحريث بن محفض المازني - والكميت - وعمرو بن شاش .

ويضيف إلى ذلك ابن سلام :

- ١ - طبقة شعراء المراثي : متمن بن نويرة - الخنساء - أعشى باهلة - كعب بن الغنوبي .
  - ٢ - شعراء القرى العربية (مكة - المدينة - الطائف - اليمامة - البحرين) :
- (أ) فشعراء المدينة : حسان - كعب بن مالك - عبد الله بن رواحة - قيس بن الخطيم - أبو قيس بن أبي الأسلت .
- (ب) وشعراء مكة : عبد الله بن الزيعري - أبو طالب بن عبد المطلب - أبو سفيان بن الحارث - مسافر بن أبي عمرو بن أمية - ضرار بن الخطاب - أبو عزة الجمحى - عبد الله بن حذافة السهمي - الممزق - هبيرة بن أبي وهب .
- (ج) شعراء الطائف : أبو الصلب بن أبي ربعة - أمية بن أبي الصلت - غيلان بن سلمة - كنانة بن عبد ياليل - أبو محجن الثقيلي - غilan .

- (د) شعراً البحرين: المثقب العبدي - المفضل بن معشر بن أسمح .
- (هـ) شعراً اليهود في المدينة وضواحيها: السموأل - الربيع بن أبي الحقيق - كعب بن الأشرف - شريح بن عمران - شعبة بن الغريض - أبو قيس بن رفاعة - أبو الذيال - درهم بن زيد .

- ٤ -

- أما الشعراء الإسلاميون فكذلك يجعلهم ابن سلام طبقات :
- الأولى : جرير - الفرزدق - الأنسطل - الراعي ، وقد ثارت معارك نقدية كبيرة حول أيهم أشعر .
- والثانية : البعيث - القطامي - كثير - ذو الرمة ( ١١٧ هـ ) .
- والثالثة : كعب بن جعيل - عمرو بن أحمر البايلي - سعيم بن وثيل الرايحي - أوس بن مفرأة .
- والرابعة : نهشل بن حري - حميد بن ثور - عمرو بن لجا - الأشهب بن رميلة .
- والخامسة : أبو زيد الطائي - العجير السلوبي - عبد الله بن همام السلوبي - نفيع بن لقيط .
- والسادسة : ابن الرقيات - الأحوص - جميل - نصيب .
- والسابعة : المتوكل الليثي - يزيد بن مفرغ - زياد الأعجم - عدي بن الرقاع .
- والثامنة : عقيل بن علقة المري - بشامة بن العذير المري - قراد بن حنش - شبيب ابن البرصاء .
- والنinthة : الأغلب - أبو النجم - العجاج - رؤبة .
- والعاشرة : مزاحم العقيلي - يزيد بن الطثرية - أسو دؤاد الرؤاسي - القصيف العقيلي .

- ٥ -

ويمتاز الكتاب بالأصالحة والعمق والتحليل الدقيق ، والنقد الممتع لرجال هذه الطبقات وحياتهم ومذاهبهم الفنية في الشعر .

وهو من مصادر ثقافتنا الأدبية في النقد، ولا يكاد يستغنى عنه باحث أو دارس، وهو ضروري في دراسة النقد، وجامع لكثير من الآراء فيه.

ويعد ثرورة طائلة في النقد والشعر وتطوره وانتقاله وانتقاله وفي الرواية والرواية والأراء النقدية المبثوثة فيه. ويدل الكتاب على ثقافة ابن سلام الأدبية الواسعة وعلى ذوقه العالي ومنهجه في النقد.

على أن كل طبقة عند ابن سلام تتتألف من أربعة شعراء - ولكن الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية الكلام فيها ناقص ومبتوء بضياع بعض أصول الكتاب، إذ لم يذكر فيها إلا شاعران اثنان فحسب - ومن الملاحظ أنه لم يذكر أوس بن حجر ولا المهلل مع الشعراء.

والكتاب مهم لكل من يريد دراسة الشعر والنقد وتطورهما واتجاهاتهما ومناحي الرواية.

## - ٦ -

ومن البدهي أن النقد عند ابن سلام ذاتي لا موضوعي، إذ هو يقوم على الذوق الخاص ويعتمد على التجربة الشخصية، ويبعد عن المنهج الموضوعي العلمي. فأساس النقد عند ابن سلام هو الذوق الأدبي، وهو ملكة مردها إلى أصلالة الطبع، وصدق المران، يقول ابن سلام في مفتاح كتابه :

للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم.

ويعرض ابن سلام في المقدمة منهجه في كتابه فيقول: فصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما قال فيه العلماء (أي النقاد).

ثم يقول:

ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات، كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الإسلام.

ولقد ثارت قضية أول مؤلف في النقد، والكثير يجعلون ابن سلام أول من كتب في النقد وأنا أرجع ذلك إلى الأصمعي وكتابه «فحولة الشعراء» الذي ألف قبل «طبقات الشعراء» لابن سلام بوقت غير قصير.

وابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء» محتد لابن سلام، وتتابع له، ومتأثر به غاية التأثر، وقد عني بالمحدثين ودافع عنهم.

يبد أن ابن سلام لم يعرض للمحدثين، بل وقف عند الإسلاميين ولم يجاوزهم إلى المحدثين.

ومعنى الطبقة عند ابن سلام أن شعراءها نظراً، وتجمع بينهم صفة مشتركة، وقدر واحد من الموهبة وسلامة الفطرة، وليس معنى الطبقة المعاصرة التاريخية، ولا شيئاً من ذلك، ولكنها تعني كما قلت تشابه الشاعرية وتشاكل الموهبة الفنية.

وابن سلام هو على أية حال أول من رتب الشعراء طبقات، وذلك في حد ذاته يعد عملاً نقيدياً كبيراً وجديداً في الوقت نفسه، ويعرف من منزلة ابن سلام بين النقاد إلى مكانة عالية.

وإذا كان ابن المعتر قد ألف بعده كتابه «طبقات الشعراء المحدثين» أو «طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء» فإنه لم يعن فيه بترتيب الشعراء المحدثين وتقسيمهم إلى طبقات، قدر عنايته بحياتهم والترجمة لهم وذكر نماذج من شعرهم وبيان بعض الآراء النقدية في هذا الشعر. ومن ثم لم يأخذ كتاب ابن المعتر المكانة العلمية التي أخذها كتاب ابن سلام، وكان كتاب ابن المعتر أقرب إلى كتب التراث من حيث كان كتاب ابن سلام من صميم كتب النقد، وذلك واضح الصيغة في الكتاب.

## عيار الشعر

لابن طباطبا

- ١ -

ابن طباطبا محمد بن أحمد العلوى الأصبهانى من أشهر أعلام القرن الثالث وأوائل الرابع الهجرى في الأدب والشعر والنقد، وكتابه «عيار الشعر» من أهم كتبنا التراثية في النقد، وهو مصدر جليل في الدراسات النقدية والبلاغية والأدبية.

ولابن طباطبا كتاب آخر مفقود يذكره في كتابه «عيار الشعر»، واسمه «تهذيب الطبع» وهو مختارات شعرية لأعلام الشعراء، جمعها لتكون نبراساً لشباب الشعراء، يهدى لهم إلى روائع الشعر، ومناهج نظمه، ومذاهب الشعراء في معانيه وأساليبه.

وله كتاب آخر في العروض يذكره ياقوت في «معجم الأدباء»<sup>(١)</sup>، ويقول: إنه لم يسبق إليه.

ومن «عيار الشعر» نسخة محظوظة في الأسكندرية، يرجع تاريخ نسخها إلى عام ٧٧٠ هـ، وقد قام معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة بتصويرها. وعن هذه المصورة نشر الكتاب عام ١٩٥٦ هـ الدكتوران طه الحاجري ومحمد زعلول سلام، وأصدرته المكتبة التجارية بالقاهرة.

(١) ١٧ - ١٥٠ معجم الأدباء نشر فريد رفاعي - القاهرة

ولد ونشأ وعاش ابن طباطبا في أصبهان بعيداً عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

وكانت أصبهان من مراكز الثقافة والحضارة الإسلامية في إيران آنذاك<sup>(١)</sup> وفيها نشأ أبو الفرج الأصبهاني (٣٥٦ هـ) صاحب كتاب «الأغاني» وفي رحابها عاش الراغب الأصفهاني صاحب كتاب «محاضرات الأدباء» وأبو نعيم الأصبهاني صاحب كتاب «حلية الأولياء». ومن علمائها: أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصبهاني صاحب كتاب أصبهان، وعلي بن حمزة الأصبهاني، وسوى هؤلاء الأعلام من الأدباء والشعراء والكتاب والمؤلفين.

ويرجع نسب ابن طباطبا إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما. وقد نشأ بأصبهان ولم يفارقها قط، وأخذ عن علمائها، ونبغ في الكتابة والأدب والشعر والتأليف، وكان بينه وبين أدباء عصره صلات أدبية وثيقة، ومن بينهم ابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) وكان ابن المعتز لهجاً بذكرة، مقدماً له على سائر أهله «من العلوين الشعراء»، ويقول: ليس في ولد الحسن من يشبهه، وكان ابن طباطبا طول أيامه مشتاقاً إلى ابن المعتز، متمنياً أن يلقاءه، أو يرى شعره، فأما لقاوه فلم يتفرق له لأنه لم يفارق أصبهان وأما ظفره بشعره، فإنه اتفق له في آخر أيامه كما يقول ياقوت في معجم الأدباء<sup>(٢)</sup>.

وكان ابن طباطبا يعد من مشاهير أعلام أصبهان وشعرائها كما ذكره حمزة الأصبهاني في كتابه ونقله عنه الشاعري في «يتيمة الدهر»<sup>(٣)</sup>. ويقول

(١) أصبهان مدينة الحصارات والمفنون في إيران الإسلامية، وتبعد عن طهران بمقدار ٤٢٠ ك.م، وفيها كثير من الآثار الإسلامية القديمة ولموقعها الحغرافي الممتاز في وسط إيران وجوهاً المعتمدل، اختارها السلاسلقة عاصمة لهم في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وفي القرنين العاشر والحادي عشر اتخذوا الصعبون عاصمة لدولتهم، فازدادت سعة وانتشارها وعمراً واردهاراً، وقد راها الرحالة العرب القدامي، ومهم ابن بطوطة، وقد وصموها بأنها مدينة عامرة تحيط بها البساتين والمرروج وسكانها اليوم نحو السعمائة ألف، وتشتهر بالصلون وبعض الصناعات التقليدية. وفيها اليوم جامعة حديثة تعرف باسمها.

(٢) ١٧ - ١٥٠ وما بعدها - المرجع السابق

(٣) ٣ - ٢٦٧ يتيمة الدهر للشاعري شر الصاوي - ١٩٣٤ القاهرة

ياقوت عنه في «معجم الأدباء» إنه «شاعر مفلق، وعالم محقق، شائع الشعر، نبيه الذكر».

- ٣ -

وأما كتاب «عيار الشعر» فهو من أوائل الكتب التي ألفت في النقد، ومنها: فحولة الشعراء للأصمعي (٢١٦ هـ)، وطبقات الشعراء لابن سلام (٢٣١ هـ)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ)، والرسالة العذراء لابن المدبر (٢٧٩ هـ)، وقواعد الشعر لشلب (٢٩١ هـ)، والبديع لابن المعتر (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ)، ونقد الشعر لقديمة بن جعفر (٢٦٠ - ٣٣٧ هـ).

وفي «عيار الشعر» صلات متشابهة بينه وبين مقدمة «الشعر والشعراء» لابن قتيبة. ويقول ابن طباطبا في فاتحة الكتاب:

فهمت - حاطك الله - ما سألت أن أصفه لك من علم الشعر، والسبب يتوصل به إلى نظمه، وتقريب ذلك على فهمك، والتائي لتيسير ما عسر منه عليك، وأنا مبين ما سألت عنه، وفاتح ما يستغلق عليك منه»<sup>(١)</sup>.

وفي الكتاب تناول ابن طباطبا قضايا أدبية وبلاطية ونقدية كثيرة.

فمن القضايا الأدبية التي أثارها ابن طباطبا:

- ١ - تناول ضرورة الوزن «الموسيقى» للشعر، وأن الطبع والذوق يغنيان في ذلك عن العروض، وأما من اضطرب عليه الذوق فهو لا يستغني عنه<sup>(٢)</sup>.
- ٢ - ويرى أن الشعر إن عري من معنى بديع فلا يصح أن يعرى من حسن الدبياحة، وأن ما خالف هذا - أي خلا منهما معاً - ليس بشعر<sup>(٣)</sup>، فللشعر جسد وروح، فجسده النطق، أي اللفظ، وروحه المعنى<sup>(٤)</sup>.

٣ - وتحدث عن أدوات الشعر: من التوسيع في اللغة والنحو، والرواية لفنون الأداب، والمعرفة بالأيام والأسباب، والوقوف على مذاهب العرب في

(١) ص ٣ عيار الشعر.

(٢) ص ١٧ المرجع نفسه.

(٣) ص ١٢١ المرجع نفسه.

(٤) ٤٥٥ عيار الشعر

الشعر، ومناهجهم في نظمه وأسلوبه، وفي الصياغة والبلاغة، لتكون القصيدة بعد نظمها عملاً فنياً جيداً، ولتكون كالسيكة المفرغة، والوشي المننم، والعقد المنظم، فتسابق معانيها ألفاظها، وألفاظها معانيها وتكون الألفاظ منقادة لما يراد له، وغير مستقرة، وتكون القوافي كالقوالب للمعاني فيكون ما قبلها مسوقاً لها، ولا تكون هي مسوقة إليه<sup>(١)</sup>.

٤ - وتكلم عن صناعة القصيدة وطريقة بنائها، وأن الشاعر في نظمها يجب أن يكون كالنساج الحاذق، وكالنقاش الرفيق، وكتاب الجواهر الذي يؤلف بين النفيس والثمين منها، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها<sup>(٢)</sup>. ويستطرد إلى ذلك في آخر الكتاب، حيث يتحدث عن «تأليف الشعر»<sup>(٣)</sup>، كما تحدث في أول الكتاب عن «صناعة الشعر»، وهنا يحتم على الشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها، لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه<sup>(٤)</sup>. ويحتم أن تكون القصيدة كلها كأنها مفرغة إفراغاً واحداً، فلا تناقض في معانيها، ولا تفرق في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، بل تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقاً بها مفتقرًا إليها<sup>(٥)</sup>.

أوليس ذلك شبيهاً بما نعنيه الآن بوحدة القصيدة، أو الوحدة العضوية للقصيدة؟

٥ - ويتحدث ابن طباطبا في كتابه عن شعراء المولدین وأنهم أتوا فيه بعجائب استفادوها من تقدمهم، ولطفوا في تناول أصولها منهم<sup>(٦)</sup> لأن المقدمين قد سبقوهم إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح وخلابة ساحرة<sup>(٧)</sup>.

(١) ص ٥ و ٦ عيار الشعر.

(٢) ص ١٢٤ المرجع نفسه.

(٣) ص ١٢٤ المرجع نفسه.

(٤) ص ١٢٦ و ١٢٧ المرجع نفسه.

(٥) ص ٨ المرجع نفسه.

(٦) ص ٩ المرجع نفسه

(٧) ص ٩ المرجع نفسه.

وحتم عليهم ألا يظهروا شعراً إلا بعد الثقة بجودته<sup>(١)</sup>، وبأنه صار كالسيكة المفرغة التي جمع فيها صاحبها كل بلاغات القدماء والمحدثين ومعانيهم الرائعة<sup>(٢)</sup>.

## ٦ - ويقسم ابن طباطبا الشعر أقساماً:

(أ) فمنه شعر محكم متقن أنيق اللفظ حكيم المعنى عجيب التأليف<sup>(٣)</sup>، ويمثل لذلك الشعر<sup>(٤)</sup>. ويدركه في موضع آخر بأنه المعنى البارع الذي برب في أحسن معرض وأرق لفظ<sup>(٥)</sup>.

(ب) شعر - إذا انتقد - مبهرج المعنى ، مزيف اللفظ ، ليس له حلولة<sup>(٦)</sup> ، فهو مستكره الألفاظ متفاوت النظم قبيح العبارة<sup>(٧)</sup> ، سواء بتعقيد ألفاظه<sup>(٨)</sup> أم بالإغراق في المعنى<sup>(٩)</sup> ، ويمثل له بقصيدة كاملة للأعشى الشاعر الجاهلي المشهور ، تبلغ ستة وسبعين بيتاً ، ويقول أولاً إنه لا يسلم منها خمسة أبيات<sup>(١٠)</sup> ، ثم يقول بعد أن ذكرها كلها أن التكليف فيها ظاهر إلا في ستة أبيات يذكرها<sup>(١١)</sup> ، ولا أدرى سر هذا التردد إلا أن يكون خططاً من النساخ . ثم يأتي بجزء من قصيدة أخرى للأعشى مثلاً آخر لهذا اللون من الشعر<sup>(١٢)</sup> . ويدرك قصيدة أخرى عكس هذا اللون<sup>(١٣)</sup> أي أنها من القسم الأول السابق .

(١) ص ١٠ عيار الشعر.

(٢) ص ٧ المرجع نفسه.

(٣) ٤٩ - ٦٧ المرجع نفسه.

(٤) ص ٨٩ من المرجع نفسه.

(٥) ص ٧ المرجع نفسه.

(٦) ص ٤٠ المرجع نفسه.

(٧) ص ٤٠ وما بعدها - المرجع نفسه.

(٨) ص ٤٠ وما بعدها - المرجع نفسه.

(٩) ص ٤٥ المرجع نفسه.

(١٠) ص ٦٧ - ٧٤ المرجع نفسه.

(١١) ص ٧٤ المرجع نفسه

(١٢) ص ٧٤ و ٧٥ المرجع نفسه

(١٣) ص ٧٥ المرجع نفسه

- (ج) شعر حسن اللفظ واهي المعنى<sup>(١)</sup>.
- (د) شعر رث الصياغة صحيح المعنى<sup>(٢)</sup>.
- (هـ) شعر لم يراع فيه المقام، بل زادت قريحة الشاعر - أي ملكته الشعرية على عقله<sup>(٣)</sup>.

وذلك كله قريب إلى ما ذكره ابن قتيبة في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء» من أن الشعر ما حسن لفظه وجاد معناه، ومنه ما قبح لفظه ومعناه، ومنه ما قبح لفظه وحسن معناه، وما حسن لفظه وقبح معناه.

وكلام ابن طباطبا هنا في أقسام الشعر لا يجمعه موضع واحد، بل هو مفرق في جميع فصول الكتاب، ولكننا هنا وقد جمعناه من مواضعه المتفرقة نستطيع أن نعرف مدى قربه من كلام ابن قتيبة وتأثيره به.

#### - ٤ -

ومن القضايا البلاغية التي أثارها ابن طباطبا في كتابه «عيار الشعر»:

- ١ - قضية اللفظ والمعنى حيث عرض لها في إيجاز شديد، ورأى أن للمعنى ألفاظاً تشكلها فتحسن فيها وتভق في غيرها<sup>(٤)</sup>.
- كما حتم العناية باللفظ وببلاغته، وبالمعنى وروعته وجدته، ورأى أن الشعر لا يكون شعراً إلا إذا استكمل كل ذلك كما سبق.
- ٢ - وتناول ببلاغة التشبيه وروائعه وصوره وأقسامه بالتفصيل<sup>(٥)</sup>.

(١) ص ٨٣ - ٨٧ عيار الشعر.

(٢) ص ٨٧ - ٨٩ المرجع نفسه.

(٣) ص ٩١ - ٩١ المرجع نفسه - وينذكر سماذح للشعر المعيب لفظاً ومعنى (ص ٩٦). وللشعر المستكره الألطفاط التلقن القوافي الرديء النسيخ (١٠٢)، ولما كان عكسه (١٠٥) عيار في العبارة عنها سهلاً سلساً (ص ٨٩)، ومثلاً للشعر العيد الإشارات، أي المجازات والاستعارات والكتابيات البعيدة (ص ١٢٠).

(٤) ص ٨ عيار الشعر

(٥) ص ١٧ - ٣١ المرجع نفسه.

٣ - وتحدث عن حسن التخلص<sup>(١)</sup>.

٤ - وعن مطلع القصيدة أو ما يسميه البلاغيون «حسن الابتداء»<sup>(٢)</sup>.

٥ - كما أشار في كتابه إلى مراعاة المقام، أو ما نسميه مطابقة الكلام لمقتضى الحال في مواضع كثيرة، سبق أن أشرنا إلى بعضها.

٦ - كما أشار إلى الإنراط في المعنى أو الغلو أو المبالغة في مواضع كثيرة وذلك كله يجعل كتاب «عيار الشعر» من الكتب الرائدة في بحوث البلاغة العربية، وأنه كان من المصادر الأولى للبلاغيين العرب الذي اهتموا في القرن الخامس الهجري بأراء من سبقوهم في البلاغة العربية وقواعدها، وبخاصة بما كتبه ابن طباطبا في «عيار الشعر».

## - ٥ -

ومن القضايا النقدية التي أثارها ابن طباطبا في كتابه «عيار الشعر» ما

يلي:

١ - قضية السرقة الشعرية التي تحدث عنها ابن طباطبا حديثاً جيداً، حيث رأى أن الشاعر إذا تناول المعاني التي قد سبق إليها، فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب، بل وجب له فضل إحسانه، ويمثل ابن طباطبا للسرقات الشعرية بمثل كثيرة<sup>(٣)</sup>. وينصح من يأخذ معنى لغيره بأن يتلطف في الحيلة، ويدقق النظر في تناول المعنى واستعارته حتى يخفى على النقاد، ويعدد طرق هذا الإحتفاء، وأهمها أن ينقله من الغرض الذي قاله فيه الشاعر الذي سبقه إلى غرض آخر بعيد عنه<sup>(٤)</sup>.

٢ - وفي الكتاب في مختلف فصوله نقد للشعر وللشعراء يدل على ذوق مرهف، وملكة نقدية محكمة.

(١) ص ١١٩ - ١١١ عيار الشعر.

(٢) ص ١٢٤ - ١٢٢ المرجع نفسه.

(٣) ٧٦ - ٨٣ المرجع نفسه.

(٤) ص ١٤ المرجع نفسه.

٣ - ويتحدث ابن طباطبا عن «عيار الشعر» أي ميزانه الذي يوزن به، فيرى أنه الذوق قبل كل شيء فما قبله واصطفاه فهو جيد، وما عابه ونفاه فهو معيب<sup>(١)</sup>.

ويعلل لسر قبول الذوق للشعر الجيد بأن النفس تسكن إلى كل ما وافق هواها، وتقلق مما يخالفه<sup>(٢)</sup>، ويأن هذا الشعر الجيد موافق للحال والمقام<sup>(٣)</sup>.

ويرى أنه إذا اجتمع للفهم - أي للذوق - اعتدال الوزن، وصواب المعنى، وحسن الألفاظ، تم قبوله لهذا الشعر. وإن نقص جزء من أجزاءه، كان إنكار الفهم - أي الذوق - له على قدر نقصان أجزاءه<sup>(٤)</sup>.

وهذا الميزان شبيه إلى حد محدود بالميزان الذي وضعه قدامة حيث رأى أن عناصر الشعر أربعة وهي بما ترکب منها ثمانية، وحدّد قدامة عناصر الجودة في كل عنصر من عناصر الشعر: النطق والمعنى والوزن والقافية، وما ترکب منها، فرأى أن الشعر إذا كان محتوياً عليها كان شعراً جيداً، وإذا كان في عناصر الشعر ما ينافي أسباب الجودة التي ذكرها كان رديئاً.

إن الاحتكام إلى منهج في النقد صار محدداً عند ابن طباطبا، وهو عند قدامة أكثر وضوحاً ودقة وتحديداً، مع اختلاف عناصر هذا المنهج عند ناقدينا الكبيرين.

٤ - ويتحدث ابن طباطبا في كتابه عن ضرورة ملاءمة معاني الشعر لمبنائه، أي لأنفاظه<sup>(٥)</sup>.

إلى غير ذلك من قضايا النقد التي أنارها، ويبدو فيها أنه كان يحاول في أوائل القرن الرابع الهجري في أصفهان أو أصفهان وضع منهج ن כדי

(١) ص ١٤ عيار الشعر

(٢) ص ١٥ عيار الشعر.

(٣) ص ١٦ عيار الشعر

(٤) ص ١٥ عيار الشعر

(٥) ص ١٢٠ عيار الشعر.

للشعر، وفي الوقت الذي كان قدامة يحاول فيه ذلك في البصرة، وكان الناشيء الأكبر (٢٩٣ هـ) يحاول ذلك أيضاً في الفسطاط.

## - ٦ -

وبعد فإن كتاب «عيار الشعر» خطوة في طريق الاهتداء إلى منهج نceği ثابت لنقد الشعر، وهو بما يحتوي عليه من آراء السابقين في الشعر ونقده وصناعته ثروة نقدية ذات أهمية كبيرة في أوائل القرن الرابع الهجري، وإن كان السابقون لابن طباطبا قد نجحوا في السير بالنقد خطوات واسعة في طريق التعميد والتأصيل له، ووضع أصول يرتكز عليها.

فالأصممي وضع مقياساً لفحولة الشاعر وطبقه، وابن سلام وضع أساساً لطبقات الشعراء وأجاد تطبيقه، وابن المعتز وضع أساساً لنظرية البديع في النقد العربي، وقدامة وضع أساساً للمنهج الموضوعي في النقد العربي وطبق ذلك في كتابه، وابن طباطبا وضع أساساً للنقد التأثيري وطبق ذلك المنهج على الشعر والشعراء، وجاء النقاد العرب الكبار، فوضعوا نظرية عمود الشعر العربي وطبقوا هذه النظرية على شعراء كثيرين، وفي مقدمتهم أبو تمام (٢٣١ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ)، وكان من أشهر من طبقوا هذه النظرية بعد ابن طباطبا أبو الحسن الأمدي (٣٧١ هـ) صاحب كتاب «الموازنة» بين «الطائين». ولا ننسى جهود الجاحظ من قبل في وضع أساس نظرية النظم وتطبيقاتها في النقد العربي، حتى جاء عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) فتوسّع في دراسة هذه النظرية وفي تطبيقاتها، وصارت نظرية نقدية وبلاغية كبيرة، كانت الركيزة الأولى في وضع قواعد البلاغة العربية.

هؤلاء علماؤنا، وهذا تراثنا العظيم، في النقد الذي تحول منذ القرن الثاني الهجري إلى نظريات ومذاهب أثرى بها الفكر العربي في قديمنا الحالد من حيث وقف هذا الفكر بعدهم يتلمس الطريق إلى التجديد، حتى أتاح له الاتصال بالغرب أن يأخذ عنه ويتعلّم عليه في مذاهب النقد، وشتان بين شخصيتنا القديمة الواضحة المستقلة في النقد وبين تبعيتنا الحاضرة

المقلدة التي لا تهتمي إلى حقيقة جديدة في النقد، بل تأخذ عن الغرب وتنقل عنه وتقلده في مذاهبه وأصوله ومدارسه.

ولاني لأرجو أن يكون لنا مناهج مستقلة في النقد، وأن تكون لنا شخصيتنا الواضحة فيه، وما ذلك علينا وعلى الله ببعيد.

## نقد الشعر

لقدامة بن جعفر

- ١ -

قِدَامَةُ بْنُ جَعْفَرَ (٢٧٦ - ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ - ٨٨٩ م) من أشهر النقاد العرب، الذين أثروا حركة النقد الأدبي في اللغة العربية، ودفعوا بها إلى الأمام دفعات قوية، ووجهوا النقد والنقد وجهة جديدة استمر صداتها على طول العصور. وكتابه «نقد الشعر» صار أصلًا لجميع الدراسات النقدية العربية، لأنه استحدث مذهبًا جديداً فيها صار قدامة صاحبه، وله فضل الكشف عنه.

وكان لأراء قدامة في نقد الشعر صدى كبير عند النقاد القدماء، بل لقد أحدثت ضجة كبيرة في وسطهم، فالأمدي (٣٧١ هـ) ألف كتاباً في تبيين غلط قدامة في كتابه «نقد الشعر»<sup>(١)</sup>. وألف عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ) كتاباً في شرح نقد الشعر لقدامة<sup>(٢)</sup>، وكتاباً بعنوان «كشف الظلامة عن قدامة»<sup>(٣)</sup>.

(١) راجع ١٢٥ الموازنة للأمدي «طبعة صبيح»، ومعجم الأدباء في ترجمة الأمدي.

(٢) ٧/ موات الوفيات لابن شاكر. ولعبد اللطيف البغدادي كتاب قوانين البلاغة، واحتصر كتاب الصناعتين لل العسكري ٧/ ٨ وفات - ويروي صاحب «كشف الظنون» أن للبغدادي كتاباً اسمه «تكلمة الصلة في شرح نقد الشعر لقدامة» ١٠٤٠٠ ٢٤٦ كشف الظنون، وكتاباً آخر اسمه «كشف الظلامة عن قدامة» ٢٤٠٠ كشف الظنون. ولعل الكتاب الأول هو الاسم الكامل لشرح البغدادي لقدر الشعر. وينسب لابن رشيق القيررواني كتاب بعنوان «تزيف نقد قدامة» ٨٨٠ تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري - ٦٥٤ هـ. ويرجح أنه ليس لابن رشيق صاحب «العملة».

(٣) ٤٠٠ كشف الظنون لحاجي خليفة.

وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء وال فلاسفة الفضلاء كما يقول مؤرخوه<sup>(١)</sup>. ونسب إليه كتاب «نقد الشر» الذي حققه الدكتوران طه حسين وعبد الحميد العبادي . وقد وجدت نسخة خطية كاملة من الكتاب نفسه في مكتبة تشستر بيتي برقم ٧٦٧ تحت عنوان «كتاب البرهان في وجوه البيان»، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، فصحت نسبة الكتاب لابن وهب المعاصر لقدامة بعد ما ثار جدل كبير حول صحة نسبة كتاب «نقد الشر» إلى قدامة ، وكان الذي ظهر من الكتاب ، اعتماداً على نسخة الأسكنوريال<sup>(٢)</sup> باسم «نقد الشر» وبتحقيق الدكتورين طه حسين والعبادي هو نحو ثلث الكتاب . وقد نشر الكتاب كاملاً أخيراً الدكتور أحمد مطلوب في بغداد.

ولقدامة كتب كثيرة من مثل: سر البلاغة في الكتابة ، وصنعة الكتابة ، وكتاب الأنفاظ ، وكتاب الخراج ، وغيرها ، وله كتاب آخر أشار إليه لياقتون في «معجم الأدباء» وهو «الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام»<sup>(٣)</sup>.

## - ٢ -

وقدامة في مقدمة كتابه «نقد الشعر»<sup>(٤)</sup> يرى أن كتابه أول كتاب يؤلف في النقد ، فيقول في مقدمته : «ولما وجدت الأمر على ذلك ، وتبينت أن الكلام في هذا الأمر - أي النقد - أخص بالشعر من سائر الأسباب الآخر ، وأن

(١) ٦/٢٠٣ - ٢٠٥ معجم الأدباء لياقتون ، ١٨٨ الفهرست لابن التديم ، ٣٤/٢ كشف الظنون ، تاريخ بغداد في ترجمة قدامة - قدامة بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طبانة ، الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية - في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف.

(٢) تحت رقم ٢٤٣ .

(٣) ٦/٢٠٤ معجم الأدباء لياقتون «مرجليوث» .

(٤) طبع طبعات عديدة . فقد نشره س. أ. بونياكير بمطبعة برييل في ليدن عام ١٩٥٦ ، ومن قبل طبع في الجوانب عام ١٣٠٢ هـ ، وطبع في القاهرة طعنة أخرى عام ١٩٣٤ بشرح لمحمد عيسى منون وشرح آخر لكمال مصطفى وظهر عن مكتبة الخانجي .

الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه رأيت أن أتكلم في ذلك بما يبلغه  
الواسع»<sup>(١)</sup>.

وقدامة يغفل جهود العلماء السابقين في تأصيل قواعد للنقد من مثل:  
الأصمي في كتابه «فحولة الشعراء»، وابن سلام في كتابه «طبقات  
الشعراء»<sup>(٢)</sup>، والجاحظ فيما كتبه عن النقد في كتابه «البيان والتبيين»،  
«والحيوان» وغيرها، وابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء»، والمرد في كتابه  
«قواعد الشعر»، وشلبي في كتابه له بعنوان «قواعد الشعر» أيضاً، وقد حققته  
وظهر مطبوعاً عام ١٩٤٨، وابن المعتز في كتابه «البديع» وسوى هؤلاء  
الأعلام الخالدين فيتراثنا العربي والنقطي.

وقد فصل قدامة في كتاب «نقد الشعر» مذهبه في النقد: فقسم الشعر  
إلى عناصره الأولى المفردة من اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وإلى عناصر  
أربعة أخرى مركبة من هذه العناصر. ويدرك أن الشعر قد يكون جيداً أو رديئاً  
أو بين الأمرين، وأنه صنعة لكل الصناعات يقصد إلى طرفيها الأعلى<sup>(٣)</sup>  
ويقول: إنه يذكر صفات الشعر التي تبلغ به غاية الجودة، فإن وجد بقصد  
هذه الحال كان شعرًا في غاية الرداءة، وإن فهو بين بين، أي بين طرفي  
الجودة والرداءة بحسب مدى قربه من أي الطرفين أو توسيطه بينهما.

فعناصر الشعر عنده هي : **اللفظ - المعنى - الوزن - القافية** ويتالف من  
هذه العناصر أربعة عناصر أخرى هي :

- ١ - ائتلاف اللفظ مع المعنى .
- ٢ - ائتلاف اللفظ مع الوزن .
- ٣ - ائتلاف المعنى مع الوزن .
- ٤ - ائتلاف المعنى مع القافية .

(١) ص ١٢ نقد الشعر طعة القاهرة ١٩٣٤ .

(٢) يرى الكثير من الساحتين أن طبقات الشعراء، أول مؤلف عربي في النقد «راجع: النقد  
المنهجي لمendorf، ٧٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطه إبراهيم، ١٠٨/٢ تاریخ آداب  
اللغة العربية لحورجي ریدان».

(٣) ١٣ نقد الشعر لقدامة طعة ١٩٣٤ بالقاهرة

وصفات اللفظ الجيد عنده هي سماحة اللفظ - سهولة مخارج الحروف - الخلو من البشاعة - الفصاحة .

وصفات الوزن الجيد هي : سهولة العروض - الترجيع .

وصفات القوافي الجيدة هي : عذوبة حرف القافية - سهولة مخرجها - التصريح في المطلع .

وصفات المعنى الجيد هي : الوفاء بالغرض المقصود . أما الغلو في المعنى فيؤثره قدامة على الاقتصار على الحد الوسط ، ويقول : إنه عنده أجود المذهبين ، وإنه هو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً وحديثاً ، حتى قال بعضهم : «أعذب الشعر أكذبه» وإنه مذهب فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم ، ويقصد بهم أرسطو صاحب أول مدرسة نقدية في التراث الناطق الأوروبي . ويؤكد قدامة أن الغلو يعد من باب الخروج عن الموجود والدخول في باب المدعوم فالمراد به المثل وبلغ النهاية في النعت . ولما كانت المعاني عند قدامة لا نهاية لها فقد عدد نعوت الشعر في أغراض الشعراء من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف إلخ .

فتحت المدح الجيد عنده هو الصدق ، ويقسم الفضائل الإنسانية إلى التقسيم الفلسفى المشهور ، العفة والشجاعة والعدل والعقل ، ويقول : إن المدح الجيد يكون بهذه الصفات أو بعضها ، وإن كان ذلك يعد قصوراً ، وقد يصف الشاعر الممدوحين ببلوغ الغاية في هذه الصفات من باب الغلو والمبالغة .

والهجاء ضد المدح في رأيه ، وصفاته مصادرة لصفات المدح . ويقرر أنه ليس بين المدحه والمرثية فرق إلا في اللفظ دون المعنى ، فإذا صابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجري الأمر فيه على سبيل المديح - ولعل عبد الصمد بن المعتزل (٢٣٠ هـ) هو أول من قال بهذا الرأي حيث روى عنه ابن رشيق في «العمدة» - ج ١ ، ص ١٠٣ - أنه قال : «الشعر كله في ثلاثة لفظات : إذا مدحت قلت : أنت ، وإذا هجوت - قلت : لست ، وإذا رثيت - قلت : كنت» - ولا نوافقة على ذلك كله .

ثم يذكر قدامة نعوت الوصف الجيد، ويتحدث من أجل ذلك عن التشبيه، والغزل. ويقول: إن هذه هي نعوت أغراض الشعر التي نحتها الشعراء من المعاني، وهذه الأغراض بالنسبة للمعاني جزء من كل. فاما ما يعم جميع المعاني من نعوت الشعر فهي: صحة التقسيم - صحة المقابلة - صحة التفسير - التتميم - المبالغة - التكافؤ - الالتفات - الاستغراب أو الطرافة.

ويستقصي قدامة نعوت ائتلاف اللفظ مع المعنى، من: مساواة - إرداد - «كتابة» - إشارة - تمثيل - مطابق ومجانس.

ويذكر نعوت ائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، ومع القافية من التوشيح والإيغال.

ويذكر عيوب الشعر في اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية، وعيوب ائتلاف اللفظ مع المعنى، ومع الوزن، وعيوب ائتلاف المعنى مع الوزن، ومع القافية، وهي كلها بعكس ما ذكره في صفات الجودة.

### - ٣ -

يكون هذا المنهج العقلي الممحض في النقد مذهب قدامة النقيدي، الذي صار حديث النقاد في عصره وبعد عصره إلى اليوم.

فقدامة يحكم عقله المنطقي في النقد إلى أبعد حد، فالمديح الجيد عنده بذكر الفضائل الإنسانية، فإذا كان المدح بشرف الآباء كان معيلاً، لأنه ليس مدحًا بالفضائل. والهجاء بنفي الحسب والنسب معيب، ويقرر أنه ضد المدح. والمرثية في رأيه هي المدح مع جعل الأسلوب ماضياً. وهذا خطأ في إغفال العاطفة والتجربة الشعرية، وإغفال جوهر الموضوع الشعري نفسه. وحين يرى قدامة أن المبالغة أجود، يعود فيقيدها بمنهج العرب ومؤلفهم<sup>(١)</sup>، ثم يقيدها بآلا تخرج إلى حد الممتنع الذي لا يكون<sup>(٢)</sup>. وقدامة مع تفضيله

(١) ص ٣٧ نقد الشعر، السطر ١٠ - ١٢.

(٢) ص ١٢٥ المرمع نفسه، السطر ١٢ - ١٥.

للمبالغة يرى أن الشاعر كثير عزة في قوله لعبد الملك بن مروان:

على أبي العاصي دلاص<sup>(١)</sup> حصينة

أبلغ وأجود من الأعشى الشاعر الجاهلي في قوله:

كنت المقدم غير لابس جنة

أي كنت المقدم في الحرب دون أن تكون لابساً دروعاً وحديداً تتفق بها الطعان والضرب. وقدامة ينسى أن العرب قد تصف الرجل بالشجاعة، وقد تصفه بالخدر والاحتراس من المخاطر بلبس الدروع، وذلك أسلوبان من أساليب العرب في المدح<sup>(٢)</sup>.

ويجعل قدامة طرافة المعنى واحتراعه ليست نعتاً للشعر بل للشاعر<sup>(٣)</sup>. وذلك غريب في الفهم، وقد يستجيد أبياتاً ويعيب أخرى دون سبب معروف، ومخالفًا لأذواق النقاد. بل يجعل بيت ابن هرمة الشاعر المشهور في المدح بالكرم:

تراه إذا ما أبصر الضيف كلبه يكلمه من حبه وهو أعمى  
تناقضًا معيناً إذ كيف يكلم الكلب الضيف مع قوله: «وهو أعمى».

ويعيّب كذلك قول الشاعر في المدح:  
كالغيث في كل ساعة يكف<sup>(٤)</sup>

لأنه - كما يقول - ليس في المعهود أن يهطل المطر كلّ ساعة. ويعيب بيت زهير بدعوى التناقض:

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلّي وغيرها الأرواح والديم  
الأرواح: الرياح، والديم: السحب، جمع ديمة وهو السحابة  
الممطرة.

---

(١) أي دروع ساعة.

(٢) راجع ٣٣١ - ٣٢٨ الوساطة للقصاصي الجرجاني - طعة صبيح.

(٣) ٨٩ و ٨٨ نقد الشعر

(٤) أي يهطل ويمطر دائمًا.

لقد تأثر قدامة في كتابه بالثقافات العقلية التي كانت سائدة في البصرة في عصره، والتي تتلمذ عليها، وأخذ منها. وفي القرن الثالث، الذي عاش قدامة في آخره، وفي البصرة بالذات، التقت الثقافات العربية الإسلامية والمترجمة الدخيلة التقاء فكريًا على نحو رائع، ونشأت طبقة من المثقفين الذين تثقفوا على هذا الفكر الإنساني، وكان في مقدمتهم المعتزلة، الذين رجعوا إلى المتنطق اليوناني، وقرأوا فلسفة أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان، وترجموا آراء الأمم الأخرى في البيان ومناهجه، وترجموا - فيما ترجموه - كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية، فالخطابة ترجمة إسحاق بن حنين (٢٩٨ هـ)، وكتاب الشعر اختصره الكندي (٣٥٣ هـ).

وأخذت هذه الطبقة تؤلف في صناعة الشعر، وللكندي أول الفلاسفة العرب رسالة في صناعة الشعر<sup>(١)</sup>، ولأبي زيد البلخي كذلك كتاب بهذا العنوان أيضًا<sup>(٢)</sup>، وكذلك لأبي هفان المهزمي رواية شعر أبي نواس<sup>(٣)</sup>. وكان متكلمو المعتزلة بتضلعهم من الفلسفة اليونانية أصحاب آراء كثيرة في النقد والبيان.

ومن البدهي أن يقرأ قدامة كل هذه الثقافات وأن يستفيد منها ويتأثر بها، وقد استفاد قدامة من كتابي أرسطو: الخطابة، والشعر، وإن كان الدكتور طه حسين يرى أنه كان يجهل كتاب الشعر<sup>(٤)</sup>، على أن تشريع الفلسفة للأدب يظهر في رأي الدكتور طه لأول مرة في كتاب «نقد الشعر».

ونظرية الفضائل وقيامتها على أربع صفات، وحديثه عن المقاربة في الاستعادة، عن الاستعارة اللغوية، هي صورة مأخوذة من فلسفة أفلاطون وأراء أرسطو.

(١) ٣٥٩ المهرست لاس الديم.

(٢) ١٩٨ المرجع نفسه.

(٣) ٢٠٧ المرجع نفسه

(٤) ص ٧ مقدمة نقد الشر

وقدامة بذلك يبادر في منهجه منهج النقاد العرب الأصلياء، من مثل الأصمسي وابن الأعرابي وابن سلام والحافظ وابن المعتز وابن قتيبة وغيرهم وإن كان نهج قدامة العقلي يعد أكبر وأجرأ خطوة نحو تدوين البلاغة العربية وأصول النقد والبيان.

وحسينا أن ثلاثة من كبار النقاد العرب قد أولاً منهج قدامة في نقد الشعر عنابة جلى، وتأثروا به تأثراً عميقاً، وهم:

- ١ - أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) في كتابه «الصناعتين».
- ٢ - ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) في كتابه «سر الفصاححة».
- ٣ - ابن رشيق القير沃اني (٤٦٠ هـ) في كتابه «العمدة».

كما تأثر علماء البلاغة والبديع تأثراً شديداً بقدامة وآرائه في «نقد الشعر».

ومن البدهي أن يستفيد قدامة من ابن المعتز (٢٩٦ هـ) وكتابه «البديع» فائدة كبيرة، فكثير من أسباب الجودة عند قدامة هي مما ذكره ابن المعتز في البديع على أنها من صنعة الشعر ومحسناته الفنية.

وبلاعنة التجنيس عند قدامة، ونظريّة قرب الشبه في الاستعارة، والاستعارة من الضد، وابتلاء الشعر على التخييل أي المحاكاة، هي كلها مما قرره قدامة وأفاد منه عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) وغيره من النقاد والبلاغيين العرب من بعده.

## - ٥ -

هذا هو منهج قدامة في النقد، ولكن إلى أي مدى يمكن أن نقول. إن هذا المنهج تأثري أو موضوعي، وإلى أي الجانبين كان ينحاز قدامة؟

لقد كان منهج قدامة النقدي يتفق و موضوعية النقد، فهو يعتمد على مناهج موضوعية يحكم النقاد على أساسها. والنقد الموضوعي مر بأطوار كثيرة خلال عصور التاريخ الأدبي العالمي:

- فمن نقد أرسطو الذي بناء على أصول فصلها في كتابيه «الشعر، والخطابة».

- إلى نقد قدامة المبني على قواعد ونظرية محددة.

- إلى نقد المدارس الحديثة التي ربطت النقد بعلوم النفس والجمال والاجتماع.

ويرفض الكثير من النقاد موضوعية النقد، حيث ثاروا على قواعد أرسطو، كما ثار النقاد العرب على قواعد قدامة، وثار المحدثون على آراء المدارس الحديثة التي تؤمن بموضوعية النقد، ومن بينهم طه حسين ومندور والزيات.

وقف جمهور من النقاد موقفاً وسطاً فدعوا إلى التخفيف من إخضاع النقد للعلوم الحديثة، ومنهم الدكتور التويهي وغيره.

وفي نقد نظرية إخضاع النقد للعلوم الحديثة يقول مندور: إن معنى هذه النظرية الانصراف عن الأدب وتلوجه وفهمه إلى نظريات عامة لافائدة منها لأحد، ورأى وجوب قصر المستغلين بالنقد جهدهم على دراسة النص الأدبي، ويصرح لانسون عميد النقاد في فرنسا بأن التجربة قد حكمت بفشل تلك المحاولات.

وقد جهد مندور في تقرير أن النقد ذاتي تأثري ويجب أن يظل كذلك تأثرياً يخضع للذوق وحده «١١٦ - ١٢٩ في الميزان الجديد لمندور».

ويعد ابن سلام والأمدي والقاضي الجرجاني بالذوق، وكان عبد القاهر الجرجاني شيخ النقاد العرب يرى أن النقد الأدبي يجب أن يكون فناً طليقاً لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبي السليم، وقد سبق عبد القاهر بمذهبه في النقد مدرسة الرومانتيكيين في فرنسا، التي حاربت نظرية الكلاسيكيين إلى النقد كعلم له أصوله وقواعده ومناهجه، ورجعت إلى الشعور والعاطفة، وإلى هذا نادى سانت بياف في قوله: «ليس هناك قواعد تخلق الكاتب الكلاسيكي»، وقوله: «النقد لا يمكن أن يصبح علمًا موضوعياً، وسيبقى دائمًا ريقاً في يد من يحاولون استخدامه». ويقول جول ليستر: «إننا نحكم

بالجودة على ما نحب، أي أنتا نرى حسناً ما نحب». وقد فطن الجاحظ والبحتري والصاحب بن عباد إلى أن النقد شيء مستقل عن كل علم آخر، وأن قوامه الذوق<sup>(١)</sup>.

- ٦ -

وبعد، فلقد أحدث قدامة بمنهجه النقدي - الذي صورناه لك - في كتابه «نقد الشعر»، ثورة فكرية عميقه، ظهر صدامها في تراثنا النقدي والبلاغي والبيانى ، وفيما ألف من كتب بعده في البديع.

وصار قدامة حديث العلماء والنقاد في عصره وبعد عصره، ولا يزال صداته وفكرة النقد قويةً وسائلًاً مستمرةً في تراثنا حتى اليوم.

ومن الجدير بالذكر أن معاصرة الناقد «الناشئ الأكبر»<sup>(٢)</sup> (٢٩٣ هـ) ينسب إليه كثير من الدارسين أولية النقد، وينسب آخرون هذه الأولية إلى قدامة، ومن حيث يشيد بعض القدماء بالناشئ ، يشيد آخرون بقدامة ، ومن بينهم «التوحيدى» في بعض كتبه وذكر له كتاباً بعنوان «نقد الشعر» وهو مفقود<sup>(٣)</sup>. ويقول التوحيدى عن الناشئ : ما أصبت أحداً تكلم في نقد الشعر وترهيفه أحسن مما أتى به الناشئ المتكلم ، وأن كلامه ليزيد على كلام قدامة وغيره<sup>(٤)</sup>. ولا مجال هنا للمقارنة بين الناشئ وقدامة لأن تراث الناشئ النقدي مفقود.

ويحاول بعض الباحثين أن يأخذ مما ذكره ابن رشيق في كتابه «العمدة» من بعض الآراء المفرقة ما يضيء سيل البحث عن منهج نقدي للناشئ<sup>(٥)</sup>.

(١) ص ٢٠ النقد العربي الحديث ومداربه.

(٢) راجع: ٤١٧ - ٤١٨ طبقات الشعراء لابن المعتر، ٢١٧ الفهرست لابن التديم، ١٠/١٧ تاريخ بغداد، ٢/٢٧٧ وعيات الأعيان، ٨٥ مراتب التحويين، ٢/١٢٨ إنباه الرواة، ١/١٤٠ حسن المحاضرة، تاريخ النقد الأدبي عند العرب لإحسان عباس.

(٣) ٢/٢٧٣ و ٦١٩/٢ المصائر والذخائر للتوحيدى، ١٤٧ أصول النقد

(٤) ٢/١١٧ المصائر والذخائر.

(٥) د يوسف حسين بكار - مجلة الأدب اللبناني عدد يونيو ١٩٧٤.

ولكن الضوء الخافت الذي يمكن أن يكشف عن بعض الآثار القليلة لنقد الناشر ، لا يوصل إلى شيء .

وعلى الجملة فلا يزال قدامة وكتابه «نقد الشعر» ومنهج هذا الكتاب النقدي ، هو صاحب المقام الكبير في تراث العربية النقدي حتى الآن ..

## الرسالة الثانية

لأبي دلف

- ١ -

ويحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام.

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين في القرن الرابع الهجري، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات، وما كتبه عن مشاهداته وأوصافه للبلاد التي رحل إليها وطاف بها.. وقد حفظ لنا ابن النديم في كتابه «الفهرست» وياقوت في «عجائب المخلوقات»، و«آثار البلاد» مقتطفات كبيرة من وصف أبي دلف للبلاد التي جابها، والأسفار التي قام بها رحالتنا العالمي المسلم أبو دلف في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، في أنحاء كثيرة من العالم، المعروف آنذاك. الهند والصين وآسيا الوسطى، وهي الأسفار والرحلات التي طار ذكرها، وشهر أمرها بين الناس في عصر أبي دلف وبعد عصره حتى اليوم، والتي نال أبو دلف بها في حياته مجدًا كبيرًا، قاده إلى قصور الملوك والوزراء والأمراء، ونال بها بعد وفاته مجدًا تليدًا خالساً فيما كتبه عنه أعلام المستشرقون من كتابات، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات، وما سجل عنه في دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية.

يصفه ابن النديم<sup>(١)</sup> بالجوالة، ويذكر القزويني أنه كان جوالة مشهوراً جاب البلاد وشاهد عجائبها<sup>(٢)</sup>، وأنه كان سياحاً زار البلاد، وأخبر بعجائبها<sup>(٣)</sup>.

ويذكر كذلك القزويني بلاد بهى وعجائبها وهي من بلاد الترك، ثم يقول: أخبر بهذه كلها، أعني بلاد الترك وقبائلها، مسرع، فإنه كان سياحة رآها كلها<sup>(٤)</sup>.

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد له الباحثون من المستشرين بالدقة والصدق والواقع، وإن كان ياقوت الحموي يقول عنه: إنه كان يحكى عنه الكذب<sup>(٥)</sup>، ويعني بذلك أن رحلاته كان بعضها من نسج الخيال، وقد تكفل لنا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكي وسواء من المستشرين.

ولقد كان أبو دلف أحد الباحثين المعدودين الذين مكتتهم وحدة الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري من القيام برحلات خطيرة، على جانب كبير من الأهمية.

فمع أن العالم الإسلامي في عصر أبي دلف، وهو القرن الرابع الهجري، كان مقسماً إلى دول كثيرة، استقلت عن خلافة بغداد، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين، إلا أنه كان موحد العقيدة واللغة والثقافة والحضارة، خاصعاً للتأثير الإسلامي وحده، ومن ثم كان في إمكان أبي دلف أن يجوب البلاد، وأن يسير في الممالك الإسلامية، للبحث والكشف والتقصي، لا يحده حد، ولا يغله قيد، ولا يحول بينه وبين نهمه العلمي حائل.

---

(١) ٣٤٦/١ الفهرست.

(٢) ٢٦٧/٢ آثار البلاد.

(٣) ٩٧ عجائب المخلوقات.

(٤) ٥٨٩ المرجع السابق.

(٥) ٣٢٦/٥ معجم البلدان لياقوت.

وقد ألف أبو دلف «الرسالة الأولى» وتحتوي على رحلته عبر الصين والهند التي قام بها عام (١٩٤٢ هـ = ١٩٣١ م)، وقد قام المستشرق الألماني رور صوير عام ١٩٣٩ بتحقيقها، ويبدو أن أبو دلف جمع مادتها من الذاكرة بعد قيامه برحلته هذه بمدة تطول أو تقصير، وتتضمن الرسالة إلى جانب صدقها الكثير من المعلومات التقريبية والخيالية عن هذه البلاد الواسعة، التي ساح فيها.

وفي مقدمة هذه الرسالة يقول أبو دلف:<sup>(١)</sup>  
«إنني لما رأيتكم يا سيدي، أطالت الله بقاءكم، لهجين بالتصنيف، مولعين بالتأليف، أحببتم أن لا أخلي دستوركم، وقانوني حكمتكم، من فائدة وقعت إلى مشاهدتها، وأعجوبة رمت بي الأيام إليها. ليروق معنى ما تتعلمه السمع، ويصبو إلى استيفاء قراءته القلب، فرأيت معاونتكم، لما وشج بيننا من الإخاء، وتوكل من المودة والصفاء».

والظاهر - كما أرجح - أنه يخاطب أحد الملوك السامانيين أو الصاحب ابن عباد، وأنه حين كتب هذه الرسالة أهدى منها نسخة إلى هذا، وأخرى إلى ذاك، وهذا يدل على أنه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة.

وقد كتب كثير من المستشرقين روایات طويلة عن هذه الرسالة:

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها إلى الألمانية، وشاركه في ذلك المستشرق فرلين في «مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية» التي نشرها عن الشرق الأقصى.

وألقى المستشرق الروسي غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثاً عنها في المؤتمر الدولي الثالث عشر للمستشرقين المنعقد في بطرسبرغ.

ودرسها روزن، وماركفارت عام ١٩٠٣، ووضح خط رحلة أبي دلف إلى الصين.

---

(١) ٤٠٨/٥ و٤٠٩ مجمع البلدان

وكذلك فعل بارتولد، ومينورسكي عام ١٩٦٧ الذي قال عنها: إن في الرحلة سلسلة من الواقع بعضها حقيقي، وبعضها من نسج الخيال، وفي صرف أبي دلف لرحلاته - كما يقول مينورسكي - خلط وتعقيد شديدان، وإن كان يعده خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك عن الصين والهند. ويشكك أخيراً هذا المستشرق في حدوث رحلات أبي دلف.

ويرد عليه كراتشوفسكي في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي»<sup>(١)</sup> مؤكداً أن رحلة أبي دلف إلى الصين واقعة حقيقة لا شك فيها، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم في كتابه «الفهرست» عن أبي دلف<sup>(٢)</sup>، بل إن الرجل لم يترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيران عام ١٩١٣.

ويؤكد رور صوير عام ١٩٣٩ أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال، إذ إن بعض التفاصيل المتعلقة بها وجدت دلائل على صحتها في سفارات متأخرة، مثل سفارة شاهرخ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات أبي دلف في محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية، وفي وصفه لمشاهده عامة.

وفي هذه الرحلة يذكر أبو دلف الأواني الصينية وأنها كانت مفضلة في الأسواق، وأن الخزف الصيني كان يقلد في بعض البلدان، ولا سيما في مليبار وإيران.

- ٢ -

وفيما بين عام ٣٣١ - ٣٤١ هـ = ٩٤٢ - ٩٥٢ م، زار أبو دلف بشجع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما أشار إلى ذلك الشاعري في «اليتيمة» أماكن مختلفة في إيران وآسيا الوسطى في حماية الوالي علي سيسستان من قبل أبي محمد بن أحمد عام ٣٣١ - ٣٥٢ هـ = ٩٤٢ - ٩٦٣ م وألف أبو دلف في وصف هذه الرحلة ومشاهده فيها عبر أرمينيا وأذربيجان وإيران رسالة سماها «الرسالة الثانية»، ويقول في مقدمتها على طريقته نفسها في مقدمة الرسالة الأولى:

(١) ص ١٨٩ من الكتاب.

(٢) ٣٤٦ و٣٤٧ المهرست، ٢٥٠ و٣٥١ المهرست أيضاً

«جردت لكمما، يا من أنا عبدكماء، أدام الله لكمما العز والتأييد، والقدرة والتمكين، جملة من سفري من بخارى إلى الصين، ورجوعي منها على الهند، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلادها، وسلكته من قبائلها، ورأيت الآن تجريد رسالة ثانية، تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عايتها، ليتفعل به المعتبرون، ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة، ويثق به رأي من عجز عن سياحة الأرض»<sup>(١)</sup>.

واللذان يوجه هنا أبو دلف إليهما هذه الرسالة هما اللذان وجه إليهما الرسالة الأولى، كما يبدو من هذه المقدمة الموجزة الصغيرة.

ولهذه الرسالة الثانية في وصف رحلته في أواسط آسيا أهمية كبيرة، كما سنذكر بعد.

وتبدأ وقائع هذه الرحلة التي تسجلها الرسالة الثانية من مدينة «الشيز» في جنوبى أذربيجان، وتمتد لتشمل أماكن كثيرة في خراسان وإيران والقوقاز وأرمينيا، ومن هنا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام، والتاريخ الجغرافي والجيولوجى والأثري لهذه البلاد، وهي إلى جانب ذلك تحتوى على كثير من الأشياء الطريفة، والمشاهدات العجيبة، والنواذر الغريبة، وبعضها مما يحير العقول<sup>(٢)</sup>.

وتتميز هذه الرسالة بتركيز شديد، ودقة متناهية، وموضوعية غريبة، كما تتميز بماتتها العلمية القيمة التي تضعها في عداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافي لآسيا الوسطى. وتحتوي على معلومات جليلة متعلقة بالمصادر النفطية في باكو، وبالمعادن المفيدة في أرمينيا، وأبو دلف أحد الرحالة الأوائل الذين تحدثوا عن استخراج النفط في باكو، وما أروع ما كتبه عن معادن وطواحين تفليس<sup>(٣)</sup>، ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافي

(١) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة شر عالم الكتاب - مطبعة مخبر وقد وردت كلمة ثانية، في الرسالة (ص ٢٩) محرفة إلى كلمة «شافية»، وهو خطأ.

(٢) ص ٣ مقدمة الرسالة الثانية

(٣) ص ٢٢ مقدمة الرسالة الثانية.

جيوليوجي ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعًا يوجد فيها المعادن ، وأماكن أخرى فيها آثار للفرس أو للسامانيين .

ولقد حقق مينورسكي هذه الرسالة ، وطبع بمصر عام ١٩٥٠ م في ٣١ صفحة النص العربي - ١٣٦ صفة الترجمة الإنكليزية والدراسة .

ثم طبعت في موسكو بتحقيق خالدوف ويلغاركوف عام ١٩٦٦ م .

وطبع تحقيقهما في القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦ م .

وفي عام ١٩٢٤ عشر في مدينة مشهد الإيرانية على مخطوطة تشمل على أربع رسائل :

١ - رسالة أبي دلف .

٢ - رسالة ابن فضلان .

٣ - رسالة في أخبار البلدان لابن الفقيه .

٤ - رسالة أخرى .

وأصبح لهذه المخطوطة أهمية كبيرة في تراث أبي دلف ، وفي تاريخ البحث العلمي الجغرافي القديم .

ورسالة أبي دلف في مخطوطة مشهد تشمل على رسالتيه الأولى والثانية وقد ذكرتا على أنهما كتاب واحد .

ويبدو أن هذا الكتاب كان قد يسمى عجائب البلدان كما نقلنا عن القزويني وياقوت ، وذكرهما بهذا الاسم كذلك بروكلمان .

وأبو دلف في رحلاته يعني عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والأثار ، وطالما يقف أمام الأشياء موقف العالم المدقق الحكيم المجرب الذي يحاول فهم الأشياء والوصول إلى دخائلها .

ومن أهمية البحث الجغرافي الذي قام به أبو دلف أنه عرض لمدينة الشيز ، وهي بين المراغة وزنجان وشهرزور وتوجد الآن في وادي ساركوتز في الاتحاد السوفيياتي . . ومن وصف أبي دلف لهذه المدينة : أمكن للعلماء الروس تحديدها واستخراج آثار تحت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية ومن

مثل تحقیقاته العلمیة ما ذکرہ فی صعوده إلی قمة جبل دبناوند فی فارس  
ودخوله کھفًا فی هذا الجبل ورصده لظاہرة وجود نار مشتعلة فیه<sup>(۱)</sup>.

ويذکر أبو دلف أنه سار فی مغارة خوارزم، ورأى بها آثاراً كثیرة لجماعات  
من ملوك العرب والعجم، ويتحدث عن انحساف بعض قراها تحت الأرض  
بنحو مائة قامة.

ويشكك بعض الباحثين فی وصول أبي دلف إلى خوارزم بدعوى أن  
معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك.

وبعد فقد كان أبو دلف ابن ينبع، من أعظم الرحاليين الجغرافيين  
ال المسلمين، الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري. وقد نالت رسالته أعظم  
اهتمام في عالم الاستشراق، وأولاً المستشرقون كثيراً من العناية والدراسة والبحث.

وعمل أبي دلف في ميدان الرحلة متعدد: فهو يظهر لنا في صورة  
الرحلة الوصاف للجغرافية الإقليمية القديمة.

كما يظهر في صورة الجغرافي المتمكن، والأثرى المنقب،  
والجيولوجي الدقيق العالم بطبقات الأرض وصخورها مما يرفع من منزلته بين  
العلماء.

ويظهر لنا كذلك في صورة الطيب الذي يعلم أماكن المصحات  
الطبيعية التي تلائم طبيعة المرضى والتي تساعدهم على الشفاء.

ويصدق عليه ما قاله المسعودي عن نفسه: «قطعنا بلاد السندي والزنجر،  
فتارة بأقصى خراسان، وتارة بأواسط أرمانيا وأذريجان»<sup>(۲)</sup>.

### - ۳ -

وأبو دلف شاعر عربي كبير، مجهول شأنه، مغمور تاريخه، لم يذکر  
إلا القلة من المؤلفين القدماء، ونسيء المحدثون نسياناً تاماً.

وهو من الجزيرة العربية، من ينبع، عاش القرن الرابع الهجري كله أو

(۱) الرسالة الثانية ص ۸۷.

(۲) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودي (ت ۳۴۶ هـ).

(٢٢) جله، يجوب البلاد، ويمدح الملوك، وينادم الأمراء والوزراء، تراه مطوفاً في كل مكان من بخارى إلى الصين والهند، ومن فارس إلى أرمينيا وأذربيجان وطبرستان. وببلاد الأكراد، ويصف كل ما شاهده، ويدون كل ما يلاحظه، في دقة تامة، وعناية بالتفاصيل، مما أذهل المستشرقين، فكتبوا عنه جغرافياً من الطراز الأول، ومن أشهر الرحالة في القرن الرابع.

وأبو دلف من هذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين الذين أتوا بعده، ومن بينهم: ياقوت «معجم البلدان»، والقزويني في كتابه: «عجب المخلوقات» و«آثار البلاد».

وال المصدر العربي القديم الذي ترجم لأبي دلف شاعراً ترجمة أدبية، ليس فيها شيء من التفصيل عن حياته، هو كتاب «يتيمة الدهر» لأبي منصور الشعالي شيخ الأدباء في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري (المتوفى عام ٤٢٩ هـ)، فقد ذكره الشعالي في الباب السادس الذي خصه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عباد، وقال له عنه: أبو دلف الخزرجي الينبوعي، مسرور بن مهلل، شاعر كثير الملح والطرف، مشحوذ المدية والكدية، خنق التسعين في الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعب في خدمة العلوم والأداب، ويستمر الشعالي في الحديث عن أبي دلف. فيقول: «كان يكتب - يقصد - حضرة الصاحب بأصبهان، ويكثر المقام عنده، ويتردد كتبه - أي رسائله التي تتضمن التوصية - في أسفاره».

ويشير الشعالي إلى معركة الهجاء التي دارت بين أبي دلف والشاعر الإسلامي (٣٣٦ - ٣٩٤ هـ).

ويذكر شعراً لأبي دلف، وقصيده السلسانية الطويلة<sup>(١)</sup>.

وفي موضع آخر من يتيمة الدهر يقول الشعالي عنه: كان بحضور الصاحب شيخ يكتنف بأبي دلف مسرور بن مهلل الينبوعي، يشعر ويتطيب ويتنجم ويحسد الإسلامي على منزلته<sup>(٢)</sup>.

ويشير الشعالي إلى أبي دلف في بعض كتبه الأخرى إشارات عابرة، مثل كتابه «لطائف المعارف».

(١) راجع ٢٥٢/٣ وما بعدها يتيمة الدهر، للشعالي - تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد.

(٢) ٤٠٠ : ٢ يتيمة الدهر.

ونجد نقولاً جغرافية كثيرة عنه في : «عجائب المخلوقات»، و«آثار البلاد»<sup>(١)</sup>، وهما للقرزوني ، «معجم البلدان» لياقوت وكراتشوفسكي يذكر ٢٤ اقتباساً لا يذكر فيها ياقوت اسم أبي دلف.

وفي دائرة المعارف الإسلامية في مادة «مسعر» ترجمة له تبين الكثير من دراسات المستشرقين عنه رحالة كبيراً، وجغرافياً مشهوراً<sup>(٢)</sup>.

وتجيء إشارات صغيرة عنه في كتاب «بلاد ينبع» للشيخ حمد الجاسر<sup>(٣)</sup>.

وفي كتاب الأعلام للزركلي ترجمة لأبي دلف في عدة سطور ومما جاء فيها عنه : شاعر رحالة وكان يكنى بالرحالة الحجازي ، قام برحلة ممتعة إلى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده في تلك الديار في كتاب ضخم ، ونقله المستشرقون عنه إلى مختلف اللغات الأوروبية ، تجاوز التسعين من عمره توفي نحو عام ٣٩٠ هـ<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظ الشيخ حمد الجاسر على هذه الترجمة أمرين :

الأول: أن الزركلي نسبة إلى ينبع البحر، وهو من ينبع النخل.

والثاني: قوله في «كتاب ضخم». . ويقول العلامة الجاسر: إنه ليس مجلداً ضخماً بل رسالة، وقد حققها المستشرق مينورسكي وطبعت في مصر سنة ١٩٥٥ في ٣١ صفحة النص العربي والترجمة الإنكليزية والدراسة في ١٣٦ صفحة.

وكلام العلامة الجاسر صحيح في أنه ليس كتاباً ضخماً بل رسالة، وأما قوله: «إن الرسالة حققها المستشرق مينورسكي الخ» فذلك ليس عن رسالة

(١) في كتاب «آثار البلاد» يوجد ٢٤ اقتباساً من «الرسالة الثانية لأبي دلف» وإن كان لا يشير إلى أبي دلف إلا في سبع منها وفي عجائب المخلوقات توحد كذلك إشارات كثيرة له، وأربع اقتباسات دون إشارة إلى اسمه.

(٢) راجع الطبعة الانجليزية من دائرة المعارف الإسلامية وقد ترجم النص الانجليزي لهذا البحث الأستاذ وديع فلسطين - الطبعة العربية لم تصل إلى هذه المادة

(٣) ١٤٥٧ بلاد ينبع.

(٤) ٨: ١٠٩ الأعلام للزركلي.

أبي دلف في وصف رحلته إلى الشرق الأقصى ، وهي التي تسمى بالرسالة الأولى ، بل عن رسالة أبي دلف في وصف رحلته في آسيا الوسطى وهي التي تسمى الرسالة الثانية .

والرسالة الأولى لأبي دلف عني بتحقيقها المستشرق الألماني رور صوير .

أما الرسالة الثانية فعني بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكي ، ومينورسكي ، وحققتها مينورسكي ، ثم خالدوف ويولغاكوف معاً في نصها العربي ، وهما مدرسان بجامعة ليننغراد .

وقد عاش أبو دلف في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي .. وشاهد كل أحداث هذا القرن وغرايئه ، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما ساده من تطورات فكرية وسياسية كبيرة ، كان في مقدمتها إنتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البوهيميين على بغداد عام ٣٤٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة في أنحاء العالم الإسلامي الذي كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة ، ومن هذه الدول :

- ١ - الدولة الأخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) .
- ٢ - الدولة الفاطمية بمصر والشام أيضاً (٣٥٩ - ٥٦٧ هـ) .
- ٣ - الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ - ٣٩٤ هـ) .
- ٤ - السامانية في تركستان ، وعاصمتها بخارى (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) .
- ٥ - الزيارية في طبرستان ، ومن ملوكها الشاعر الأمير قابوس بن وشمكير (٣٦٦ - ٤٠٣ هـ) .
- ٦ - الغزنوية في غزنة والهند ، ومن أشهر أمرائها السلطان محمود الغزنوي (٤٢١ - ٣٨٨ هـ) .
- ٧ - دولة سجستان ومن أشهر أمرائها خلف بن أحمد ، هو من أحفاد الليث<sup>(١)</sup> بن الصفار ، وامتدت هذه الدولة حيث حكمت نحو الأربعين ومائة عام (٢٥٤ - ٣٩٠ هـ) .

---

(١) ١٨٨ ذيل تحارب الأمم لمسكويه

٨ - الدولة العلوية في طبرستان، وينذكر أبو دلف طائفه من ملوكها حتى عصره وقد حكمت ثلاثي قرن (٢٥٠ - ٣١٦ هـ).<sup>(١)</sup>

## - ٤ -

أسرة أبي دلف:

(أ) ويعرف تاريخنا الأدبي علمين، كنية كل منهما هي أبو دلف:  
أما الأول فهو القاسم بن عيسى العجلي الذي كني بأبي دلف، وهو عربي كريم، وقائد عباسي مشهور، كان مع الأمين على أخيه المأمون، في صراع الأخوين على الخلافة، فلما انتهى الخلاف بينهما بانتصار المأمون، عفا عن أبي دلف، فعاش في الكرج (=الكرك) بفارس، ومات في بغداد عام ٢٢٥ هـ - ٨٤٠ م)، وكان من أشهر شعرائه الذين مدحوه: علي بن جبلة (١٦٠ - ٢١٣ هـ = ٨٢٨ - ٧٧٦ م)، وقد توارث أبناء أبي دلف بعده حكم منطقة الكرج: ويسمون الدلفيين. والكرج قرية من نهاوند بإيران، ويقول عنها أبو دلف: إن فيها آثاراً لآل أبي دلف، وأبنية حسنة جليلة تدل على مملكة عظيمة، وهي الجادة - أي الحاضرة - بين الأهواز والري وبين أصفهان وهمدان.<sup>(٢)</sup>.

واما الثاني فهو صاحبنا أبو دلف الخزرجي الينبوي أو الينبوعي ، الذي نكتب عنه هذه الدراسة.

(ب) اسمه مسرع بن المهلل ، ونسبته إلى الخزرج إحدى القبيلتين الكبيرتين في المدينة اللتين أطلق عليهما بعد الهجرة اسم «الأنصار»، وهما الخزرج والأوس. وللخزرج في الإسلام وبالإسلام تاريخ كبير خالد، ومن الخزرج بنو النجاشي أخوال رسول الله لأن أم جده عبد المطلب «نجارية».

اما الينبوعي فهو نسبة إلى مدينة ينبع المشهورة في الحجاز، ويوصف أبو دلف أيضاً بالينبوعي ، وينبع وينبوع علم واحد لهذه البلدة المعروفة من بلاد الحجاز.

(١) ٨٣ و٨٤ الرسالة الثانية لأبي دلف - شر عالم الكتب بالقاهرة.

(٢) ص ٧٤ الرسالة الثانية لأبي دلف - شر عالم الكتب - القاهرة.

(ج) لا نعرف عن المهلهل والد مسعر ولا عن قومه شيئاً، فكل المعلومات المتعلقة بحياة أبي دلف شحيحة ونادرة.. وقد عنى المستشرقون بأعمال أبي دلف الجغرافية وحدها ومن بينهم رور صوير، ومينورسكي، وكراتشوفسكي ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمي، كشف ما غمض من حياة أبي دلف نفسها.

أما أم أبي دلف فنجد في رسالة لابن العميد<sup>(١)</sup>، كتبها وعيداً وتهديداً لأبي دلف، ما يدل على أن صاحبنا يتمي إلى ابنه محمد بن زكريا الذي كان يعاصر ابن العميد.

وقد أعياني البحث في المصادر القديمة عن شخصية محمد بن زكريا فلم أتهدى إلى أثر له، وقد أستطيع في المستقبل الاهتداء إلى ترجمة له تكشف عن شخصيته، فأضيف إلى صورة أبي دلف مزيداً من الوضوح والرؤيا.

\* \* \*

وأبو دلف من ينبع «ويقال لها ينبع أيضاً في هجة»، وينبع موضعان: ينبع النخل وينبع البحر، وبينهما نحو اثنين وخمسين كيلومتراً. ومن إضافة ينبع إلى المضاف إليه نعرف المراد منها، أما عند إطلاقها من الإضافة ، ففي القديم كانت تنصرف إلى ينبع النخل لشهرتها وقلة غناه ينبع البحر، وفي العصر الحديث الأمر بالعكس فقد صارت ينبع البحر هي صاحبة الشهارة، فإذا أريد ينبع النخل قيل ينبع النخل دون إطلاق.

وينبع النخل التي يتمي إليها صاحبنا أبو دلف: هي ناحية واسعة فيها قرى وأودية وعيون، وتقع غرب المدينة نحو الشمال، وتبعد عنها بنحو خمسين ومائة كيلومتراً، وتقع على طريق القوافل بين الحجاز والشام.. ويتبعها نحو عشرين قرية.

---

(١) سأذكر فقرات من هذه الرسالة عند الحديث عن صلة أبي دلف بابن العميد - وراجعتها في صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي.

وكانت ينبع النخل مقرًا للقبائل العربية كبيرة: كجهينة، وحرب، وغيرهما. وكذلك مقر كثرين من الطالبيين، «وقد استوطن علي بن أبي طالب ينبع قبل أن يلي الخلافة وكان بها معجباً، ويررون عنه أنه نظر إلى جبالها، فقال لقد وضعت على نقب من الماء عظيم»<sup>(١)</sup>.

ووصف البشاري<sup>(٢)</sup> في القرن الرابع الهجري - الذي عاش فيه صاحبنا أبو دلف - ينبع، فقال:

«ينبع كبيرة جليلة، حصينة الجدار، غزيرة الماء، أعمق من يشرب، حسنة الحصن، حارة السوق - كناعة عن كثرة حركة البيع والشراء فيها - وعامة من يتسوق بالمدينة في الموسم منها»<sup>(٣)</sup>.

وقد انتقل أناس من الخزرج إلى ينبع النخل، فأقاموا بها، ومن هؤلاء أسرة أبي دلف<sup>(٤)</sup>.

وجميع المعلومات التاريخية والجغرافية عن ينبع يمكن أن نجدها في كتاب العلامة حمد الجاسر «بلاد ينبع» وفي مصادر أخرى قديمة وحديثة، من بينها كتاب «جزيرة العرب في القرن العشرين».

وبلدة السوق في العصر الحاضر هي مقر الإمارة في ينبع النخل، وقد أصبحت في الزمن الأخير تابعة لإمارة ينبع البحر وأصبحت قاعدة تلك الناحية<sup>(٥)</sup>.

وأغلب الظن أن أبي دلف ولد في ينبع، وهو ما ذكره كراتشوفسكي في كتابه، تاريخ الأدب الجغرافي العربي<sup>(٦)</sup> أيضًا، ويؤيد ذلك قول أبي دلف في رسالته التي وصف فيها رحلته إلى الصين وهي الرسالة الأولى: «لما نبا بي

---

(١) ٢٧ بلاد ينبع - حمد الجاسر - منشورات دار اليمامة بالرياض

(٢) في كتابه «أحسن التقسيم».

(٣) ص ٢٧ و ٢٨ بلاد ينبع

(٤) راجع ص ١٤٥ المرجع السابق

(٥) ص ٤٣ بلاد ينبع.

(٦) ص ١٨٨ .

وطني، ووصل بي السير إلى خراسان، ضارباً في الأرض»<sup>(١)</sup> ويذكر خالدوف بولغاكوف في تحقيقهما للرسالة الثانية لأبي دلف ذلك أيضاً، أي أن ميلاده كان في ينبع، ولكنهما يخطئان فيقولان: إن مكان مولده هو في مدينة ينبع بينما على ساحل البحر الأحمر<sup>(١)</sup>. ويقولان أثر ذلك: ومن غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبي دلف، وهذا تناقض كبير.

### ميلاد أبي دلف:

وتذكر بعض المراجع، ومن بينها الأعلام للزركلي، أن أبي دلف مات نحو عام (٣٩٠ هـ - ١٠٠١ م) « وأنه عاش نحو التسعين عاماً » فيكون ميلاده إذن في خلافة المقتدر بالله العباسي عام (٣٠٠ هـ - ٩١٣ م).

ويذكر الشعالي في كتابه « يتيمة الدهر » أنه عمر تسعين عاماً، فيقول عنه خنق السعدين في الأطرب والاغتراب، وركوب الأسفار الصعب، ولكنه لا يحدد تاريخاً لميلاده ولا لوفاته.

نشأة أبي دلف الأولى: ولا نعلم شيئاً عن حياة أبي دلف الأولى ونشأتها. وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة، وشب عربياً كريماً عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحمة، في وسامه ولطف. وكانت ينبع التخل آنذاك مركزاً من مراكز العلم والأدب والشعر وصار أبو دلف شاعراً، وعرف كذلك طبيعاً ومنجماً، وليس « ساسانيته » بمناقضة لعزة نفسه، فقد كانت ساسانية ظرف وفكاهة وأدب وطوف بالآفاق.

وفجأة ينبو بأبي دلف وطنه، وتسرير به الحياة إلى الأمير الساماني نصر بن أحمد (٣٠١ - ٣٣١ هـ = ٩٤٣ - ٩١٤ م)، فيحتل عنده منزلة عالية في دولته، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صيته بالأمير. ومهما كان، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه، وصار كذلك سفيره في كثير من المهام كما سترى ذلك.

(١) راجع ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت

(٢) ص ٨ الرسالة الثانية لأبي دلف - ترجمة محمد منير مرسي - نشر مكتبة عالم الكتب بالقاهرة

في بلاط السامانيين: والسامانيون<sup>(١)</sup> أسرة فارسية كبيرة لعبت دوراً خطيراً في القرن الثالث الهجري حتى نال أميرها نصر الساماني (عام ٢٦١ هـ) في عهد الخليفة المعتمد على الله استقلالاً ذاتياً، وظل يحكم بلاده من عاصمة سمرقند حتى وفاته سنة (٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م). وخلفه من ذريته:

- ١- إسماعيل الساماني (٩٧٩ - ٩٥٥ هـ).
- ٢- أحمد بن إسماعيل (٩٥٠ - ٩٠٧ هـ = ٣٠١ هـ).
- ٣- نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ - ٣٣١ هـ = ٩٤٣ - ٩١٤ م)، وهو الذي عاش في ظلاله أبو دلف، ولا نعرف شيئاً عن الظروف التي قادته إلى بلاط هذا الأمير، ولا مقدمات صلته به. وفي عهد هذا الأمير الساماني كانت الدولة السامانية قد بلغت أوج عزتها وذرورة مجدها.
- ٤- نوح بن نصر (٣٣١ - ٣٤٣ هـ = ١٤٣ - ٩٥٤ م).
- ٥- إلى ملوك آخرين طار صيتها في العالم الإسلامي، ومنهم: نصر بن نوح الساماني (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ)، ونوح بن منصور (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ).

وكانت بخارى قد صارت عاصمة السامانيين، وأصبحت تزخر بالأدباء والعلماء والشعراء والحكماء.

وكان الجيهاني<sup>(٢)</sup> أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر وزيراً للسامانيين (توفي عام ٢٣٠ هـ - ٩٤١ م)، وكان يشجع الأدباء، ويحتفي بالعلماء، ولعله هو الذي احتضن أبي دلف، أو اتخذه كاتباً له، وعن طريقه توطدت صلته بالملك الساماني نصر بن أحمد.

(١) راجع ١١ . ٧٦ - ٨٢ دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) راجع عنه ٢١٩ - ٢٢٣ تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشوفسكي وينقل الفزويي عن الجيهاني كثيراً في المسالك والممالك الشرقية (راجع كتاب عجائب المخلوقات للقرزوني). وينسب هذا الوزير إلى جيهان إحدى مدن حرasan، ويقول ياقوت عنه (٣): ١٩٥ معجم البلدان: إنه كان أدبياً فاضلاً. وقد ألف الجيهاني كتاباً في صورة العالم - أي في الجغرافيا - بعنوان «المسالك في معرفة الممالك» وذلك نحو عام ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م، وهو مفقود. والجيهاني هو الذي شجع أبي دلف وابن فضلان على أعمالهم الجغرافية.

وفي عهد الملك نصر بن أحمد وقد إلى بخارى وقد هندي برئاسة الأمير الهندي كلاتلي في سفارة هندية إلى بلاط الملك الساماني، وأنجز هذا الوفد مهمته، وعند عودتهم إلى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبي دلف ليكون مرافقاً لهم.

وزار أبو دلف في هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليبار، ووصف ذلك كله في كتاب ألفه بعنوان «عجبات البلدان»، والظاهر أنه مجموع رسالته في وصف رحلاته<sup>(١)</sup>.

وفي آخر حكم نصر بن أحمد الساماني وقد على بخارى كذلك وقد صيني، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد، فيقول<sup>(٢)</sup>:

«إن رسول ملك الصين جاؤوا ليخطبوا ابنة الملك الساماني لملكتهم، فأبى نصر بن أحمد ذلك، واستنكره، لحظر الشريعة له، فلما أبى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين، فأجاب إلى ذلك، فاغتنمت قصد الصين معهم».

وكان ذلك نحو عام (٣٣١ هـ = ٩٥٢ م)، وقد عبر أبو دلف هو والوفد الصيني تركستان الغربية، وتركتستان الشرقية وببلاد التبت، ودخل الصين من

---

= وهو الذي أعزى أبي زيد البلخي (٣١٨ - ٢٤٥ هـ) الفلكي بالانتقال إلى بخارى، وكان بين البلخي والجيهاني صلة وثيقة، ولكن البلخي اعتذر له، وألف البلخي كتابه «صور الأقاليم» عام (٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م) بشجع من الجيهاني، وفي مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت محظوظ بعنوان «ذكر المسافات وصور الأقاليم لأبي زيد البلخي» وهو برقم ١٤ جغرافياً - ويدرك الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار أن نسبة هذا المحظوظ إلى البلخي حطا وأنه كتاب ابن خرداذية المطبوع بعنوان «المسالك والممالك».

(١) كنت أظن أنه كتاب مستقل مفقود، ولكن أبي دلف يبدو أنه قسمه إلى رسالتين، وداعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلاً عن الاسم الأصلي وهو «عجبات البلدان»، وقد جرى على ذلك روكلمان، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبي دلف، وإنما ذكر مكانها كتاب «عجبات البلدان».

(٢) ٤٠٨.٥ محمـ محمد اللـدان ليـاقـوت.

مدينة «مقام الباب»، فوادي المقام، فستناديل العاصمة.. ويقول أبو دلف<sup>(١)</sup>:

ودخلت على ملكهم، فخاطبته الرسل بما جاؤوا به من تزويجه ابنته من نوح بن الملك الساماني نصر بن أحمد، فأجابهم إلى ذلك، وأحسن إلى الرسل، وأقمنا في ضيافته، حتى نجزت أمور المرأة، وتم ما جهزها به، وحملت إلى خراسان، إلى نوح بن نصر، فتزوج بها. ويقول أبو دلف:

وأقمت بستاندابل العاصمه مدة، ألقى ملكها في الأحابين، فيفاوضني في أشياء، ويسألني عن أمور من أمور بلاد الإسلام، ثم استأذته في الانصراف فاذن لي بعد أن أحسن إليّ.

وغادر أبو دلف الصين إلى الهند حتى رجع إلى بلاده عن طريق سجستان.

وزادت هذه الرحلة من مكانة أبي دلف في دولة السامانيين، ومن منزلته في عصره، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة.

في ظلال البوهيين:

(أ) وتنقضي هذه المشاهد كلها، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش في ظلال دولة البوهيين، ولا ندرى كيف كان ذلك، ولا متى كان؟.

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين إلى البوهيين، ووزيرهم الشهير ابن العميد، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عباد، وإلى عواصمهم الكبرى ينتقل بينها: أصبهان والري، وبغداد، وأصبح رفيع المكانة عند عضد الدولة الملك البوهى نفسه.

(ب) وتاريخ البوهيين حافل بالانتصارات الكبيرة وهذه الأسرة الفارسية<sup>(٢)</sup> التي بسطت نفوذها على خراسان وفارس والعراق، انتهى الأمر

(١) ٤١٤ : معجم البلدان وفي مروج الذهب للمسعودي المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) ج ١ صفحه ٣٤٩ تتحقق محمد محجى الدين عبد الحميد: وقد رأيت بليغ شيخاً جميلاً دارأياً وفهم وقد دخل الصين مراراً كثيرة ولم يركب البحر قط . مهل يقصد المسعودي بذلك أبا دلف؟

(٢) ينس السويهبيون أنفسهم إلى بهرام جزر (١٩٧.٨ ابن الأثير) وبهرام جور هو الفيصر =

بزعيمها أحمد بن بوه إلى دخول بغداد في الحادي عشر من جمادى الأولى (عام ٣٤٤ هـ) في خلافة المستكفي بالله، وأصبح بجوار الخليفة سلطاناً أو ملكاً على الشعوب الإسلامية، ولقب «معز الدولة» (٣٣٤ - ٣٥٦ هـ) وخلفه ابنه عز الدولة (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ)، ثم عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٣ هـ) وغيرهما من ملوك البوهيميين.

واستبد البوهيميون بالخلفاء استبداًً كبيراً، فلهم الملك والنفوذ والسلطان.

وصار الذي في أيدي العباسيين إنما هو أمر ديني اعتقادياً لا ملك دنيوي كما يقول البيروني (ت عام ٤٤٠ هـ) في كتابه «الأثار الباقيّة»<sup>(١)</sup>، وحتى صار الخليفة لا يأمن على نفسه وحياته من بطش البوهيميين متى أرادوا.

خلعوا المستكفي بالله بن المكتفي (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) وولوا مكانه المطیع لله بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) ثم خلعوه ومات بعد عام، وولوا مكانه ابنه الطائع لله (٣٦٣ - ٣٨١ هـ)، وخلعوه وقضوا عليه وعنده وولوا مكانه القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ)، فقال في ذلك الشريف الرضي:

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه      لقد تقارب بين العز والهون  
ومنظر كان بالسراء يضحكني      يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني<sup>(٢)</sup>  
ومن أشهر وزراء البوهيميين وزيران:

أولهما: أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ - ٣٦٠ هـ) وكان إمام عصره في الأدب والكتابة والبلاغة، كما كان له مجده وهيمته وسلطانه

---

= الساساني بهرام الخامس (٤٢٠ - ٤٣٨ م) وأحمد معر الدولة، والحسن ركن الدولة (٣٢٠ - ٣٦٦ هـ)، وعلى عماد الدولة: حكم هؤلاء الأئمة الثلاثة العالم باسم الخليفة العباسى. وأقام معز الدولة في بغداد، وركن الدولة في الري، وعماد الدولة في شيراز.

(١) ٢: ١١٣ المرجع.

(٢) راجع ٢٨٦٧ ديوان الرضي، ٣: ٢٠٢ تجارب الأمم لمسکوريه، وكتابي «الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسى الثاني».

السياسي في دولة البوهيميين، وكان وزيراً لركن الدولة البوهيمي (٣٢٠ - ٩٣٩ هـ = ١٣٢٦ - ٩٧٢) وذلك من عام ٣٢٨ هـ = ١٣٩ م.

وقد بدأ أبو دلف يتصل به، والظاهر أنه أقبل عليه ثم أعرض عنه، فهجاه أبو دلف، ورد عليه ابن العميد، مهدداً برسالة طويلة رواها أبو حيان التوحيدى في كتابه «مثالب الورثين»<sup>(١)</sup> وجاء فيها:

«الآن علمت أيها الشيخ أنك لي مكايد، وإلى جميع ما أنهاك عنه مخالف وعلى ديدنك المعروف ثابت، وبفضلة لسانك مسحور...».

إلى أن يقول ابن العميد:

«تقاعست عنى بلا عذر، ووقفتني بين وصل وهجر. فلم أدر كيف أخاطبك؟ وعلى ماذا أعاتبك؟ لأنك مشهور بقحة، ومذكور بسلطة، ومعتاد للبهتان، وجار على الكذب».

وأول ذلك أنك تدعى بنوة محمد بن زكرياء من ناحية ابنته، وقد شاهدت محمدًا وما خلف بنتاً.

ثم يقول ابن العميد في غضب ظاهر:

إن في الموت خلاصاً منك، ومفارقة لمثلك، والله ما أندب إلا حسن ظني بك، ومباهاتي أهل مجلسي بفضلك، وقولي: «أبو دلف وما أدرك ما أبو دلف؟ لا تنظروا إلى هزله، فإن وراء ذلك جداً، وهو المرء الذي قد جمع الله له بين المنظر والمخبر، وبين الدعوى والبيئة، وبين القول والحججة وبين الضمان والوفاء، وبين الصدقة والشفقة».

«فما زلت أقول هذا وشبهه، وأصحابي يشيعون قولي بمثله في الظاهر، ويختلفون في بعلمه في الباطن، حتى كان الفرج لهم ساعة هذه، لأنني احتجت إلى علمك فخيت عهدي، وأقبلت عليك فأعرضت عنى، ووهبت لك كلي، فبخلت ببعضك علي.. ولقد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك».

---

(١) ص ٢٨٩ - ٢٩٢ المرجع المذكور

ويقول أبو حيان التوحيدي<sup>(١)</sup>:

قلت لأبي دلف: ما أجبته عن هذا الكلام؟

قال: عملت شيئاً لم أجسر على إظهاره، وخفت صولته ونكايته وشره  
وغائلته.

وتوفي ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنه أبو الفتح منصب أبيه في عهد  
ركن الدولة، ثم في عهد مؤيد الدولة الذي كان يؤثر تلميذ ابن العميد  
الصاحب بن عباد ويقدمه وانتهى الأمر بمقتل أبي الفتح الوزير عام ٣٦٧ هـ.

أما الوزير الثاني من وزراء البوهيميين الكبار: فهو الصاحب بن عباد  
(٢٤٥ - ٣٨٥ هـ = ٩٣٦ - ٩٩٥ م) الوزير البوهي الكبير طيلة ثمانية عشر عاماً  
(٣٦٧ - ٤٣٥).

وصار أبو دلف قريب المتنزلة من الصاحب<sup>(٢)</sup>، يجلس في مجالسه في  
أصبهان والري متادماً، ومادحاً، وكان الصاحب نادرة الدهر، وأعجوبة  
العصر<sup>(٣)</sup>، وظل وزيراً مدى ثمانية عشر عاماً (٢٦٧ - ٣٨٥ هـ)، وكانت له  
خزانة كتب فيها نحو ربع مليون كتاب<sup>(٤)</sup>.

وقد احتف بالصاحب من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل  
وفرسان الشعر، من يربى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقتصرؤن عنهم في  
الأخذ برقباب القوافي، وملك رق المعاني. فإنه لم يجتمع بباب أحد من  
الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين،  
وجمعت حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان والري وجرجان مثل: أبي الحسن  
السلامي، وأبي سعيد الرستمي، والبديع الهمذاني، والقاضي الجرجاني،

(١) مثاب الوزيرين

(٢) راجع عنه ٢٦٨/٢ - ٢٧٠ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - كتابي الحياة الأدبية في  
الأندلس والعصر العباسي الثاني - ١٣: ٩٧ معجم الأدباء لياقوت.

(٣) ١: ٧٥ ويات الأعيان.

(٤) ١٣ ٩٧ معجم الأدباء لياقوت

وأبي القاسم بن أبي العلاء، وأبي دلف، والصابي، وسواهم، ممن يطول ذكرهم كما يقول الشعالي في «يتيمة الدهر»<sup>(١)</sup>.

ويذكر الشعالي أبا دلف من شعراء الصاحب ومناديه وجلاسه<sup>(٢)</sup>.

ويقول: وكان بحضره الصاحب شيخ يكنى بأبي دلف مسمر بن مهلهل البنعي، يشعر ويتطبع ويتنجم<sup>(٣)</sup>.

وكان الأدباء يجدون في ظل الصاحب أمناً وأماناً لهم، مما حل بالبلاد في عهد البوهيميين من فقر مدقع، فقد صارت العراق - كما يقول المقدسي - بيت الفتنة والغلاء<sup>(٤)</sup> واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراقة، كأبي حيان التوحيدى (٣٢٠ - ٤١٤ هـ) وغيره.

وأتصل أبو دلف بع ضد الدولة<sup>(٥)</sup> الملك البوهيمي في بغداد، وجلس في مجالسه شاعراً ومنادماً، وتصور لنا القصة الآتية مكانة أبي دلف عند هذا الملك البوهيمي الكبير. وقد رواها الشعالي في كتابه «لطائف المعارف»:

جرت بين أبي علي الهائم وأبي دلف الخزرجي في مجلس أنس لع ضد الدولة بشيراز مطالية ومداعبة، ومحاضرة، ومذاكرة.

فقال أبو علي لأبي دلف:

صب الله عليك طاعون الشام، وحمى خبيث. وطحال البحرين،  
ودماميل الجزيرة، وسنافر دهستان<sup>(٦)</sup>، وضربك بالعرق المدنى<sup>(٧)</sup>، والنار  
الفارسية، والقروح البلخية.

---

(١) ١٠٩/٣ يتيمة.

(٢) ٣: ١٨٩ المرجع نفسه.

(٣) ٣: ٤٠٠ المرجع.

(٤) ١١٣ أحسن التقاسيم.

(٥) من شعراء ع ضد الدولة: المتني، والسلامي، وغيرهما، ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده أبو علي الفارسي الذي أهداه كتابه «الإيضاح»: ٣: ٦٧ ذيل تجارب الأمم لمسكويه.

(٦) السنقر والستقرر: طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجمل منه ودهستان: بلد مشهور قرب حوارزم وجرجان.

(٧) مرض يصيب الإنسان.

قال له أبو دلف:

يا مسكين، أتقراً «تبت» على أبي لهب وتنقل التمر إلى هجر.

بل صب الله عليك: ثعابين مصر، وأفاعي سجستان، وعقارب  
شهرور زور، وجرارات<sup>(١)</sup> الأهواز.

وصب عليًّا ببرود اليمن، وقضب مصر، وديابيج الروم، وخزوذ  
السوس، وحرير الصين، وأكسية فارس، وحلل أصبهان، وعمائم الأبلة،  
وسلامطون<sup>(٢)</sup> بغداد وسنجاب<sup>(٣)</sup> خر خير<sup>(٤)</sup>، وسمور<sup>(٥)</sup> بلغار، وثعالب  
الخزر<sup>(٦)</sup> وفنك<sup>(٧)</sup> كاشغر، وفاقم<sup>(٨)</sup> التغاغز، وحواصل<sup>(٩)</sup> هراة، وتتك<sup>(١٠)</sup>  
أرمانيا، وجوارب قزوين.

وأفرشني: بسط أرمانيا، وزلالى قاليقلا، ومطارح<sup>(١١)</sup> ميسان، وحصر  
بغداد.

وأخذمني: خصيان الروم، وغلمان الترك. وسراري بخارى، ووصائف  
سمرقند.

وحملني على: عتاق البادية، ونجائب الحجاز، وبرازين طخارستان،  
وحمير مصر، وبغال برذعة.

ورزقني: تفاح الشام، ورطب العراق، وموذ اليمن، وجوز الهند،  
وباقلاء الكوفة، وسكر الأهواز، وعسل أصبهان وتمر كرمان، ودبس أرجان،

---

(١) نوع من الحشرات.

(٢) ثياب من الحرير موشاة بالذهب.

(٣) حيوان تصنع منه الفراء.

(٤) موضع ينبع إليه جنس من الترك.

(٥) دابة يتخذ من جلدتها فراء ثمينة.

(٦) قتائل على سواحل بحر الخزر (قزوين).

(٧) ثعلب صغير.

(٨) حيوان فروه من أنفخم الفراء.

(٩) الجلود تلبس للتدفئة.

(١٠) رباط السراويل.

(١١) بسط.

وتين حلوان، وعناب بغداد، وعناب جرجان، وإجاصن بست، ورمان الري وكثيري نهاوند، وسفرجل نيسابور، وممشمش طوس، وملبن مرو، وبطيخ خوارزم.

وأشمني : سك تبت، وعود الهند، وعنب الشجر، وكافور فنصور<sup>(١)</sup>، وأترج طبرستان، ونارنج البصرة، ونرجس جرجان، وفيolver السيروان<sup>(٢)</sup>، وورد جور، ومثور بغداد، وزعفران قم<sup>(٣)</sup>.

فأعجب عضد الدولة بكلام أبي دلف، ووفور حظه من طوافه بالشرق والغرب، ووقفه على خصائص البلدان في كل مكان من العالم الإسلامي .. ولم يملك إلا أن صاح بملء فيه بهذه العبارة العجيبة التي لم يقلها ملك في أحد من الأدباء أو الرعية ، قال عضد الدولة في تعجب ظاهر:

«الله درك يا أبي دلف»<sup>(٤)</sup>.

ملك يا أبي دلف ينادم الملوك».

وأمر له بخلعة وصلة حسنة.

وتدل هذه القصة على ما يلي :

- ١ - كثرة طواف أبي دلف بالعالم الإسلامي ، ووقفه على خصائص كل مصر من أمصاره، ويلد من بلدانه
- ٢ - حضور بديهته ، ووفرة أدبه .
- ٣ - ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة .
- ٤ - وفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم .

وتوفي عضد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفي بعده بزمن ليس بتطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ.

---

(١) بلد قرب الصين

(٢) بلد بالجبل

(٣) ٢٣٤ - ١٣٩ لطائف المعارف للشاعري - تحقيق الأبياري والصيري .

(٤) ٢٣٩ المرجع السابق .

وتقاذفت الأيام بأبي دلف وشهد نهاية صديقه الصاحب وعهد الدولة  
ومرت به السنوات، من فقر لغنى، ومن غنى لفقر، ولم يجد كريماً كالملك  
الساماني ولا كالصاحب الوزير، ولا كعهد الدولة البوهيمي.

ورأى الحياة من حوله لم تعد تحتفي بالأدب، ولا تغير الأدباء جانباً من  
رعايتها.

وشاهد نتائج رحلاته وطوفاته بالبلاد، وتدوينه للأرجاء، تصبح وكأنها  
ليست شيئاً مذكورة.

وتذكر زملاءه الشعراء: المتنبي، السلامي، القاضي الجرجاني، وأبا  
سعيد الرستمي، والبستي.

وأقرانه من الأدباء والكتاب: الخوارزمي، البديع الهمذاني، الصابي،  
الصاحب، ابن العميد.

وقد طوت كل هؤلاء الأيام، ومضت بهم الحياة إلى مصيرها المحتم.

فأسلم نفسه للمقادير، إلى أن لقي ربه نحو عام ٣٩١ - ١٠٠١ م كما  
أرجح، أو عام (٣٩٠ هـ) كما ذكر الزركلي في «الأعلام»، والعلامة حمد  
الجاسر في كتابه «بلاد ينبع» نقلاً عن «الأعلام».

أبو دلف كاتباً:

أما منا نصوص نثرية كثيرة لأبي دلف، منها رسالته في وصف رحلاته  
عبر الصين والهند وآسيا الوسطى، ومنها رسائل نثرية صغيرة.

وهذه النصوص تظهر لنا بوضوح شخصية أبي دلف الأدبية.

إنه كاتب متعمق المعاني، كثير التجربة، عظيم الخبرة، دقيق الأفكار.

وهو إلى جانب ذلك سمح الأسلوب، عذب اللفظ، واضح الصياغة،  
وضوح معانيه، ليس في أدائه تعقيد، أو إغراب أو تكلف أو حوشية، أو  
معاظلة.

أسلوبه أقرب الأساليب إلى سماحة أسلوب المطبوعين، ووضوح أساليب المعاصررين، وكأنه أسلوب صحفي معاصر، مطبوع على البيان الجيد، متمكن من اللغة والبلاغة.

وقد كان أبو دلف يعيش في عصر المطبوعين على البيان، وفي ذروتهم ابن العميد، والصاحب، والخوارزمي والبديع، والصابي، وأبو حيان، وغيرهم من أعلام البلاغة والكتابة والنشر الفني.

وأبو دلف يتخد من الرسالة مادة لعمله العلمي، ويبعد عن قيود الصناعة البدعية وزخارفها ووشيهما، مع التركيز الشديد في رسائله، ومع الوصف الدقيق للأشياء التي يصفها.

ومقدمتنا رسالتين تمتازان بأسلوبهما الفني السهل، ومع ذلك فإن سعة ثقافة الرجل فرست نفسها على كتابته، فليس هناك كلمة أو حرف قد جيء بها أو به لغير ما داع يتطلبه المعنى والغرض المسوق له الكلام.

وأبو دلف قلماً يعني بالحديث عن نفسه وتجاربه في كتاباته، فهو كاتب موضوعي أكثر منه كاتباً وصفياً.

وهو جدير باهتمامنا، وعن أيتها وتقديرنا لعلمه وتعدد ثقافته، وسعة جوانب شخصية.

ويبدو أن اتصاله الوثيق بالساسانية والساسانيين، قد قرب أسلوبه من الواقع الحية، ومن حاجة العصر إلى الدراسات الطبيعية والطبية والعلاجية والأثرية والجيولوجية. وجعل جانب العلم أغلب عليه، وأظهر على أدبه من جانب الخيال والعاطفة.

ومن العسير أن نفترض أنه لم يحي حياة الساسانيين، فأدبه قطعة من صميم حياتهم، وليس فيه أثر للتقليد أو الصنعة أو الريف، وصلة أبي دلف الوثيقة بهذا الوسط الاجتماعي المتميز جعله نموذجاً حياً للsassaniي الحالص<sup>(١)</sup> وجعل من أدبه وتجاربه صورة واضحة متكاملة نظر إليها مثل

---

(١) حب أبي دلف للفن وظروفه جعله يحترف الأدب sassaniي احترافاً مدعياً حتى لم يبق فرق =

البديع الهمذاني في إكبار وإجلال وتقدير، واتخذها نموذجاً فنياً في عمله الأدبي الجديد في فن المقامات، مما سنه حيث به بعد قليل.

- ٤ -

## أبو دلف.. شاعراً

(أ) عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبهما وشاعرها في عصر ازدهار الشعر ونهضته في القرن الرابع الهجري، عصر المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ)، والشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ)، وأبي فراس الحمداني (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ) والرفاء (٣٦٦ هـ)، والسلامي (٣٩٤ هـ)، وكشاجم (٣٥٠ هـ)، والخالديين وابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ)، والواواء الدمشقي (ت ٣٩٠ هـ)، والصنوبري (٣٣٤ هـ)، وقابوس بن شمكير (٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م) وابن سكرة (٣٨٥ - ٩٩٥ م)، والبستي (٣٢٠ - ٤٠٠ هـ)، وسواهم من أعلام الشعر العباسي.

وشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر، فقصد به ملوك الساسانيين وزراءهم يمدحهم، وينشد فيهم القصائد الطوال، ثم ذهب إلى البوهيميين، ملوكهم وزرائهم، فمدحهم بقصائده الجياد.

ومن الأسف أن شعر أبي دلف أو ديوانه يعد مفقوداً حتى اليوم، ولا نعرف له إلا القليل جداً من شعره، مما سجله الشاعري في «اليتيمة»، ومن أهم ما حفظه الشاعري لنا من هذا التراث الشعري قصيدة أبي دلف - أو رأيته الساسانية، التي سوف نتحدث عنها بعد قليل.

---

= بين الأصل والصورة. والطبع والصنعة، وكذلك كنا نرى في عصرنا أناساً يرتدون - من أجل الظرف والفكاهة - رداء أشعب في حشه وطعمه، وهم أغبر نفساً، وأكرم طعماً. وعلى آية حال فهناك فرق بين النموذج والأصل أو الحقيقة، ونحن مصطروون لأن نقول هنا ما قلناه من ساسانيته لأن أبي دلف صور نفسه في قصيده الساسانية بهذه الصورة الساسانية الخالصة، وإذا علمنا أن أبي دلف عاش في قصور الملوك وبالحواضر، وكانت له ألف حرفة - كما يقولون - أدركنا أنه لم يكن ساسانياً التكسب، بل ساسانياً الفن وهذه

(ب) وأشهر أغراض شعره: المدح - والهجاء - والفكاهة، وأهم أغراضه الشعرية على الإطلاق هو شعره السياسي الذي ستتعرض له.  
ولنبدأ بذكر مقطوعات مما بقى من شعره، لنتعرف إلى شاعريته، ونقف على مدى أصالته.

١ - كان أبو عيسى بن المنجم الطيب من جلساء الصاحب، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارهة. فكان يركبها كلما قصد مجالس الوزير، وهلكت الدابة أو قل نفقت، فطلب الصاحب من شعرائه أن يكتب كل منهم قصيدة في رثاء البرذون الراحل، وينشدها في مجلسه، ويقدمها إلى أبي عيسى، فاجتمع الشعراء، ثلاثة عشر شاعرًا، في مجلس حافل من مجالس الصاحب الوزير، وألقى كل منهم قصيدة<sup>(١)</sup>. وقام شاعرنا أبو دلف فأنشد أرجوزة طويلة في رثاء الفقيد، ضمنها أحر عواطفه، فماذا قال الشاعر في هذا الموضوع؟ استمعوا إلى أبي دلف ينشد<sup>(٢)</sup>:

دهر على أبنائه وثاب  
يالك دهرأ كله عقاب  
أصبح لا يردعه العتاب  
واهالناء ماله إباب  
لكل قلب بعده اكتئاب  
ذو نسب تحسد الأنساب  
قد كملت في طبعه الأدب  
كأنما غرته شهاب  
كأنما لباته محراب  
لا خبر منك ولا كتاب  
تناولتك الردى أنسياب  
تجزع من أمثالها الأحباب

(١) ٣٠٢ - ٢٣٦ - ٢١٣ بيتهما الدهر.

(٢) ٣٢٣ - ٢٢٥ المرجع

وكنت لو طالت بك الأوصاب  
يحف في مصرعك المصايب  
وأنت فرد ماله أتراب  
قل لأبي عيسى: وما الأسهاب  
ينافع: تم لك الشواب  
فاسكن فهذا الصاحب الوهاب  
في جوده وفضله مناب

٢ - ويقول أبو دلف أيضاً يصف ترفة وشجاعته:  
إني امرؤ كسرى الفعال أصيف الجبال وأشتوا العرaca  
وألبس للحرب أثوابها واعتنق الدارعين اعتنقاً  
يقول ابن الفقيه<sup>(١)</sup>: اختار أبو الدلف بفضل رأيه أن يصيف الجبال،  
ليسلم من سمائم العراق وذبابه وسخونته مائه وهوائه، ويشتوا بالعراق ليسلم من  
زمهرير الجبال وكثير رياحها ووحولها.

٣ - ولما طوت الأحداث حياة أبي دلف المترفة فأحالته فقيراً بعد غنى  
قال<sup>(٢)</sup>.

أصيف العراق وأشتوا الجبالا	الم ترني حين حال الزمان
حنانيك حالاً أزالتك حالاً	سموم المصيف وبرد الشتاء
تأبى الحوادث إلا انتقالا	فصبراً على حد النائبات

٤ - ووقف أبو دلف أمام بعض آثار تدمر في الشام، فقال:

أهل الحجى وجماعة العشاق	ما صورتان بتدمير قد راعتا
لم يساما من ألفة وعنق	غبراً على طول الزمان ومره
شخصيهما منه بسهم فراق	فليرميin الدهر من نكباته
وتعاقب الإظلم والإشراق	وليبلئهما الزمان بكره
غير الإله الواحد الخلاق	كي يعلم العلماء أن لا دائم

(١) ٢٤١ محضر كتاب البلدان لابن الفقيه - طعة بريل ١٣٠٢ هـ

(٢) ٢٤١ المرجع السابق

٤ - ولأبي دلف حكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة<sup>(١)</sup>:

هي المقادير تجري في أزتها  
فاصبر فليس لها صبر على حال  
دع المقادير تجري في أعتها  
ولا تبین إلا خالي البال  
ما بين طرفة عينٍ وانتها  
يغير الله من حال إلى حال

وليس بين أيدينا نصوص من حكمه لأن شعره مفقود إلا النماذج التي  
روها التعالبي.

٥ - ويذكر التعالبي أن الصاحب الوزير بنى قصراً بأصبهان، وانتقل  
إليه، واقترب على شعرائه أن يقولوا فيه شعراً.. وفي يوم حافل اجتمع شعراؤه  
الثلاثة عشر في مجلس الصاحب، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف<sup>(٢)</sup>، فأنشد كل  
منهم قصيدة طويلة في مدح الصاحب ووصف القصر، وقد ذكر التعالبي هذه  
القصائد ومن بينها قصيدة أبي دلف. ومطلع قصيدة أبي دلف هو:

رأينا طلعة الدار شموساً مع أقمار  
ولي مسألة بعد فعاجلني بإخبار  
بنيت الدار في دنيا ك، أم دنياك في الدار؟

٦ - ولننتقل إلى قصيدة أبي دلف السياسية المشهورة العجيبة.. . وقبل  
أن نذكرها نذكر مدلول «الشعر السياسي».

(ج) الشعر السياسي له بذور قديمة في شعر الصعاليك. وفي مزاج  
أشعب وطبقته، وفي أدب الجاحظ وبعض كتاباته.

وقد عم الفقر البلاد الإسلامية في العصر البويمي، كما ذكرنا آنفاً، وما  
أقسى ما قاله أبو حيان في كتابه «الامتناع والمؤانسة»<sup>(٣)</sup>: القوت لم يكن إليه  
سبيل إلا بأخلاق المروءة، وتجرع الأسى، ومقاساة الحرفة، ولذع الحرمان،  
والصبر على ألوان وألوان، أو ما ي قوله ابن لئنك البصري:

(١) كتاب التمثيل والمحاضرة للتعالبي، ومن الطريف أن هذه الأبيات لشهرتها رويت بروايات  
محفلة، وسبت لكثير من الشعراء، منهم. الشافعي والواشق العباسي، وإسحاق الموصلي.. .

(٢) ٣ - ٢٠٢ - ٢١٣ اليتيمة

(٣) ٢ ١٤٣ الكتاب المذكور.

## جار الزمان علينا في تصرفه وأي دهر على الأحرار لم يجر؟

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحتالين والسائلين والجواة يجوبون البلاد، ويطوفون بالأقاليم، ويفتنون في اختراع الحيل للحصول على المال، ويظهرون أحياناً إن صدقاً وإن كذباً أنهم مجاهدون أحياناً أو من أبناء السبيل، أو من نهبت أموالهم في الطريق، أو مرضى، أو غير ذلك، فأطلق على هؤلاء بنو ساسان، أو الساسانيون<sup>(١)</sup> وكان جامعاً للأهواز مأوى الكثير منهم<sup>(٢)</sup>.

وظهر الشعراء والأدباء يقولون شعرهم وأدبهم في الاستجداء وفي الاحتياط على أخذ المال من أي طريق، وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والأدباء أيضاً: ساسانيون. وقيل لأدبهم وشعرهم: أدب وشعر ساساني.

وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتياط على الناس؟

وللساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها إلا من كان منهم، وتعرف هذه اللغة باسم «مناكاةبني ساسان»، وكان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظاً عجيبةً، كما يقول الشاعري في الـ<sup>(٣)</sup> يتيمة، وكان يعجبه من أبي دلف وفور حظه من هذه اللغة في شعره، وبخاصة في قصيدة الساسانية الطويلة، التي كتبها وقدمها<sup>(٤)</sup> إلى الصاحب، ووصف فيها حيل بني ساسان وأساليب حياتهم، وقد اختار منها الشاعري في الـ<sup>(٥)</sup> يتيمة نحواً من مائتي بيت.

هذا هو معنى الشعر الساساني بإجماله، فمن هو ساسان الذي نسب إليه؟

(١) ٤٦/١١ و ٤٧ دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) ٧ أحسن التقاسيم للمقدسي

(٣) ١٧٦/٢ يتيمة.

(٤) ٢١٨ «الأدب في طل بني بويه للرهيري»، طبعة عام ١٩٤٩ م.

قيل : هو أمير من الأسرة الساسانية<sup>(١)</sup> الفارسية المالكة ، حزن لما تولت أخته الملك وحرم هو منه ، فاشترى غنماً ، وجعل يرعاهما ، ويعير بأنه راعي غنم ، فنسب إليه كل من احترف الكدية .

وقيل :<sup>(٢)</sup> إن الساسانيين كانوا شرذم الأمراء من بني سasan ، جاء الإسلام فذلوا بعد عز ، واقتروا بعد غنى ، ورحلوا من مكان إلى مكان ، فصارت نسبتهم إلى الساسانيين نسبة عار وذل ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد .

وقيل إن سasan كان رجلاً من عامة الناس ، ماهراً في الحيلة والاستجداء فنسب إليه هؤلاء .

وكان من الساسانيين شعراء وقل الحرمان مواهبهم ، وأنضج الألم عبقريتهم ، ومنهم شاعرنا أبو دلف ، وشاعر آخر ضاهاه في رفعه المنزلة في الأدب الساساني ، وهو الأحنف العبكري ، الذي قيل عنه ، إنه آدب بني سasan في بغداد ، وقال الثعالبي عنه : هو فرد بني سasan اليوم بمدينة السلام<sup>(٣)</sup> .

(١) أسرة فارسية حكمت إيران ، أولهم رُشير (٢٤١ - ٢٢٦ م) . وأخرهم بِزدجر الثالث (٣٦٢ - ٦٥١ م) الذي سقطت الإمبراطورية الفارسية في عهده في أيدي المسلمين (راجع ١١ / ٤٧ - ٥٥ دائرة المعارف الإسلامية ١٤٢١) « ظهر الإسلام لأحمد أمين »

(٢) هو رأي محمد عبده في شرحه لمقامات البديع ص ٩٧

(٣) ١١٧ / ٣ البِّيْتَيْهِ - ٢٢٤ بدِيع الزمان للشكمة .

ولقد ذكر الجاحظ - في « المحسن والأسداد » وفي « البخلاء » ص ٣٦ - الكدية والمكدين . . . وفي المحسن والمساوي للبيهقي نصوص عن الجاحظ في ذلك (٦٢٢ - ٦٢٤ المحسن للبيهقي)

ويذكر بدِيع الرمان في مقاماته اللصوص وحياتهم - راجع المقامات الرصافيه - كما يذكر الكدية ، في مقامته الساسانية ، التاسعة عشر ، يدافع عن الكدية ، ويذكر الكثير من بواتتها وقد ذكر التوحيد (١٤٣ / ٢ الامتناع والمؤانسة) للساسانيين رائياً لحالهم .

وفي مقامات الحريري المقاومة الساسانية التاسعة والأربعون ، وفيها يوصي أبو زيد السروجي أنه ولي عهده وكش الكتبة الساسانية من بعده بصناعة الكدية ، وبالرهد في غيرها من الصناعات ، ولو كانت إمارة أو تجارة أو زراعة أو صناعة .

وقد أكثر العبكري من تصوير بؤسه وحرمانه، فيقول:

العنكبوت بنت بيتاً على وهن تأوي إليه وما لي مثلها وطن  
ويقول أيضاً:

واغتراب في عشر أذال عشت في ذلة وقلة مال  
فخذائي حلاوة الأمال<sup>(١)</sup> بالأمانى أقول لا بالمعانى

ودالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقول:

في بيت من المجد	على أنني بحمد الله
ن أهل الجد والجند	إخوانيبني ساسا
فقاشان إلى الهند	لهم أرض خراسان
إلى البلغار والسندي	إلى الروم إلى الزنج
بلا سيف ولا غمد	قطعنا ذلك النهج

وقد هزت هذه القصيدة أبا دلف، فعارضها بقصيده الساسانية المشهورة التي حشر فيها الخليفة المطبع للعباسي ٢٣٤ - ٣٦٣ هـ، الذي لم يكن يملك في ظلال البوهيمين من الأمر شيئاً، حشره في جملة الساسانيين الصعاليك القراء، وكان ذلك مما يتدر به الصاحب وعهد الدولة، وهو على أي حال تذر من لأنه يشير إلى الحقيقة المرة كاملة، إذا كان الخليفة في ظل البوهيمين لا شأن له بشيء من أمور الخلافة والسلطان، ويعيش دائمًا في فقر وحرمان.

---

= وأدوات صاعة الساسانية كما صورها العريبي: الفطنة والذكاء والوقاحة وأن يكون الساساني أحول من قطرب، وأسرى من جندب، وكذلك الجد والمثابرة، فلا يسام الطلب، ولا يمل الدلب، وعليه بالإقدام ولو على الضراغم، مع تحليه بالبلاغة، بأن يكون أخelp بصروغ اللسان، وأحدع سحر البيان الع.

ولصفي الدين الحلبي قصيدة ساسانية طويلة في ١٤٥ بيتاً.

(١) راجع ١١٩ - ١١٧ الآية.

قصيدة أبي دلف الساسانية<sup>(١)</sup>:

قصيدة طويلة ساسانية، ذكرها الشاعري في اليتيمة، وشرح كثيراً من اصطلاحاتها الساسانية، ولها أهمية كبيرة، لا في شعر أبي دلف، ولا في الشعر الساساني، وحدهما بخاصة، بل في الشعر العباسي عامه.

وقد اهتم المستشرقون اهتماماً شديداً، فعنوا مثلاً بما جاء فيها من وصف الأواني الصينية<sup>(٢)</sup>.

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين، ولا يقاربها في هذا الباب أثر أدبي آخر إلا مقامات البديع.

وقد استخدم أبو الدلف بكثرة في القصيدة كلمات غامضة من اللغة السرية لآل سasan، وقد شرحها الشاعري وكشف عن مغاليقها، ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئاً. وكان أبو دلف يجيد هذه اللغة تماماً وقد علم الصاحب إليها بنجاح. وقد أعلن أبو دلف أنه نفسه من زمرة الساسانيين.

يقول شاعرنا من هذه القصيدة:

لطول الصد والهجر  
به جمراً على جمر  
ن من حلو ومن مر  
ريسلو سلوة البحر  
ة أودى أكثر العمر  
والواناً من الدهر  
بهاليلبني الغر  
حمى في سالف العصر  
س في البر وفي البحر  
من الصين إلى مصر  
أرض خيلنا تسرى

جفون دمعها يجري  
وقلب ترك الوجد  
لقد ذقت الهوى طعمي  
ومن كان من الأحرا  
كأمالي، وفي الغرب  
وشاهدت أعايجيباً  
على أنني من القوم الـ<sup>الـ</sup>  
بني سasan والحامى الـ<sup>الـ</sup>  
فتحن الناس كل النـ<sup>ـ</sup>  
أخذنا جزية الخلـ<sup>ـ</sup>  
إلى طنجة، بل في كل

(١) ٣٧٢ - ٢٥٤ اليتيمة.

(٢) «الرحلة المسلمين في العصور الوسطى» د. زكي حسن

من الإسلام والكفر نسر عنه إلى قطر  
ننا الدنيا بما فيها وإن ضاق بنا قطر

ويقول أبو دلف في القصيدة أيضاً:

ومنا شعراء الأردن والأشراف من فهرس أهل البدو والحضر

ويستطرد أبو دلف، فجعل الخليفة المطیع الله العباسی من جملة

الساسانيين:

## وَمِنَّا قَيْمُ الدِّينُ الْمُطَيِّعُ الشَّائِعُ الذَّكْرُ

وكان معز الدولة ثم ابنه عز الدولة قد ساموه الذل والهوان<sup>(١)</sup>.

ثم يقول أبو دلف عفا الله عنه:

غيشاً دائم القطر  
ن من شطر إلى شطر  
ت في التطواف كالخضر  
فعال النار في التبر  
كحال المد والجزر  
وي بعض منه للشر  
مثلي فاسمعن عذري  
بني بالسادة الظهر  
شفيت لغلة الصدر  
ة الولية النصر  
فلا أبأت مع السفر  
بلا عز ولا وفر

سقى الله بنى ساساً  
إلا أنى حلبت الده  
وجبت الأرض حتى صر  
وللغربة في البحر  
وما عيش الفتى إلا  
في بعض منه للخير  
فإن لمت على الغربة  
أمالى أسوة في غز  
فإن أظفر بآمالى  
وقد تحقق فوقى عز  
إما تكن الأخرى  
ولا عدت متى عدت

هذه هي أبيات من القصيدة الساسانية، التي نظمها أبو دلف، وأشدها الصاحب، وطارت شهرتها بين الأدباء وقد أتينا على أبيات قليلة منها بعيدة عن اصطلاحات الساسانيين العويصة.

(١) ٦/٧٦ و ٣٠٧ «تجارب الأمم» لمسكويه.

ولا نقول عنها إلا وثيقة أدبية كبيرة<sup>(١)</sup> الدلالة في الشعر العباسى ، وأنها من أرفع ثماذج الساسانى وهي حافلة بالبلاغة والصور والأخيلة العجيبة .

- ٥ -

ولقد كان ابتكار البديع الهمذاني (٣٥٨ - ٩٦٩ ، ٣٩٨ - ١٠٠٧ م) في القرن الرابع الهجري لفن المقامة حدثاً أدبياً جديداً في الأدب العربي .

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها ، ونزعية القصة فيها ، وهذا الحوار الذي طالما دار بين بطلها أبي الفتح الإسكندرى وراويتها عيسى بن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل شخصية الساسانى أبي الفتح البطل .

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتناناً شديداً .

وليس هناك إلا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة في الأدب العربي ، وصاحب الفضل في إنشائها ، و يؤيد ذلك الحريري أبو محمد القاسم بن علي البصري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) في مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعاً إلى بديع الزمان ، وعلامة همدان ، وكذلك جعل الشعالى في «اليتيمة» البديع أبياً عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها ويتبعهم في ذلك كثيرون منهم مارون عبود مثلاً ، إذ يقول<sup>(٢)</sup> إن خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذي ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التي شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، وعيتاً يحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع .

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول<sup>(٣)</sup> : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة في الأدب العربي .

---

(١) بعد أن كتبت ذلك وجدت آدم متز «في الحضارة الإسلامية» ، ٢ : ١٠٧ يقول عنها: إنها وثيقة اجتماعية في القرن الرابع .

(٢) ٢٤ «بديع الزمان» لمارون عبود

(٣) ص ١٦ «مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته» - مازن مبارك .

هذا هو الرأي السائد في نشأة المقامات، ولكن الحصري صاحب كتاب «زهر الأدب» يذهب في كتابه<sup>(١)</sup> إلى أن البديع اقتبس فن المقامات من أحاديث ابن دريد (٣٢١ - ٢٢٣ هـ)، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكي مبارك<sup>(٢)</sup> أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامات، وإن كان له فضل في نشأتها، وينفي مؤلف كتاب «بديع الزمان رائد القصيدة القصيرة» وهو الدكتور مصطفى الشكعة<sup>(٣)</sup> أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامات كما عرف عند البديع.

ويجعل آخرون البديع محتذياً حذو أستاده ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) في رسائله الحوارية.

ويذكر آخرون، ومن بينهم الدكتور شوفي ضيف<sup>(٤)</sup> أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه في البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية، ومع جواز ذلك في المضمون، فإن شكل المقامات الفني يبقى جديداً كل الجدة عند البديع: وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة في أي عمل أدبي أو غير أدبي.

ويجعل بعض المستشرين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات، ويذكر آخر أن قصص جحا في الأدب الفارسي والعربية والتركية ذات أثر في نشأة المقامات، وهذا كلام يعزوه الدليل، ولا تنهض به الحجة<sup>(٥)</sup>.

ويذهب آخرون إلى أن المقامات مقتبسة من أصل: فارسي، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت في الأدب الفارسي قبل بديع الزمان، إذ لم تعرف المقامات في الأدب الفارسي إلا بعد

(١) ١ : ٢٣٥ «زهر الأدب»

(٢) «الثر الفتى» لزكي مبارك

(٣) ص ٢٠٧ «بديع الزمان» للشكعة.

(٤) ٢٠ «المقامات» للدكتور شوفي ضيف - طبع دار المعارف

(٥) راجع ١٤٦ «الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني» للمؤلف.

البديع بنحو قرن ونصف من الزمان. فأول مقامات كتبت بالفارسية هي للقاضي حميد الدين البلخي الذي بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفي بعد ذلك بسبعين سنة (١٦٤ هـ / ١٩٥٨ م) كما يقول براون، ويؤكد محمد تقى بهار<sup>(١)</sup> أن المقامة من اختراع البديع، وأن كل اختراع في الأدب العربي كان له صدأه في الأدب الفارسي، وأن حميد الدين قلد البديع والحريري في مقاماته ويدرك الأنوري إعجاب الفرس وافتنانهم بمقامات حميد الدين.

إن هذه القصة الحوارية القصيرة، ذات المنهج الفني الملائم، والصياغة الطريفة، والصنعة الجديدة، وال فكرة السياسية، التي دعيت مقامة، قد أنشأها بديع الزمان الهمذاني، لتجابه مطالب الحياة الفنية الأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجلدة في عصره.

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلاً ساسانياً هو أبو الفتح الإسكندي، وهو الذي مثل كل أدوارها، ونهض بجميع فصولها وقام بكل أحداثها.

وشخصية أبي الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقاً، فهو بطل الموقف كله في المقامة، وهو - كما يصوّره الهمذاني - عالم وأديب وشاعر، وهو ناقد بليرغ، ومغامر محظى ماهر، مشرد في الآفاق، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا الكدية والاحتياط بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام. وهو إلى ذلك كله مجريب حكيم خبير بالأيام وصروفها عركها وعركته يحجب الآفاق ويخطب في الأندية، ويهز الناس بفصاحته وببلاغته.

وكنية أبي الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته في موافقه العجيبة في الكدية.

أما وصف الإسكندر الذي لازمه فقد يكون معززاً لذلك المعنى على أنه نسبة إلى الإسكندر، ف تكون فتوحات أبي الفتح في أموال الناس شبيهة بفتحات الإسكندر.

---

(١) «تاريخ تطور الشعر الفارسي» - محمد تقى بهار

وقد ينافق ذلك أن أبو الفتح يكرر في مقاماته قوله «إسكندرية داري»<sup>(١)</sup> نسبة إلى الإسكندرية لا إلى الإسكندر الأكبر المقدوني ٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.). ويصبح لنا أن نجمع بين الأمرين، فتكون نسبة إلى الإسكندرية مقصوداً بها إلى الرمز إلى شبهه في فتوحاته الساسانية بفتحات الإسكندر التي تسب إلى مديتها.

ويقودنا ذلك إلى التساؤل: أية اسكندرية كان يعني البديع، وكان يتسب إلىها أبو الفتح الساساني؟

في المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثاً عن نفسه: إني أمرؤ من أهل الإسكندرية من الشغور الأموية، وفي المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول: من الشغور الأموية والبلاد الإسكندرية. ويكرر أبو الفتح نسبة إلى الإسكندرية في مواضع كثيرة أخرى.

فإذا رجعنا إلى ياقوت<sup>(٢)</sup> وجدناه يذكر أن الأسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه، ثم تغيرت أسماؤها بعده، فمنها: اسكندرية مصر، والإسكندرية التي صار اسمها سمرقند، والتي صارت مرو، والتي سميت بعد باسم بلخ، واسكندرية الأندلس التي على النهر الأعظم - نهر إشبيلية - وهي التي رجحها الإمام محمد عبده لوصف البديع لها أنها من الشغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس في القرن الرابع الهجري عصر البديع إلا أنني وجدت رحالة عربياً في القرن الرابع - هو أبو دلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السندي، ويقول عنها: إن الخليفة الأموي مقيم بها<sup>(٣)</sup>، فهل كانت هذه المدينة قدّيماً تسمى الإسكندرية أيضاً، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر، ويدرك باحث عراقي أن الإسكندرية بين بغداد والحلة<sup>(٤)</sup>، ولكن ما صلتها إذن بالشغور الأموية؟

(١) راجع مثلاً في المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع اسكندرية داري لو قر فيها قرارى

(٢) ٢٣٥ / ١ معجم البلدان.

(٣) هذا الصن منقول عن معجم البلدان راجع ٣٠٩ / ٥ معجم البلدان

(٤) يعد رسالة دكتوراه عن مقامات الحريري، وهو طارق العوسج، وهو مدرس بمكة المكرمة حالياً.

ويذهب د. عبد الوهاب عزام إلى أن صحة الكلمة «الأموية» نسبة إلى نهر آموي<sup>(١)</sup> - جيرون - ويذلك تكون الإسكندرية المقصودة هي مدينة الإسكندر على نهر آموي.

ومع ذلك كله فلا نزال نسير في بداء سحيقة.

فمن هو أبو الفتح الإسكندرى إذا؟

١ - هناك رأي سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة، كشخصية راوي المقامات عيسى بن هشام، يقول الحريري في مقدمة مقاماته:

كلاهما مجھول لا يعرف «ونکرة لا تترعرف» وهذا ما رجحته منذ عشرين عاماً في كتابي «الحياة الأدبية في الأندلس والعرض العباسى الثاني»<sup>(٢)</sup> ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسي إيوار، فيقول: وضع البديع شخصاً خيالياً ابتكره وسماه أبا الفتح، وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شيئاً للبديع، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همدان، وينقل ذلك عنه ياقوت في معجم الأدباء ولعل ذلك وهم ناشيء من قول البديع في مطلع كل مقامة من مقاماته: حدثنا عيسى بن هشام، ولو ذهبتنا إلى أن أبا الفتح هو الذي كان أستاذًا للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث، وأكثر انطباقاً على الموضوع.

ومن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب «بديع الزمان» الدكتور الشكعة الذي يقول: حاولنا أن نجد لبطلي المقامات صدى تاريخياً فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه<sup>(٣)</sup>.

٢ - وهناك رأي جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين «إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين»، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية.

(١) بديع الزمان للشكعة نقالا عن محاضرات د. عزام في كلية الآداب عام ١٩٤٤ م.

(٢) من ١٤٧ الكتاب المذكور طبع القاهرة ١٩٥٧.

(٣) بديع الزمان ص ٢٣٢

وأنا معهم في ذلك. ولكنني أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبي الفتح بطل المقامات البدوية.

يذهب باحث عراقي<sup>(١)</sup> سبق الإشارة إليه أن أبي الفتح هو البديع نفسه، ومن قبل قيل قلت ذلك في كتابي «الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسى الثاني»<sup>(٢)</sup> حيث ذكرت أنه قد يكون في حياة أبي الفتح شيء من صفات البديع نفسه، وشيء من أخلاقه. ولكنني أخالف ذلك اليوم، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل.

ويذهب باحث آخر<sup>(٣)</sup> إلى أن الكدية أو الساسانية التي كانت صناعة أبي الفتح «نجد من أعمالها في عصر البديع من يشبه أبي الفتح من وجوه كثيرة: كابن الحجاج (تـ ٣٩١ هـ)، وابن سكورة (تـ ٣٨٥) وأبي الورد، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبي حيان التوحيدى، بل البديع نفسه، ومن يشبهه كل الشبه كأبي دلف والأحنف العكبري»... ومجمل هذا الرأي أن أشباه أبي الفتح الإسكندنى كثيرون في عصر البديع، وأن أقربهم شبهًا به هو أبو دلف والأحنف. وهذا الرأى لا يأتي لنا بجديد ولا بأمر مؤكدا في البحث في أية حال، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين له.

٣ - ورأى الذي أذهب إليه اليوم هو أن أبي الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة في عصر البديع، وهو أبو دلف الخزرجي وحده.

وهذا الرأى لا يسبقني فيه باحث، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب في القرن الرابع. ودليلنا عليه هو ما قاله الشعالي في «يتيمة الدهر»<sup>(٤)</sup> قال:

أنشدني بديع الزمان لأبي دلف، ونسبة في بعض المقامات إلى أبي الفتح الإسكندرى.

(١) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة الدكتوراه عن مقامات الحريري

(٢) ١٥٨٧ و الكتاب المذكور

(٣) ص ٢٣٤ «الأدب في ظل بنى بويه» للرهيري - طبع مصر ١٩٤٩

(٤) ٣٠٢٥٤ يتيمة

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور<sup>(١)</sup>  
لاتلقم حالة ولكن در بالليالي كما تدور  
ومن هذا النص نعرف الحقائق الآتية:

- ١ - أنشد البديع الشاعري شعرًا لأبي دلف.
- ٢ - وهذا الشعر نفسه نسبه البديع في مقاماته إلى أبي الفتح، فتكون التبيحة هي أن أبي الفتح هو أبو دلف نفسه بإقرار البديع.
- ٣ - كان البديع راوية لشعر أبي دلف، ويدوّلي أن البديع كان ينزل أبي دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم.

وإذن يكون أمامنا رأي جديد نجزم به، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبي دلف أستاده وصديقه ومعاصره بطلًا للماقامات، وكفى عنه بأبي الفتح، وكان أبو دلف أروع نموذج ساساني يصلح بطلًا للماقامات لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذي صوره البديع في شخص أبي الفتح الإسكندي، ولأن شهرة وتجارب أبي دلف كانت تصلح معيناً يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبي الفتح وذلك ما قد كان.

بل إنني أضيف إلى ذلك أن البديع الهمذاني حين سمع قصص أبي دلف الشيخ الحكيم المجريب عن رحلاته وتطوافه في البلاد واستمع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره في مجالس الملوك والوزراء رأى أن الصورة الفنية تصلح أساساً لفن جديداً ابتكره وسماه «المقامة»، فكان أبو دلف هو الملمهم للبديع الشاب الذكي بابتتكار فن المقاومة في الأدب العربي، في القرن الرابع، وفي عصر أبي دلف.

وقد أطلعت بعد نشر هذا الرأي والإنتهاء منه بزمن على دليل آخر يؤيدني في هذه القضية، ففي كتاب «النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة» يقول مؤلفه د. محمد غنيمي هلال ما نصه:

---

(١) هذا الشعر في المقامية القرقوبية إحدى مقامات البديع.

على أن ثمة شخصية تاريخية واقعية استعمل منها الهمذاني نموذجه الأدبي وهو الشاعر أبي دلف، وكان معاصرًاً لبديع الزمان، وكان بديع الزمان يعجب به ويستدعيه إلى مجلسه، ويحسن إليه ويحفظ من شعره، والجانب الواقعي من أبي دلف قد أمد - دون ريب - بديع الزمان بالمادة الغفل لمقاماته مائلة في شخصية الشاعر المذكور وأدبه، وقد ترك هذا الجانب الواقعي كذلك أثراً في تصوير باطن نفسي لنموذج أبي الفتح.

ومع ما في هذه الجملة القصيرة من ذهاب إلى ما قبلناه، من أن شخصية أبي دلف هي شخصية أبي الفتح الإسكندرى بطل مقامات البديع، فإن فيها على قصرها أحطاء كثيرة هي :

أولاً : قوله : وكان - أي أبو دلف - معاصرًاً لبديع الزمان .

فإن الأولى أن يقال : وكان البديع معاصرًاً لأبي دلف لأن أبي دلف كان قد بلغ الستين على حين كان البديع ابن عامين ، وكان أبو دلف نديم الملوك ومسامرهم ومحدثهم ، والذي تفتح له أبوابهم دون حجاب .

ثانياً : قوله وكان - أي بديع الزمان يستدعيه - أي أبي دلف - إلى مجلسه أليس الأولى العكس ، أيسْتَقِيمُ أَن يَذْهَبْ شِيخُ عَظِيمٍ كَبِيرُ السِّنِّ إِلَى شَابٍ صغير .

ثالثاً : قوله : وكان - أي البديع - يحسن إليه ، - أي إلى أبي دلف . أبو دلف العظيم محدث العلوم وظرفة الدنيا ، أكان في حاجة إلى إحسان شاب صغير فقير .. كلا فقد كان أبو دلف في ثراء مما ناله من عطاء الملوك ورفدهم عندما كان البديع لا يزال شاباً مجدًا طالباً للشهرة وللجمال معاً .

## - ١ -

أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدي الأصل، البصري الشّاء، المتوفى عام ٣٧١ هـ، وصاحب كتاب «الموازنة» بين أبي تمام والبحري ، من أعظم النقاد العرب ، وأضخمهم أثراً في النقد الأدبي ، وأكبرهم توجيهًا لحركة النقد وللنقد .

ولقد ولد بالبصرة ، واختلف إلى حلقاتها العلمية ، ولما بلغ سن الشباب توجه إلى بغداد ، وتردد على مجالس العلماء ، يتلقى عنهم اللغة والنحو والشعر والأدب . ثم عاد بعد حين إلى البصرة كاتبًا للقضاة من بني عبد الواحد ، ويز في الأدب ، وطارت شهرته في النقد ، وانتهت إليه رواية الشعر القديم والأخبار في آخر عمره ، وترك تراثاً كبيراً في اللغة والنقد . وكان فوق ذلك شاعرًا مجيداً ، وتوفي بالبصرة عام ٣٧١ هـ<sup>(١)</sup> . ومن كتبه : الموازنة ، المختلف والمختلف في أسماء الشعراء ، تفضيل أمرى ، الفيس على الجاهليين ، معاني شعر البحري ، الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبو تمام ، فرق ما بين الخاص والمشترك من معاني الشعر ، تبيين غلط قدامة في كتابه «نقد الشعر» ، كتاب ما في «عيار الشعر» لابن طباطبا من الخطأ .

---

(١) راجع ص ٧٥ - ٨٩٣ معجم الأدباء لياقوت ، وقد ترجم لـ السيوطي بإيجاز في كتابه بغية الوعاة

كان الأمدي ذا ثقافة أدبية واسعة، وكان يميل إلى الطبع والذوق. الشعر عنده صحة تأليف، وعذوبة لفظ، وسماحة عبارة، والبلاغة عنده في جمال اللفظ والأسلوب، وموافقتهما للنهج العربي في صحة التأليف وجودته، أما المعاني وسموها والحكمة وروعتها والمخال وجدته، فهي ترف زائد عن الحاجة، ولها نصيب من حسن الصنعة وبهائها، ولكن لا تتوقف عليها البلاغة، وكان يسير في طريق الجاحظ في ذلك كله، فمن قبل كان الجاحظ والنقاد يقولون: «عليك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ<sup>(١)</sup> من حيث كان قدامة بن جعفر ينادي بضرورة العناية بالمعنى بمقدار العناية باللفظ، لأن اللفظ والمعنى عنده عنصران من عناصر الأدب، وكان يجاهر بأن البلاغة في شيئين: معنى مبتدع، ونظم ساحر، وهو لذلك يجعل مادة الشعر المعاني<sup>(٢)</sup>، يعكس الأمدي الذي جعل مادة الشعر هي اللفظ. وكان الأمدي حريراً على تحكيم النهج العربي في النقد، أي تحكيم عمود الشعر، الذي هو في أبسط صورة: كل القيم الفنية التي تحكم في بناء القصيدة ومن ثم نستطيع أن نقول: إن الأمدي هو أعظم النقاد العرب الذين احتكموا إلى عمود الشعر، وجعلوه هو الأساس الأول للنقد والموازنة في الأدب العربي.

## - ٢ -

وكتاب «الموازنة» أثر ضخم خالد في صرح ثقافتنا النقدية، وقد ألفه الأمدي في فترات متقطعة، فهو يذكر في آخر كل فصل أنه سيضيف إلى ما كتب ما سيعثر عليه من أخطاء أو سرقات، وسيلحقه بما كتب، وهو يقرر في أول كتابه أنه سيوازن بين شعر الشاعرين فيما يتفقان فيه في الموضوع والوزن والقافية وإعرابها<sup>(٣)</sup>، ثم يعود فيجعل الموضوع وحده هو أساس الموازنة<sup>(٤)</sup>.

(١) ١٨٢ و ١٨٣ الموارنة - طبع صحيح.

(٢) ص ١٤ سطر ١٦ بقدر التشعر لقدامة

(٣) ص ٢٣ الموارنة

(٤) ص ١٨٤ الموارنة

والموازنة من أمهات كتب النقد الأدبي وأصوله، وهي مصدر من أهم مصادر البيان العربي، ويعتمد عليها علماء البلاغة اعتماداً كثيراً، وإذا كانت هي مصدراً من مصادر البيان، فليس ذلك معناه أنها كتاب بلاغة كما زعم ابن الأثير في كتابه «المثل السائر» حيث أخطأ في ذلك، ثم بنى على هذا الخطأ نقه للموازنة بأنها أغفلت كثيراً من مباحث علم البيان<sup>(١)</sup>.

والكتاب مقسم إلى خمسة أقسام أو خمسة أبواب:

- ١ - فالقسم الأول يورد فيه الأمدي آراء النقاد في شعر أبي تمام والبحترى، ويستقصى رأى المتعصبين لهذا أو لذاك.
- ٢ - والقسم الثاني يذكر فيه الأمدي أخطاء أبي تمام في اللفظ والأسلوب والمعنى.
- ٣ - القسم الثالث يذكر فيه استعارات أبي تمام المستهجنة، وما جاء في شعره من طباق مستكره ومن سوء نظم، وتعقيد تركيب، ووحشى الفاظ. وما وقع فيه من كثرة زحافات، مما جعل دعبلأ يقول فيه: «إن كلامه بالخطب والكلام المتشور أشبه منه بالشعر الموزون».
- ٤ - والقسم الرابع يحلل فيه بإيجاز عيوب شعر البحترى.
- ٥ - والقسم الخامس يوازن فيه بين الشاعرين موازنات جادة في المعانى التي اتفق موضوعها في شعرهما. ويبداً الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر، وأن لهذا الميدان رجاله ومن عنوا بكثرة النظر في الشعر وطول الملابة له، وأنه يجب أن يكون لهؤلاء المرجع في نقد الشعر وصناعته.

ويذكر رأيه في بلاغة الشعر وأنها لا تكون إلا في نظمه وأسلوبه وصحة طبعه. ويقول: إن الذين قدمو البحترى إنما قدموه لأن له من ذلك ما ليس لسواه وإن كانوا لا ينكرون على أبي تمام إجادته في المعانى، وكثرة استنباطه لها، وإنغرابه فيها، ولا ينكرون كذلك مكانه البارز في حومتها.

---

(١) ص ٢ المثل السائر لابن الأثير

ولكنهم يقولون. إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه مع كثرة غرامه بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع، مما ذهب بياء شعره، فصار غير متشابه الأطراف، ولا متألف الروح. فهم يسلّمون له كما يسلم له أنصاره لطف المعاني وعمقها وتنوعها، وبديع الوصف، وجودة التشبّه والتّمثيل، وسمو الحكمة، وإغرار الخيال. وهي ضالة الشعراء جميعاً، والتي قدم بها أمرو القيس في الجاهليّة: ولكن خصوم أبي تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعراً، ويقولون له: فلتكن إن شئت حكيمًا أو فيلسوفاً، أما الشاعر فالبحترى. ويشرح مذهب البحترى في الشعر، مقرراً أنه ليس الشعر ولا البلاغة إلا نظماً وأسلوباً، وإن أبرز عناصرهما النظم والأسلوب. ثم يتّقد بعد ذلك إلى الموازنة بين الشاعرين في بكاء الديار ووصف الأطلال وفي موضوعات أخرى، وكثيراً ما يقف بجانب البحترى منوهاً بشعره وبشاعريته إلى نهاية الكتاب.

### - ٣ -

إن الأمدي في معظم ما كتب كان ناقداً محبطاً بكل أسرار اللغة و دقائق البيان.. ولباقيوت رأي في كتابه «الموازنة»، فهو يقول: «كتاب الموازنة في عشرة أجزاء، وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه، ونسب إلى الميل مع البحترى فيما أورده، والتعصب على أبي تمام فيما ذكره، والناس فيه على فرقتين: فرقة قالت برأيه في البحترى وغلبة حبهم لشعره، وفرقه أسرفت في التقييع لتعصبه، وأنه جد في طمس محسن أبي تمام، وتزيين مرذول شعر البحترى، ولعمري إن الأمر كذلك.. وقد يكون ياقوت مصيباً في رأيه هذا إلى حد كبير.

فالآمدي يرجع إلى ذوقه، فنقده تأثري لا موضوعي، وهو يحكم عمود الشعر في النقد، فيرجع إلى مناهج القدماء في الأداء و يجعلها الحكم في تفضيل الشعراء.

ومع تأثره بآراء النقاد قبله: كالجاحظ وابن سلام وابن قتيبة والأصمسي وابن الأعرابي وخليف وأبي عمرو بن العلاء وسواهم، فإن له شخصيته المستقلة في النقد، ونهجه المعروف في الموازنة.

وأصول الكتاب ترجع إلى آراء نقاد القرن الثالث كما يقول طه إبراهيم في كتابه «تاريخ النقد الأدبي عند العرب»، وقد صرخ الأدمي بذلك في الموازنة، ولكن له فضل التنسيق والإضافة والمنهج والتطبيق والشرح والتحليل والموازنة والحكم. وقد كانت اتجاهات النقاد في القرن الثالث تحكم النهج العربي في النص، فهم يميزون جيد الشعر من رديئه بعرضه على ميزان الطبع وعلى عمود الشعر، وكذلك فعل الأدمي، فاللغة عنده هي كل شيء في النقد، وللعرب طريق خاص فيما ينطقون من أساليب، وفيما ينظمون عليه شعرهم من أوزان، ولهم نهج خاص في مجازاتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وتمثيلاتهم وفيألوان البديع التي يلمون بها في كلامهم من مقابلة وطباقي وجناس، وما إلى ذلك كله. وذلك النهج هو ما يجب على الشاعر أن يتلتفت إليه، ويتبه له، ويتأقى بشعره على طريقه، ويتحدى في أسلوبه حذوه وعلى مثاله، وهذا هو ما سمي بعمود الشعر، وهو ميزان النقد وأساسه عند صاحب «الموازنة». ومن حيث حكم قدامة في نقه عقله حكم الأدمي ذوقه، والنقد عند قدامة موضوعي وعند الأدمي تأريخي والعقل أساس النقد عند قدامة، أما الأدمي فأساسه عنده هو العمودية التي ترجع إلى الذوق ل تستمد منه حكمه عند التطبيق.

#### - ٤ -

ولقد كانت قضية النقد الأولى في القرن الرابع هي الموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحترى، والحكم كذلك على شاعرية أبي الطيب المتنبي وشعره، ومن أشهر نقاد هذا القرن: قدامة بن جعفر صاحب كتاب «نقد الشعر» وقد توفي قدامة عام ٣٣٧ هـ، والقاضي الجرجاني صاحب كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصوصه» وقد توفي الجرجاني عام ٣٩٢ هـ على ما أرجحه، والحاتمي صاحب «الرسالة الحاتمية» في نقد شعر المتنبي، وقد توفي عام ٣٧٣ هـ، وابن وكيع التنسى (٣٩٣ هـ) صاحب كتاب «المنصف في سرقات المتنبي»، وأبو بكر الباقلاني (٤٠٣ هـ) صاحب كتاب «إعجاز القرآن» وممن لهم قدم راسخة في النقد في هذا القرن: أبو بكر الصولي (٣٢٦ هـ) مؤلف كتاب «أخبار أبي تمام» وكتاب «أخبار البحترى»، وأبو الفرج

الاصفهاني (٣٥٦ هـ) مؤلف كتاب «الأغاني»، والصاحب بن عباد الوزير (٣٨٥ هـ) صاحب رسالة «الكشف عن مساوىء شعر المتنبي».

وهكذا نرى أن فريقاً من نقاد هذا القرن عنوا بقضية الموازنة بين الطائين ، وفريقاً آخر عنوا بقضية شاعرية المتنبي ومتزلته في الشعر. ولا شك أن أبو تمام والبحتري والمتنبي هم أمم الشعر العربي وأشهر أعلامه في القديم. وحول المتنبي ألقت كتب كثيرة، وشرح ديوانه فحول العلماء والنقاد: كابن جني والمعربي ومحمد الهروي ، وابن الأفليلي ، والواحدي ، وعبد القاهر الجرجاني ، والتبريزى ، والعكبرى ثم البازجى والبرقوسى فى عصرنا الحديث ، وللشاعر العوضى الوكيل شروح على ديوان المتنبي وقد صدر جزء منها.

وقد عرض الشعالي في الجزء الأول من كتابه «يتيمة الدهر» للمتنبي وشعره بالدراسة والتحليل . ولمحمد بن أحمد المعتزلي راوية المتنبي كتابان عنه هما: «الانتصار المنى عن فضائل المتنبي» ، «التنبية المنى عن رذائل المتنبي» ولابن حسون المصري كتاب «نزهة الأديب في سرقات المتنبي من حبيب» وليوسف البديعى المصرى كتاب «الصبع المنى عن حياة المتنبي» الذي نشره المرحوم الأستاذ محمود مصطفى .

- ٥ -

ومهما كان الأمر فإن الأمدي والقاضي الجرجاني يحتلان في النقد في القرن الرابع مكانة علمية لا تدانيها مكانة أحد، بكتابيهما: الموازنة، والوساطة .

ويجعل القاضي الجرجاني الذوق الأدبي هو الحكم في جميع مشكلات النقد والبيان وقضاياها ، ويرد إلى عمود الشعر كل ما اختلف النقاد عليه من مسائل النقد ومشكلاته . وقد جعل القاضي الجرجاني وساطته حواراً بين أنصار المتنبي وخصمه ، كما جعل الأمدي موازنته حواراً بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري ، ويصطفيغ الحوار عند الأمدي بصبغة عقلية ، كما يصطفيغ الحوار عند الجرجاني بصبغة الذوق ، والغرض الأول عند الجرجاني

هو إنصاف المتبني من خصوصه ومن أجل ذلك حتم في أول كتابه تجريد الحكم الأدبي على الشاعر وشعره من كل الاعتبارات الشخصية.

ولقد كفل الأمدي والقاضي الجرجاني هامة النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري بأكاليل المجد والعظمة، وعبرية الرجلين جعلت آراءهما في النقد ذات خطر كبير، وأثر بعيد في تطوره ونهضته وازدهاره، كما كانت أقوالهما النقدية بمثابة الحجة للنقد عند اختصاصهم في قضايا الأدب والشعر والبيان.

وإن التراث العربي ليتعذر كل الاعتزاز بهذين العلمين والرائدين الجليلين اللذين سارا بالنقد شوطاً بعيداً في طريق نهضته.

ويحفل كتاب الموازنة، كما يحفل كتاب الوساطة بالكثير والجديد من النظريات المبتكرة في الأدب والشعر والبيان والنقد.. وذلك مما يرفع بأهمية الكتابين في تراثنا النقدي إلى منزلة عالية.

فالموازنة من أجل الكتب التي ظهرت في النقد في القرن الرابع. وكذلك في الموازنة الأدبية وقد وضع هذا الكتاب أساساً قوياً لفقد الشعر وللموازنة بين الشعراء. وبعد بحق من أمهات كتب النقد الأدبي وأصوله. وهو كذلك مصدر من مصادر البيان والبلاغة في تراثنا الأدبي. ونحن حين نقول: «إنه مصدر من مصادر البيان والبلاغة» لا نعني أنه كتاب بيان وبلاغة كما زعم ابن الأثير ذلك في كتابه المشهور «المثل السائر»، فأخذنا، ثم بنى على هذا الخطأ نقده للكتاب بأن صاحبه قد أهمل كثيراً من مباحث علم البيان لم يستوف بحثها أو لم يذكرها أصلاً<sup>(١)</sup>.

ويؤكد الأمدي وكتابه أنه لا يرى بلاغة الشعر إلا في نظمه وأسلوبه وصحة طبعه. مقرراً أن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأن له من ذلك ما ليس لسواء، وإن كانوا لا ينكرون على أبي تمام إجادته في المعانى وكثرة استبطاطه لها وإغرابه فيها، ولكنهم يقولون: إن اهتمامه بمعانى أكثر من اهتمامه بتقاديم المفاظة، مع كثرة غرامه بالجناس والطبق والاستعارة والمقابلة

---

(١) المثل السائر

وسوهاها من ألوان البديع، مما ذهب بماء شعره، فصار غير متشابه الأطراف،  
فهم يسلمون له ضالة الشعراء جميعاً من لطف المعاني وعمقها وتنوعها،  
وبديع الوصف، وجودة التشبيه والتلميل، وسمو الحكم، وإغرار الخيال،  
وهي التي قدم بها أمرؤ القيس في الجاهلية.

ولكن خصوم أبي تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعراً،  
ويقولون له: فلتكن إن شئت حكيناً، ولندعك إن أردت فيلسوفاً، أما الشاعر  
فالبحترى، وما دام الشعر عند الأمدي نظماً وأسلوباً فلا بد أن يكون البحترى  
هو المقدم عنده. وهو الشاعر الأثير لديه.

والأمدي مع بلاغة اللفظ والأسلوب والنظم فالبلاغة عنده وقف على  
ذلك، أما المعاني والحكم والأخيلة فذلك الترف الزائد عن الحاجة، والذي إن  
ألم به الشاعر أو الخطيب فقد زاد في حسن صنعته وبهائها، وإلا فالصنعة  
باقية قائمة بنفسها ومستعينة بما سواها، كما يقول الأمدي في الموازنة. وهو  
في هذا متأثر بالجاحظ ومذهبة، وكان الجاحظ يقول: «عليك أن تجتنب  
السوقى والوحشى، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في  
التخلص إلى غرائب المعانى، وفي الاقتصاد بلاغ<sup>(١)</sup>، ولكنه بيان قدامة  
ومنهجه الذى كان ينادي بضرورة العناية بالمعنى كما نعني باللفظ، ويجاهر  
بأن البلاغة في شيئين: معنى مبتدع، ونظم بلigh.

وكان ابن قتيبة يشرك كلاً من اللفظ والمعنى في البلاغة، ويجعلهما  
عنصرين مستقلين استقلالاً تاماً، من حيث مال قدامة إلى أن بلاغة كل منهما  
ضرورية في بلاغة النموذج الأدبي، وجاء ابن طباطبا في «عيار الشعر» فذهب  
إلى أن للشعر جسداً وروحأً فجسده النطق - أي اللفظ، وروحه المعنى<sup>(٢)</sup>،  
وهو ما ذهب إليه ابن رشيق في كتابه «العمدة»، فليس اللفظ عندهما  
بمفصول عن المعنى، ولا المعنى بمفصول عن اللفظ، فينهمما وحدة ما في  
النص الأدبي، وجاء عبد القاهر الجرجاني بعد فأكمل أن اللفظ والمعنى هما

---

(١) ١/١٧٩ البیان والتسیین للجاحظ - تعليق السدوی - طبع التجاریة بالقاهرة.

(٢) ٤ و عیار الشعر لابن طباطبا

وجهان لنموذج واحد. فلا يفهم اللفظ بدون معنى، ولا يفهم المعنى بدون لفظ، ففيهما وحدة عضوية كاملة، وذلك ما شرحه شرحاً واسعاً في نظرية النظم التي أفضى في شرحها في كتابه «دلائل الإعجاز».

إن الأمدي يطبق في النقد نظرية عمود الشعر العربي تطبيقاً كاملاً، فالبحترى عنده هو الشاعر لأنه يحرص على كل القيم الرفيعة التي شرعها وحرص عليها الشعراء القدماء، من أمرئ القيس إلى ابن هرمة وبشار، في اللفظ والمعنى والأسلوب والخيال، وفي اللغة والوزن والصورة الشعرية، وغير ذلك، لا يخرج عليها، ولا يبعد عنها، مع صحة الطبع، وجودة السبك، وقوه الملكة.

وفي موازنة الأمدي بين الشاعرين أبي تمام، والبحترى، يطبق أبو القاسم الأمدي نظريته هذه (العمودية، أو عمود الشعر) تطبيقاً واسعاً وجريئاً وثرياً على شعر الشاعرين، فيرى البحترى يسير مع القدماء في أدائهم وأساليبهم وأخلياتهم ومعانيهم وصورهم، ويرى أبي تمام يبعد عن القدماء في ذلك جله بعضاً كثيراً، وهو في كل ذلك خاضع لمنهج، ومتاثر بنظرية، ومطبق لمذهب، ومن أجل ذلك أثني على البحترى، وقسما على أبي تمام، حتى لقد رمي بسيبه بالتعصب على أبي تمام والانتصار للبحترى.

يقول الأمدي في مطلع موازنته: «أكثر من شاهدته ورأيته من رواة أشعار المتأخرین يزعمون أن شعر أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، لا يتعلّق بجيده جيد أمثاله، وردّيه مطرح مرذول «فلهذا كان مختلفاً لا يتشابه، وأن شعر الوليد بن عبيد البحترى صحيح السبك، حسن الديباجة، وليس فيه سفساف ولا رديء ولا مطروح، ولهذا صار مستوياً، يشبه بعضه بعضاً».

ثم يقول بعد ذلك:

«ولست أحب أن أطلق القول بأيّهما أشعر عندي لتباین الناس في العلم، واختلاف مذاهبهم في الشعر. ولا أرى أن يفعل ذلك، فيستهدف لذم أحد الفريقين، لأن الناس لم يتتفقوا على أي الأربعة أشعر: لا في امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى، ولا في جرير والفرزدق والأخطل، ولا في

شار ومروان والسيد<sup>(١)</sup>، ولا في أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم والعباس بن الأحنتف : فإن كنت - أدام الله سلامتك من يفضل سهل الكلام وقربيه ، ويؤثر صحة السبك ، وحسن العبارة ، وحلو اللفظ ، وكثرة الماء والرونق ، فالبحترى أشعر عندك ضرورة ، وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعالي الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ، فأبُو تمام عندك أشعر لا محالة . فاما أنا فلست أفضح بفضيل أحدهما على الآخر ، ولكن أوازن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقنا في الوزن والقافية وإعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ، ثم أقول : أيها أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ، ثم أحكم أنت حينئذ إن شئت على جملة ما لكل واحد منها ، إذا أحطت علمًا بالجيد والرديء<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد ذلك أيضًا فيقول :

«أنا أبتدىء بذكر مساوى هذين الشاعرين ، لأنتم بذكر محاسنهم ، وأذكر طرفاً من سرقات أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره ، ومساوى البحترى فيأخذ ما أخذه من معانى أبي تمام ، وغير ذلك من غلطه في بعض معانيه ثم أوازن من شعريهما بين قصيدة وقصيدة ، إذا اتفقنا في الوزن والقافية وإعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى ، فإن محاسنهم تظهر في تضاعيف ذلك . ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منها ، فجوده ، من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه . وأفرد باباً لما وقع في شعريهما من التشبيه ، وباباً للأمثال ، أختتم بهما الرسالة . ثم أتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما»<sup>(٣)</sup>.

ومذهب الأمدي في الميل إلى بلاغة اللفظ وجودة السبك وصحة النظم جعله يرى أن الشاعر البحترى ، وأن أبا تمام والمتنبي وأضرابهما حكماء . على أن الأمدي فيما سار عليه من مناهج في النقد والموازنة متأثر بآراء النقاد قبله فلم يكن نقدthem إلا تحكيمًا للعمودية وللنهج العربي السليم فيما

(١) ها نقص ، والكلام صحته والراعي ، ولا في شار ومروان والسيد وابن هرمة لأن الأربعه من الحاھلییین والمحصرمیں والإسلامیین والصحابیین والمولیین حمیعاً فلا بد أن يكون هناربع شعراً من كل طبقة من هؤلاء

(٢) ٦ - ١ الموازنة (٢) ٧ - ١ الموازنة

(٣) تاريخ القدر الأدبي عند العرب لطه إبراهيم

ينقدون، فأبو عمرو بن العلاء وحماد وخلف والأصمعي وابن الأعرابي وسواهم، كانوا يعرضون ما ينقدونه على ميزان الطبع ويحكمون نهج العرب في بلاغتهم في الموازنة. وكذلك فعل الأ müdّي، برجوعه إلى مناهج العرب في الأداء والأسلوب والنظم، فيرد ما ترده، ويقبل ما تقبله، فللعرب طريق خاص فيما ينطقون به من أساليب ونظم، ومن أفكار ومعان وأخيلة وصور وأوزان. وذلك النهج العربي الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه ويترشد به، ويحتذى حذوه، وينظم شعره على مثاله، ثم هو ميزان النقد، وهو عمود الشعر فالناقد يرجع إليه في الحكم على الشعر، وفي كل مشكلات الأسلوب والمعاني والأخيلة والصور الشعرية. ولا شك في تأثير الأ Müdّي بآراء النقاد قبله، فهو يعتمد على آرائهم، ويستدل بحکومتهم في النقد، حتى لقد قيل: إن كتاب «الموازنة» صورة لأراء النقاد قبل عصر الأ Müdّي، وأن أصول كتاب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن الثالث ومئولفيه<sup>(١)</sup>، وقد صرّح الأ Müdّي بما يدل على ذلك في أكثر من موضع من كتابه، وفضل الأ Müdّي إنما هو في تدوين هذه الآراء وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها.

وإذا كانت موازنات الأ Müdّي بين الشاعرين الخالدين، أبي تمام والبحتري، قد وضعت للموازنة وللنقد أصولاً جليلة، اهتدى بها النقاد على طول العصور، فإنها كذلك وضعت أصولاً أخذتها البلاغيون في القرن الخامس الهجري.

ولقد تأثر القاضي الجرجاني في كتابه «الوساطة» بمنهجه الأ Müdّي في كتابه «الموازنة» تأثراً كبيراً، ولقد كانا متعارضين، إذ توفي القاضي الجرجاني على ما نرجح في عام ٣٩٢ هـ، وفي رواية في عام ٣٦٦ هـ، وكان القاضي الجرجاني يعيش في جرجان، بينما كان الأ Müdّي في البصرة، ولقد حكم القاضي الذوق في نقهته كما حكمه الأ Müdّي، ومآل الحكم في النهاية عند الرجلين هو «عمود الشعر» و يجعل القاضي الجرجاني كتاب «الوساطة» حواراً أدبياً بين أنصار المتنبي وخصومه، كما جعل الأ Müdّي «الموازنة» حجاجاً علمياً

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عد العرب لطه إبراهيم

بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري. ويقدر هذان الناقدان مبدأً كبيراً الأهمية، وهو أن الشاعر الجاهلي، فضلاً عن الإسلامي والمحدث، يخطئ في شعره.

كما نهجاً منهجاً واحداً في بحث السرقات الشعرية وبعض ألوان البديع.

وقد وفى الأمدي الموازنة حقها، ففصل أخطاء الطائين، ومظاهر إجادتهما، وزان بينهما في بسط وطول آناء، وكان في ذلك أكثر بلوغاً للغاية من صاحب الوساطة.

ولا يزال «مذهب عمود الشعر» عند الأمدي في النقد جديداً أو كالجديد كما كانت نظرية البديع في النقد عند ابن المعتز، ونظرية النظم عند عبد القاهر وبذورها عند الجاحظ جديدة كل الجدة كذلك. ومنذ القرن الثاني الهجري عرف الأصممي بمقياسه في فحولة الشاعر وابن سلام بمقياسه في طبقة الشاعر، وقدامة بمذهبه في النقد الموضوعي، وابن طباطباً بمنهجه في النقد التأثري . فإذا كان كل هؤلاء القادة الكبار قد أسهموا في وضع موازين علمية للنقد في القرن الرابع الهجري، أثرى بها الأدب ونقده والبيان والبلاغة، ثراءً واسعاً: فإن الأمدي ونظريته النقدية في عمود الشعر لا يزالان يكتسيان بالجدة والابتكار والعبقرية .

والأمدي من الأعلام الخالدين، في تراثنا النقدي الأصيل، ويقول فيه الأستاذ السيد أحمد صقر محقق كتاب «الموازنة»: إنه أعظم نقاد الأدب العربي، وإنه إمامهم الذي لا يضارع، وإنه في تاريخ النقد أمة وحده، في دقة منهجه، وعمق فكره، وحسن عرضه، وصناعة أسلوبه<sup>(١)</sup>.

---

(١) ٢ ج ١ المواربة.

## **رسالة الصاحب بن عباد والمتنبي<sup>(١)</sup>**

— 1 —

كان في المتنبي كبير و فهو ، وكان يعتد كل الاعتداد بنفسه و فنه ، حتى رأى شعره يتبوأ في الشعر العربي عروش الإمارة التي نشدتها لنفسه فأخفق و حرم منها :

إن هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك  
ورأى أهل الجاهلية من الشعراء تقصير عن مداده:  
ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولا سمعت بسحري بابل

وبعد أن بلغ من المجد الأدبي منتهاه، كان أبلغ شحيم بشعره على رجالات العالم الإسلامي وشخصياته البارزين، فلم يمدح أحداً إلا في القليل النادر من الذين تربطهم بالشاعر صلات خاصة، أو من كان يسعى لديهم في سبيل تحقيق مطامعه في الإمارة.

وفي عام ٣٥٣ هـ كان المتنبي في بغداد فأخذ يفاوضه رجالاتها كالصابي سنة ٣٨٣ هـ والمهليي الوزير في أن يقلدهم مدحه من مدائنه فاعتذر وانتظر معز الدولة الملك وال الخليفة العباسي أن يشيد أبو الطيب بدولتهم فلم يفعل ، فأثار وجود المتنبي مشكلات سياسية وأدبية ، خرج من مأزقها أبو

(١) للصاحب كتاب «الأمثال السائرة من شعر المتنبي» (١١٥٠-٢٤٥٠) أدب مخطوط - دار الكتب المصرية

الطيب، فيم وجهه شطر شيراز حيث عضد الدولة، ينشد منه ولاية يتقلدها أو عرشاً يتبوأه. وطمع الصاحب بن عباد في زيارته له بأصفهان، فكتب إليه يرحب بقدومه ويعلن استعداده لأن يشاطره ماله، ولكن أبو الطيب أبي أن يقلد شعره شاباً ليس في يده تحقيق آماله البعيدة ومطامحه الواسعة، فرفض عرض الصاحب شاخساً إلى عضد الدولة، لنفس غاياته، لا رغبة في إشباع شهواته:

ول السلاطين من تلاوها والجأ إليه تكن حدياها

وكان رفض المتنبي اليد التي مدها الصاحب إليه باعثاً على عداوة «ابن عباد» له، ونقده إياه، وحمله الأدباء والكتاب على ثلبه ومهاجنته بسلاح عنيف من أسلحة النقد الأدبي الجائرة، ألف الصاحب من عباد بياущ الخصومة رسالته الصغيرة العجم الكبيرة المغزى والقيمة: «الكشف عن مساوىء المتنبي في شعره» ينقد فيها شعره سواء في اللقط والمعنى أم الوزن والقافية أم الأسلوب والخيال أم الفكرة والاتجاه. وكان الصاحب لاذعاً عنيفاً في نقده للمتنبي، وتهكمه بشعره، غير آبه لجانب الإحسان والروعة في شعره. ولقد تجاهل الصاحب - عصبية منه على المتنبي - نفسية الشاعر وطبعه ومؤثرات الدم والروح والبيئة والأمال والاتجاه فيه، وأخذ يحكم عليه أحکاماً قاسية لا هواة فيها ولا رحمة، وهو في هذا الاتجاه ينافق الجرجاني الذي فهم النقد على أنه البحث في هدى العدالة والإنصاف عن مكانة الشاعر الأدبية على ضوء خصائص فنه وميزات شعره، وزون ما زل فيه الشاعر وما أجاد فيه بقسطناس مستقيم عادل.

نهج الصاحب في نقده صورة لاتجاه أستاذه ابن العميد فيه، مما عبر عنه الصاحب في رسالته بقوله: «كان ابن العميد يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضي بهذيب المعنى حتى يطالب بتخدير القافية والوزن»<sup>(١)</sup> فهو نقد لمعنى الشاعر، وطبعه، وذوقه الاجتماعي، ونقد لأسلوبه في صياغته، و اختيار الفاظه، وحروفه، وقافية، وموسيقاه.

---

(١) الكشف

أخذ الصاحب على المتنبي من حيث المعنى كثيراً من الزلات، كعامة بعض معانيه، وقبحها والإغراق فيها، وتعمد الغموض في الغوص عليها، سواء بإبعاد الاستعارة والاسترسال فيها، أم التعقيد المعنوي بالتلغلل في غير وضوح إلى خفاياها، كما أخذه بعدم الملائمة بين المعنى والمقام، أو بين المعنى والذوق والعرف، وإسرافه ومغالاته، وخروجه على مذهب الشعراء، وبعدم التلاؤم بين أجزائها، وبقبح أخذه عن الشعراء كالبحتري وأبي تمام، مع إنكار منه ليدهم عليه، وبقبح جمعه بين التشبيهات، وبفحشه في السخرية، وفجوره في الكنایة، واستهانته بقداسة العقيدة.

ثم هو يأخذ عليه خروجه على ما تفرضه موسيقى الشعر وأوزانه من قيود وتعسفه بإثارة القوافي الصعبة.

كما يأخذ عليه من حيث الأسلوب كثرة تكرار الحروف الموجبة لتتكلف الطبع ودمامة الثقل، و اختياره الألفاظ القيحة، أو المتنافرة الشادة، أو الغريبة، أو الملحون فيها بعيدة عما تقبله الأذواق، سواء بإشارة اللغات الشادة أم بالتعبير بالألفاظ يخطئ فيها نهج الوضع اللغوي أو الاشتراق التصريفي، أو بالتهجم على ضرورة الشعر بعيدة عن روح الشعر. كما يأخذ عليه كثرة تكرار الصفات المجموعة، والألفاظ المتتجانسة، ومجافاة أسلوبه لروح الشعر بقبح ابتدائه وعدم صقل طبعه الشعري لما يجمعه من الأسماء أو لما يشقق فيه من جناس، وسخف أسلوبه وركبة صنعته وتكلفه في تعسف التعبير وتعقيد النظم والاضطراب فيه، وإبراد كثير من الاصطلاحات العلمية أو الأساليب الشرطية بعيدة عن جمال الشعر، ويتهاكم بأساليبه التي استمدتها من الحياة الواقعية الجافة.

وذكر أن المتنبي يضئل أمام أبي تمام والبحتري في صياغة ما كان يقتبس مهما من معان، كما يضئل بجانب الفرزدق في الفخر.

وكانت غاية الصاحب من وراء ذلك كله هدم مهد المتنبي الأدبي، وتشويه سمعته كشاعر ممتاز عن شعراء العربية وإن كان الصاحب وصل إلى بعض ما أراد في حياة أبي الطيب، فإن مجده قد عصف بكل ما أراده خصومه، فوهب ديوان الشهرة ومجد الخلود.

وقد نقد ابن رشيق في عمدته في موضع مفرقة منها آراء للصاحب في  
نقده فرد عليه مثلاً نقده لبيت المتنبي :

صلوة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال<sup>(١)</sup>

والإيصال يلزمنا أن نقول: إن نقد الصاحب كله لم يكن مدفوعاً بيد  
الهوى، أو بمنأى عن العدالة والإيصال، وإن كان الصاحب يتجاهل لغاية في  
نفسه شخصية الشاعر وروحه وأثرهما في فنه، فنراه مثلاً ينقد بيت أبي  
الطيب:

لو استطعت ركب الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

نقداً لاذعاً<sup>(٢)</sup>:

وللناقد حق السخط على هذا البيت في بادئ الرأي، ولكن النظرة  
الحصيفة تدعنا نرفع عن الشاعر في بيته هذا إصر كل مؤاخذة، فهذه هي  
روح الشاعر - المتهكمة الساخرة بالناس الساخطة على المجتمع الذي لم يبن  
فيه آماله، المعترضة ب نفسها وشخصيتها - تتجلّى في البيت في صورة واضحة  
رائعة، وهل أبلغ في السخرية وأمعن في التهكم، من اتخاذ الناس مطايماً  
يركها الشاعر إن استطاع ليصل عليها إلى ممدوده؟ .

إن من الغريب حقاً أن يكون فن شاعر كأبي الطيب رائعاً كل الروعة  
بالغاً نهاية القوة والسحر، حين ينظر إليه كله كأثر أدبي حافل، فيحكم على  
قصيدة من قصائده، أو على مجموعة منها أو عليها كلها، حينئذ يرتفع أبو  
الطيب إلى الذروة ويتهي شعره إلى الغاية. أما إذا قطعت أوصاله فنظر إلى  
بعضه كحرف في الكلمة من كلماته، أو لفظة في بيت من أبياته، أو بيت في  
قصيدة من قصائده، أو خذ الشاعر وحوسب حساباً غير يسير ولقد تعمد  
الصاحب أن ينظر إلى فن أبي الطيب هذا النظر الجزئي ، محفياً وراء نقده ما  
في نفسه من إعجاب وتقدير. وقد شاء الجرجاني في وساطته ألا يترك هذه  
الناحية أو يغفلها فطالب بالحكم على فن أبي الطيب كله أو جله أو كثير منه ،

(١) ١٤٧ ح ٢ العدة

(٢) ٢٦ الكشف

لا على جزئياته الصئيلة التي لا تحط زلاته فيها من مكانته ومتزنته، وعرض  
كثيراً من روائعه طالباً الإنصاف الحكومة والعدالة في الرأي.

- ٢ -

هذا هو حديثنا عن رسالة الصاحب، ولكن في أي تاريخ ألف الصاحب رسالته؟

يقول الصاحب في مقدمة «الكشف»: وأنا منذ عشرين سنة أجالس العلماء والشعراء والأدباء، وعشرين سنة أخرى آخذ عن رواة المبرد وأصحاب ثعلب» فهو إذاً حين تأليف رسالته كان قد قضى أربعين سنة في الدراسة ومحاورة العلماء، فإذا كان بدء دراسته في العاشرة من عمره فتكون سنه حين ألف رسالته خمسين سنة، وإذا كان ميلاده عام ٣٢٦ هـ فيكون تاريخ تأليفها سنة ٣٧٦ هـ، وكان للباحث الحق في أن يعتمد على الاستنتاج لولا أن الصاحب يقول إثر ذلك: «فما وجدت من يعرف الشعر حق معرفته، وينقده نقد جهابذته، غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل ابن العميد، أدام الله أيامه» فابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ كان إذاً لا يزال حياً حين كتابة الصاحب رسالته، فتكون قد ألفت قبل عام ٣٦٠ هـ، ونحن وإن وقفتا بين نصين متعارضين، إلا أن دلالة الثاني لا تحتمل شكاً أو تأويلاً، وكثيراً ما يبالغ الإنسان في تقدير سنه، لا سيما في معرض الزهو العلمي، ف تكون هذه الرسالة قد ألفت والصاحب قد تخطى حدود الشباب، وذلك بعد وفاة المتنبي أي بعد عام ٣٥٤ هـ. وقبل عام ٣٦٠ هـ.

# الوساطة

للقاضي الجرجاني

- ١ -

عاش القاضي أبو الحسن الجرجاني، علي بن عبد العزيز، في القرن الرابع الهجري، في ظلال دولة بنى بويه، وفي عصر ابن العميد، والصاحب ابن عباد، والخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، وأبي حيان التوحيدي، والشريف الرضي، وأبي الطيب المتنبي. وأبي فراس الحمداني وأبي دلف الخزرجي مسعر بن مهلهل، وغيرهم من أعلام الفكر الإسلامي والأدب العربي . . . ولد في جرجان، وهي موطن خالد من مواطن الثقافة الإسلامية في إيران، وسلك السبيل التي كان يسلكها الشباب آنذاك في مثل هذه البيئة العلمية الحافلة، فأخذ في دراسة علوم الدين واللغة والأدب، وتنقل بين جرجان والري وبغداد والشام، حتى نضحت تفاته وعقليته، ووطد العلم والأدب الصلات الفكرية بينه وبين الصاحب بن عباد الوزير، فاشتد اختصاصه به، وحل منه محلاً بعيداً في رفعته، كما يقول التعاليبي في اليتيمة. ومدح الجرجاني صديقه الوزير بقصائد بلغة، وقلده الصاحب قضاء جرجان، ثم رفعه إلى منصب قاضي القضاة بالري عاصمة الملك الذي يسموه ابن عباد، واستمر في القيام بأعبائه حتى بعد وفاة الصاحب عام ٣٨٥ هـ . . وتوفي الجرجاني عام ٣٩٢ هـ . وذكر الشيرازي في كتابه «طبقات الشافعية» مؤلفات عده له في الفقه .

وينم شعر القاضي عن اعتزازه بنفسه، واعتداده بشخصيته، يقول فيما يقول:

وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْخَضْرَوْعَ هُوَ الْفَقْرُ  
عَلَى الْغَنِيِّ : نَفْسِي الْأَبِيَّةُ وَالدَّهْرُ  
مَوْاقِفُ خَيْرٍ مِّنْ وَقْوَافِي بَهَا الْعَسْرُ  
بِنَفْسِ فَقِيرٍ كُلُّ أَخْلَاقِهِ وَفِرْ  
وَقَالُوا . تَوَصَّلُ بِالْخَضْرَوْعِ إِلَى الْغَنِيِّ  
وَبَيْنِي وَبَيْنِ الْمَالِ بَابَانِ حَرْمَانِ  
إِذَا قِيلَ هَذَا الْيَسْرُ عَائِنَتْ دُونَهُ  
إِذَا قَدَمُوا بِالْخَيْرِ قَدَمَتْ دُونَهُمْ  
كَمَا يَنْمِ عنْ نَبِيلِ عَوَاطِفِهِ، وَجَمَالِ طَبِيعِهِ، وَسُعَةِ ثَقَافَتِهِ فِي الْأَدْبِ.

ترك البداوة التقليدية في الشعر، وأنس إلى رقة الأسلوب وعذوبته. وله ديوان ذكره الشيرازي في «طبقات الشافعية»، وابن خلkan في «وفيات الأعيان»، ويقول التعاليبي في القاضي الجرجاني: «كان يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى».

وعاصر الجرجاني حركة النقد التي قامت آنذاك حول شعر المتنبي. ولما ظهرت رسالة الصاحب بن عباد، الكشف عن مساوى المتنبي في شعره، رأى فيها جوراً على الحق، وإسرافاً في الخصومة، وشططاً في النقد، فألف كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» ينصف فيه المتنبي من خصومة الصاحب وهذا الكتاب يعد سجلأً أدبياً هاماً لحركة النقد في القرن الرابع، ولا يزال كما كان مصدراً من مصادر الثقافة الأدبية...

## - ٢ -

«الوساطة» أصل من كتب الأدب، وكان لظهور هذا الكتاب دوي شديد في الأدب والشعر والنقد، وحسبنا رأي التعاليبي وابن خلkan فيه.. . ويعده الباحثون من القدامى والمعاصرين من أروع المؤلفات في النقد.. . وهو يدل على فهم عميق للشعر، وإلمام واسع بكل تفاصيل النقد والأدب.

يجعل الجرجاني الذوق الأدبي هو الحكم في مشكلات النقد والبيان، ويحدد عناصر منهجه النقدي فيقول: « وإنما تفاضل العرب بين الشعراء في الجودة والحسن ، بشرف المعنى وصحنته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلّم

السبق فيه - أي في الشعر - لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فاغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته.

ويرجع الجرجاني في النقد إلى مذاهب الجاحظ والأمدي وأصحاب الثقافات الأدبية الخالصة، مؤثراً أحکام الفطرة والذوق الخالصين، دون اعتداد بمنهج قدامة في النقد ومناهج المتألهين لقدامة.

وفي الموازنة يعرض الجرجاني كل ما أجاد أو زل فيه الشاعر، ثم يوازن ويفاضل، مع الرجوع إلى حكم الذوق الذي ثقته المران والبحث، وذلك ما سار عليه أئمة النقد والبيان، فما النقد - في أهم مذاهبه - إلا دراسة الأشياء وتفسيرها، وتحليلها وموازنتها بما يشابهها أو يقابلها، ثم الحكم عليها بيان درجتها وقيمتها، والنقد الأدبي عند المحدثين هو التقدير الصحيح لأي أثر أدبي وبيان قيمته ودرجته بالنسبة إلى سواه

سلك الجرجاني في الوساطة مسلك الأمدي في «الموازنة» فجعلها حواراً بين خصوم المتنبي وأنصاره، كما جعل الأمدي كتابه «الموازنة» حواراً بين أصحاب الطائبين - أبي تمام والبحري - والغرض الأول للجرجاني في الوساطة إنصاف المتنبي من خصومه، لذلك حتم في أول كتابه تجريد الحكم الأدبي على الشاعر من الاعتبارات الخاصة.

وكما اعتد الأمدي في الموازنة، بعمود الشعر وحكمه في مسائل النقد، واستفتاه في معرض الموازنة، صنع مثل ذلك أيضاً القاضي الجرجاني في «الوساطة».

ويذكر الجرجاني المتعصبين للمتنبي وعليه، وعقوق الفريقين له أو للأدب فيه، ويوجب الاعتراف بالفضل لذويه، معدراً للشعراء عما يقعون فيه من أخطاء، فأي شاعر كان بمنجاهة من الخطأ؟ وهل سلم منه شاعر من الجاهليين أو الإسلاميين؟ وما دام الشعر علماً من علوم العربية قوامه الإحسان فيه، من الطبع والرواية والمران والذكاء، فأي مانع من تفاوت ملكات الشعراء، وتبادر منازلهم فيه؟ أيًّا كانوا، وفي أي عصر يعيشون. وإن كان للبيئات الأدبية العامة والخاصة أثرها في تلوين الشعر بألوان تختلف جزالة ورقه، فالشعر الجاهلي في قوته وجزالته، وشعر المحدثين في رقته

وعذوبته، يخضع كل منها لما يخضع له الآخر من تأثير بعوامل البيئة والزمن. وما الرقة التي نراها أحياناً في الشعر الجاهلي إلا صورة لاختلاف الأخلاق والطبع والأذواق وتركيب الخلق ولون المعيشة، وهي أكثر ما تتأثر من قبل العاشق المتييم، والغزل المتهالك، ويدعو الجرجاني المحدثين إلى الرقة والعذوبة، وإلى تنزيل الجزاله والرقة منازلهم بحسب المعاني والأغراض والموضوعات، كما يدعوهم إلى ترك التكلف، والاسترسال مع الطبع. ويشيد بشعر البحتري وطبعه، وبما يشاكله من نسيب جرير في الإسلاميين وامرئ القيس في الجاهليين. ويطرح الجرجاني اعتقاده بالبديع. أو جعله أساساً لجودة الشاعر في شعره، فهو لا يبالغ بالبديع، ولا يحتفل بالصنعة، التي ألم بها القدامى، وطلبها المحدثون، ويناقش الجرجاني خصوم المتنبي. ثم يوازن بينه وبين سواه من المحدثين: كابن الرومي وأبي نواس وأبي تمام، موازنات رائعة جميلة. ويتحدث عن السرقات الشعرية. وعما ينكره خصوم المتنبي عليه في المعاني والألفاظ والأساليب، وفي مذاهب الشعر: أحاديث رائعة عميقه ساحرة.

وموقف الجرجاني من السرقات الشعرية، التي رمى بها المتنبي خصومه والحاقدون عليه، من أنها لا تغضن من شعر المحدثين، لسبق المتقدمين إلى المعاني، ولكتلة ما توارد خواطيرهم مع خواطير السابقين، ولا خفائهم أمر السرقة بشتى الأساليب لزيادتهم عليهم في أحيان كثيرة، بما يأتون به من زيادة وتأكيد وتعریض وتصريح واحتجاج وتعليق، موقف جميل ويرى وجوب الآنا في رمي شاعر بالسرقة، حتى لا يخرج الناقد عن مجال الإنصاف.

وموقفه مما ينكره خصوم المتنبي عليه من أخطاء في المعاني والألفاظ والأساليب، وفي مذاهب الشعر وأغراضه، موقف الناقد المعتدل، الذي يبحث ويتأنى، ويدقق ويعرض، وينصف الشاعر من خصومه وأنصاره على السواء.

ناقشت خصوم المتنبي فيما رموه به من التقصير واستهلاك المعنى، وغموض المراد، مما يرجع إلى بعد الاستعارة والإفراط في الصنعة، ورأى أنه لن يكون أكثر من الفرزدق تعقيداً وغموضاً.

وناقشهم فيما رموه به من المبالغة والإفراط، ورأى أن ذلك مذهب عام في المحدثين، فهذا الإفراط عيب مشترك، وذنب مقتبس، وموقع أبي الطيب منه موقع أي رجل من المحدثين.

وناقشهم كذلك فيما اتهموه به من إبعاد الاستعارة، والإغراب فيها، ورأى أن عذر المتنبي في ذلك هو عذر سواه من الشعراء، الذين أبعدوا في الاستعارة إبعاده، وعليينا أن نحمل ما يجيء من كلامه وكلام المحدثين على وجوه تقربهم من الإصابة، وأن نلتمس لهم شتي المعاذير.

وناقش الجرجاني خصوم أبي الطيب فيما عابوه به من أخطاء أخرى مناقشة نقدية عميقه باللغة غاية الروعة والجمال.

فمما أنكروه عليه قوله :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنما      فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

قالوا: إن «ما» ليست للتشبيه، وقد سئل أبو الطيب في ذلك فذكر أن «ما» تأتي لتحقيق التشبيه، نحو ما هو إلا الأسد.. ويرد صاحب الوساطة على أبي الطيب فيقول: إن التشبيه بما محال، و«ما» لم تتعد موضعها من النفي، ولنست للتشبيه ولا لتأكيده.

وقد ينكرون على أبي الطيب قوله: «فما أحد فوقى ولا أحد مثلى»، ولكن هذا يدل على شعور المتنبي بالعظمية البالغة، وهو يعبر عن تجربته هذه خير تعبير.

وينكرون على أبي الطيب قوله في كافور:

يفضح الشمس كلما زرت الشمس      بشمس منيرة سوداء  
لأن الشمس لا تكون سوداء، والإنارة تضاد السواد، فيرد عليهم الجرجاني بأنه لم يجعله شمساً في لونه حتى يستحيل عليه السواد، وقد يكون شبهه بالشمس في العلو والرفعة ونباهة الشأن، أو في النفع والجلالة. ثم يقول في إنصاف: غير أن في الأسلوب بشاعة وبعداً عن القبول

وهكذا ينافش القاضي الجرجاني وينقد ويحكم .  
هذا هو القاضي الجرجاني ، ناقداً امتدأ ثرثه في كل ما ظهر بعده من  
كتب في النقد والبيان ، وأديباً ارتفع بذوقه إلى منزلة عالية في الأدب ، وكان  
مناراً للأدباء من بعده .

إن لكتابه «الوساطة» الكثير من المزايا التي لا توجد في كتاب آخر .

ففي كتاب الوساطة تصوير جيد لوجوه التفاوت بين القدامى  
والمحديثين ، وعرض لكثير من مشكلات الأدب والبيان ، وحديث جيد عن  
النقد ومذاهبه ومناهجه وتياراته .

عرض للبديع وشعرائه وألوانه ، وللسراقات الشعرية وألوانها .

وأفاض في الكلام على المبالغة والإغراء ، وبخاصة في شعر  
المحدثين . ورأى أن الغلو مذهب عام للمحدثين ، وأنهم لا يؤاخذون به ،  
وذلك جنوح إلى رأي قدامة في نقد الشعر الذي يستحسن الغلو ويفضله .

ويذكر الغموض في الشعر ، ويأخذ الفرزدق وأبا تمام والمتنبي به ،  
ويشرح أسبابه ، ويفرق بينه وبين ما ينشأ عن غرابة الكلام وتتوحش اللفظ من  
غموض .

ويذكر أسلوب الالتفات ، والخشوع ، والفصل بين الكلام ، وأسلوب  
القلب ، كما تحدث عن التتكلف والتعقيد اللغطي حديثاً ممتعاً . ويندد بعصبية  
الرواة على المحدثين ، ويشيد بمكانتهم في الشعر ، إلى غير ذلك من مختلف  
مسائل النقد والبيان ، التي عرض لها ، وتحدث فيها ، وناقش مختلف الآراء  
 حولها وحديثه عن السراقات الشعرية حديث رائع عميق .

وفي الوساطة تحامل على أبي نواس وأبي تمام وابن الرومي . .  
ومحاولة لإنصاف أبي الطيب من جور خصومه وعصبية أنصاره .

وإذا كان القاضي الجرجاني قد نقد بيت أبي الطيب :

ما بقسوبي شرفت سل شرفوا بي      وبنفسني فخرت لا بجدودي

ذاكراً أنه هجاء لا مدح، فإن ذلك الرأي بحاجة إلى المعاودة والمراجعة، ولعل القاضي الجرجاني لو أعاد النظر إلى البيت لأدرك مدى جماله وسر روعته ووثيق صلته بضموج الشاعر وشعوره بالعظمة في نفسه.

ولا ريب أن مصادر كتاب الوساطة تعود في مجلملها وأهمها إلى كتاب «البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ»، وإلى «الموازنة» التي ألفها الأمدي والتي تأثر بها القاضي الجرجاني تأثراً شديداً، وإن كان «الوساطة» تغلب عليها صبغة البيان، و«الموازنة» تغلب عليها صبغة النقد، على أن «الموازنة» تمتاز بموضوعيتها وتمام منهج النقد فيها. أما الوساطة فهي لم تستوف بحوث النقد التي كان يجب أن يلم بها في معرض الحكم على المتنبي وشعره ..

على أن القاضي الجرجاني لم يغفل مصدراً من مصادر الأدب والنقد والشعر، فقد رجع إلى كل كتاب سبقه، وأفاد منه.

وبعد، فإن القاضي الجرجاني من أعلام النقد العربي، ومن قممه السامية، وهو حري بأن يعرف له مكانه في النقد، ومنزلته في الأدب. وحسبه فخراً أن كتابه أصبح مصدراً أصيلاً من مصادر الموازنة والنقد والبيان والأدب.

## المراجع

- (١) ٢٨٣:٣ ينمي الدهر للشعالي - تحقيق محمد محبي الدين.
- (٢) ١٧١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف.
- (٣) ٩٠ - ١٠٠ مقدمة لدراسة بلاغة العرب.
- (٤) الوساطة «طبعه صحيح».
- (٥) أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب.
- (٦) ٣٨ - ٣٥ نقد الشعر لقادمة تحقيق «منون».
- (٧) ٢٧٧ الوساطة.
- (٨) النقد المنهجي لمندور.
- (٩) أصول النقد للمؤلف.
- (١٠) حكومة القاضي الجرجاني في النقد للمؤلف.

# كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري

- ١ -

كتاب الصناعتين من أشهر مؤلفات أبي هلال، وأكثرها ذيوعاً وشهرة. وهو من أهم مصادر كتب الأدب والنقد والبلاغة، ويجمع العلماء والنقاد على فضله، وعظيم أثره على الثقافة الأدبية، منذ ألف الكتاب حتى اليوم وقد طبع الكتاب عدة طبعات، في الجواب، وفي القاهرة، حيث نشرته مكتبة صبيح، وأخيراً مكتبة دار إحياء الكتب العربية. ويقول أبو هلال في صدر الكتاب: إن أحق العلوم بالتعلم علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله.

ثم يسترسل في بيان أهمية علم البلاغة إلى أن يقول. وقفـت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانـه من الشرف والـبلـلـلـ، ووـجـدـتـ الحاجـةـ إـلـيـهـ مـاسـةـ، وـالـكـتـبـ الـمـصـنـفـةـ فـيـ قـلـيلـةـ، وـأـشـهـرـهاـ «ـالـبـيـانـ وـالـتـبـيـينـ»ـ لـأـبـيـ عـثـمـانـ الـجـاحـطـ، فـهـوـ كـثـيرـ الـفـوـائـدـ لـمـاـ اـشـتـمـلـ عـلـيـهـ مـنـ الـفـصـولـ الشـرـيفـةـ، وـالـأـخـبـارـ الـرـائـعـةـ، وـمـاـ حـوـاهـ مـنـ أـسـمـاءـ الـخـطـبـاءـ وـالـبـلـاغـاءـ إـلـاـ أـنـ إـلـيـانـةـ عـنـ حدـودـ الـبـلـاغـةـ وـأـقـسـامـ الـبـيـانـ وـالـمـصـاحـةـ، مـتـوـثـةـ فـيـ تـضـاعـيفـهـ، فـرـأـيـتـ أـنـ أـعـمـلـ كـتـابـيـ هـذـاـ مـقـتـمـلاـ عـلـىـ جـمـيعـ مـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ فـيـ صـنـعـ الـكـلـامـ، نـثـرـهـ وـنـظـمـهـ، وـأـجـعـلـهـ عـشـرـةـ أـنـوـابـ، مـشـتـمـلـةـ عـلـىـ ثـلـاثـةـ وـخـمـسـينـ فـصـلـاـ

فالباب الأول: في الإيابة عن موضوع البلاغة

والثاني: في تمييز الكلام جيده من ردئه.  
والثالث: في معرفة صناعة الكلام.

والرابع: في حسن السبك.

والخامس: في الإيجاز والأطباب.

والسادس: في جودة الأخذ وردائه.

والسابع: في التشبيه.

والثامن: في السجع والازدواج.

والناسع: في البديع.

والعاشر: في مقاطع الكلام ومبادئه.

والبلاغة عند أبي هلال: هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه، لتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن.

ويؤكد أبو هلال في الكتاب أن مذهبة في البلاغة والأدب مذهب الأدباء من شعراء وكتاب، لا مذهب المتكلمين - ص ١١ الصناعتين - طبعة صحيح.

ومما ذكره أبو هلال يتضح لنا أن كتاب الصناعتين يبحث عن موازين النقد والبلاغة، التي يحكمها النقاد والبلغيون في الأسلوب. ليتمكنهم الحكم على كلام البلغاء، وأساليب الأدباء، بالجودة أو الرداعة.

## - ٢ -

وقد نشأ أبو هلال في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وهو عصر نضج الثقافة الأدبية في الشرق الإسلامي.

وتتلذذ على كثير من رجال الفكر والأدب في عصره، وكان أظهر أساتذته حاله أبو أحمد العسكري (المتوفى عام ٣٨٢ هـ)، وينقل عنه كثيراً من شتى الروايات في الأدب والبيان.

واتصل أبو هلال برجال الفكر والأدب في عصره، وفي مقدمة من اتصل بهم: الصاحب بن عباد الوزير (المتوفى عام ٣٨٥ هـ) وبناته ساء رأي أبي هلال في المتني، حيث عاب شعره وذمه في مواضع كثيرة من الكتاب.

وأبو هلال كثیر الإشادة بالصاحب بن عباد في كتابه، وهو يستجید أدبه وله قصائد في مدحه، وكان مجلس الصاحب يجمع أدباء العصر من شعراء وكتاب، وليلاليه كانت ندوات أدبية رائعة ازدان بها العصر البویھي.

وكان من معاصريه القاضي الجرجاني صاحب كتاب «الوساطة» بين المتنبي وخصومه». وقد اتصل أبو هلال بالقاضي الجرجاني في مجلس الصاحب بن عباد . وعاش أصدقاء، ومع ذلك اختلف موقفهما الأدبي اختلافاً شديداً.

أبو هلال ساخط على المتنبي ، ناقد له ، مبغض لشعره .. والقاضي الجرجاني يجعل كتابه «الوساطة» حکومة أدية حول شعر المتنبي ، وروح كتابه الدفاع عن المتنبي ، والانتصار له ..

كتاب الصناعتين ألف عام ٣٩٤ هـ كما ذكر أبو هلال في كتابه - ص ٤٥ طبعة صبيح - أما «الوساطة» فأرجح أن تكون قد ألقت بعد وفاة الصاحب الوزير أي بعد عام ٣٨٥ هـ، كما أرجح أن تكون وفاة القاضي الجرجاني عام ٣٩٢ هـ، لا عام ٣٦٦ هـ الذي يذكره كثير من المؤرخين له.

أبو هلال متاثر بقدامة وابن العميد والصاحب تأثراً شديداً، ومذهبه الأدبي هو مذهبهم، من حيث العناية بالمعنى .. والقاضي الجرجاني يرجع إلى الأسلوب العربي البليغ، ويحكم عمود الشعر، ويختار البلاغة القديمة أساساً للحكم على الشعراء و يجعلها ميزاناً للكلام .

ولكن المنافسة بين الرجلين كان لها أثراً عليها، حتى إن أبو هلال لم يشر في كتابه «الصناعتين» أية إشارة إلى كتاب الوساطة مع أهميته في البحث حول النقد والبلاغة اللذين هما محور كتاب «الصناعتين». بل إن أبو هلال سخر في كتابه بالوساطة وبمؤلفها على سبيل الرمز والتلميح، لا النص والتصریح، مع أن أبو هلال استجاد كثيراً من شعر القاضي الجرجاني ونوه به في كتابه «ديوان المعانی»

ومع ذلك فنجد نجد في الصناعتين هذا النص الذي يجب أن نقف عندہ .

يقول أبو هلال وهو يعدد أنواع البديع:

هذه أنواع البديع، التي ادعى من لا رواية له، ولا دراية عنده، أن المحدثين ابتكروها، وأن القدماء لم يعرفوها، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين.

فهذه النظرية التي يشير إليها أبو هلال هي نظرية القاضي الجرجاني في كتابه «الوساطة بين المتبني وخصومه».

فالجرجاني هو الذي نوه في وساطته بالمحدثين، وأشاد بهم، وذهب إلى أن وقوعهم في الخطأ لا يحط من منزلتهم.. وهو الذي يرى أن المحدثين فطنوا لجمال ألوان البديع، وهم الذين مهدوا سبيلاً.

ولكن أبي هلال تحامل في كلمته هذه على القاضي الجرجاني بعد وفاته تحاملاً شديداً، فأسرف في رميء إيه بأنه لا رواية له ولا دراية عنده، وفهم من إعجاب الجرجاني بالمحدثين أن ذلك تعصب لهم، كما فهم من كلام الجرجاني عن البديع وفضل المحدثين في الفطنة إليه أنه يرى أن القدماء لم يعرفوه.

وأبو هلال إذن كان يتبع حياة القاضي الجرجاني وإنساجه، وينظر إليه بعين المنافسة، قدقرأ «الوساطة»، ولكنه لم يعول عليها، ولم يتخذها أحد المصادر في كتابه «الصناعتين» ولذلك لا نجد لها ظلاً ولا ذكراً في الكتاب، حتى البحوث المشتركة في الكتاين نجد فوارق كبيرة في طريقة تناولها، فميزان النقد عند أبي هلال مخالف له عند الجرجاني، وأراء أبي هلال في الاستعارة والتشبیه ليس فيها أي أثر للوساطة، وكذلك بحوثه في السرقات الأدبية ليس فيها أثر خاص لأنباء الجرجاني.

### - ٣ -

إن كتاب «الصناعتين» يدل على عقلية صاحبه الأدبية الكبيرة، وعلى علمه الغزير وفقهه الواسع باللغة والأدب وهو كتاب تطبيقي على قواعد البيان، يمتاز بكترة سواهده مع الحرص على جودة الاختبار، وسلامة الطبع،

مما يرشد إلى لون من ثقافة أبي هلال، حتى لقد حار الكثير من الأدباء في كتابه: هل هو كتاب أدب أو كتاب نقد، أو كتاب بلاغة وبيان.

إن الآراء التي جمعت في الكتاب حول النقد هي خلاصة تفاصيل علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع ومادة الكتاب مادة غزيرة يتسع بها كل باحث ودارس للأدب والنقد والبيان.

وقد نحا فيه أبو هلال منحى جديداً، فتكلم على البلاغة، ورسم المذاهب الأدبية والبيانية في عصره، مما تأثر فيه بالجاحظ ومذهبه الأدبي في العناية بالأسلوب ونظمه وبلاغته عناء شديدة.

على أن علماء الأدب في القرن الرابع كانوا يكتبون في مطلع هذا القرن في الأدب والنقد والبيان، كما فعل قدامه في نقد الشعر، . . . والصولي في كتاب «أخبار أبي تمام». ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان، كما فعل الآمدي في «الموازنة»، والجرجاني في كتاب «الوساطة» ثم أفادوا من ذلك كله في بحوث البيان وأصول البلاغة، فظهر أول كتاب كامل في موضوع البيان، وواف في بحوث البلاغة، مع الإيجاز وقرب الفكرة ووضوح الرؤية النقدية وهو كتاب «الصناعتين».

#### - ٤ -

ومصادر «الصناعتين» كثيرة، وفي مقدمتها كتب الجاحظ: «البيان والتبيين»، والحيوان، وكتاب «البديع» لابن المعتر، وقد الشعر لقادمة بن جعفر. إلى كتاب «الشعر والشureau» لابن قتيبة، وكتب أخرى كثيرة

ومن مصادر أبي هلال نعرف أن ما وصل إليه البيان حتى عصر أبي هلال هو بحوث موجزة، تتصل بمشكلات البيان اتصالاً وثيقاً.. وكذلك كان النقد في هذا العصر .

والبديع عند أبي هلال ألوان طريقة مستحسنة تزيد الكلام حسناً، وقد ابتكر أبو هلال منها ثمانية عشر لوناً ذكرها في كتابه، إلى الألوان الأخرى التي ذكرها النقاد قداماً، ومن قبله .

وغلوا أبي هلال في المتنبي معروف ومما قاله فيه في كتابه «الصناعيين»:

«ولا أعرف أحداً كان يتبع العيوب فبأنها غير مكترث، إلا المتنبي، فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام، ما عدم شيئاً منها، حتى تخطى إلى هذا النوع فقال:

ويسعدني في غمرة بعد غرابة سبوح لها منها عليها سواهد  
فأتأتي من الاستكراه بما لا يطاق غرابة - ص ١٥٣ الصناعيين - صحيح.

وهكذا يذكر أبو هلال أبا الطيب في كتابه، ذكر اسمه في أربعة مواضع فقط منها هذا الموضع، وذكر شعراً للمتنبي عابه وأزرى عليه في خمسة مواضع دون أن يصرح باسمه، وكل ذلك كان من إلهام الصاحب بن عباد لأبي هلال، رحمهم الله.

وبعد فكتاب الصناعيين، يمثل تياراً في الأدب في عصر أبي هلال، ويمثل اختلاف الكتاب حول الأسلوب، وببلغته، وهل ترجع البلاغة إلى اللفظ أم إلى المعنى، وأيهما أولى بالعنایة، ويمثل كذلك الاختلاف حول قضایا الأدب الكبرى وأراء النقاد في تلك القضایا. . إلى غير ذلك كله من مشكلات الأدب والنقد والبيان. ومن ثم فالحرص على قراءة الكتاب، والعنایة بفهمه وتدبره، ضروريان لمن يريد فقهآ في النقد، وفهمآ لأصول الأدب، ولمن يريد أن ينمي ملکة الأدب في نفسه، وبحسبنا أنه من أهمات كتب الأدب ومصادره، وأنه ركن للثقافة الأدبية الازمة لأجيال الشباب. ومن هم وراء الشباب.

# اعجاز القرآن

للباقلاني

- ١ -

من أصول كتب النقد التي ألفت في القرن الرابع الهجري، هذا الكتاب القيم «إعجاز القرآن»، الذي ألفه أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، المتوفى عام ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م في بغداد دار السلام.

ويقول مصطفى صادق الرافعي في الكتاب: إنه استبد بهذا الفرع من التصنيف في الاعجاز، واحتمل المؤونة فيه بحملتها من الكلام والعربيّة والنقد، حتى عدوه الكتاب وحده لا يترک العلماء معه كتاباً آخر في خطره ومرلته وبعد غوره وإحكام ترتيبه وقوّة حجته وبسط عبارته وتوثيق سرده<sup>(١)</sup>. ويجعل الدكتور ركي مبارك الكتاب صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع الهجري<sup>(٢)</sup>.

ولقد كان للباقلاني مذهب في النقد يرجع إلى فهم الأثر الأدبي جملة، وتحليل حصائصه، والموازنة بينه وبين غيره من الآثار الأدبية، وبيان منزلته البينية والأدبية والمعرفية مما يظهر بوضوح في كتابه «إعجاز القرآن»، الذي ترك آثاراً كبيرة في النقد الأدبي، ولا زال معدوماً من مصادر النقد وأصوله، وبخاصة منهجه في نقد التسوعاء في قصائدهم الطوال، حيث لا ينقد بيّناً أو

(١) ٢٠٠ اعجاز القرآن للرافعي

(٢) راجع ١٥ وما بعدها ح ٢ الترجمة لركي مبارك

أبياتاً من قصيدة، ولكنه ينقد القصيدة كاملة، ويبين بوضوح رأيه فيها وفي شاعرية صاحبها، وبخاصة القصائد الأولى المتفق على رفعه محلها، وصحة نظمها. وجودة معاييرها، وسحر بلاغتها، وابداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدير في الصناعة، والمعروفين بالحنق والبراعة والتفوق في البلاغة.. وقد سار على هذا المنهج في نقده لشعر امرئ القيس، والأعشى وأبي نواس والبحري.

## - ٢ -

والباقلاني من أعلام القرن الرابع الهجري، ويقول عنه الجاحظ البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد»: إنه كان أحسن الناس خاطراً، وأجودهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وأصحهم عبارة<sup>(١)</sup>.

ويقول عنه ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»: كان في علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة في مذهبه وكان موصوفاً بحب الاستنباط، وسرعة الجواب<sup>(٢)</sup>.

وقال عنه معاصره الملك عضد الدولة البويمي المتوفي عام ٣٧٢ هـ: ما في مملكتي مثله، ولا لل المسلمين في عصره مثله . وكان الصاحب بن عبد العزiz البويمي المشهور المتوفي عام ٣٨٥ هـ يصفه بأنه بحر معرق.

ووصفه الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء» بالإمام العلامة، ووصفه ابن العماد في «شدرات الذهب»<sup>(٣)</sup>، بأنه مجده الدين على رأس المائة الرابعة . وكتب عنه ابن تيمية<sup>(٤)</sup> بأنه أفضل المتكلمين المتتسين إلى الأشعري ليس فيهم لا قبله ولا بعده.

(١) ٢٧٩/٥ تاريخ بغداد

(٢) ٢٧٨/٢ وفيات الأعيان طعة ١٣٩٩ هـ.

(٣) ١٦٨/٣ شدرات الذهب

(٤) ص ٧٦ رسالة المتنوي الحموية الكبرى

وقال عنه ابن خلدون في المقدمة<sup>(١)</sup> تصدر ل الإمامة في طريقتهم طريقة الأشاعرة - وهذبها. ووضح المقدمات العقلية، التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد، وأن الغرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا يبقى زمانين.

ولقد ولد الباقلاني في البصرة، وانتقل منها شاباً إلى بغداد حيث أقام في الكوخ، وصارت له حلقة علمية كبيرة يجلس فيها تلاميذه والمستفیدون من فضله وعلمه وأدبه، وما أكثرهم.. ثم ألف الكتب الجليلة، وتصدر مجالس العلم وحلقاته وطلبه الملك البویهی عضد الدولة فقصده في شیراز عاصمة الملك، وناظر المعترزة في مجلس عضد الدولة وأفهمهم، فعلت منزلته عند الملك البویهی، وبعث به عام ٣٧١ هـ إلى ملك الروم باسيليوس الثاني. الذي تولى الملك مدة طويلة وذلك في سفارة سياسية.

وتوفي عضد الدولة في سوال عام ٣٧٢ هـ وقام بالأمر بعده ابنه صمصاص الدولة، وكان الباقلاني أستاذًا من أستاذته، وألف له كتاب «التمهيد» فعلت منزلته في السلطان البویهی، وكان من فقهاء المذهب المالکی وإليه انتهت ریاسته، وعظمت منزلته في عصره، حتى توفاه الله إلى رحمته<sup>(٢)</sup>.

ولقد ألف في نظم القرآن: الجاحظ، وأبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني<sup>(٣)</sup>.

وألف أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي كتاباً عنوانه «إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه» كما ألف في الإعجاز الروماني والخطابي.

---

(١) ص ٤٦٥ المقدمة - فصل علم الكلام

(٢) راجع في ترجمته أيضاً روصات الحات ح ٤ ص ٦٦٦ - الديباخ لابن فرحون ص ٢٦٧ - عيون التواریخ لابن تساکر ح ١٢ ص ٢٦٣ الملل والحل للشهرستاني (٢ ص ١٢٩) طقات التافعية لللسکی ح ٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ - وراجع مقدمة إعجاز القرآن بتحقيقی - ومقدمة تحقیق الأستاد السيد أحمد صقر

(٣) هو ابن صاحب «سن أبي داود» سليمان أبي داود السجستاني الإمام (٢٠٣ - ٣٧٥ هـ) أحد تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل (راجع ١٧٥ - ١٧٧ ح ١) المهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد - مطبعة المدبّي بمصر

وتجمعت في القرن الرابع آراء ومذاهب كثيرة في إعجاز القرآن الكريم، بعضها يذهب إلى أن الإعجاز يكمن في البلاغة العالمية التي جاء عليها نظم القرآن الكريم، وبعضها الآخر يذهب إلى أن سببه الصرف، وهي صرف الهمم عن معارضته كتاب الله، وبعضها يذهب إلى أن سببه ما تضمنه الكتاب الحكيم من أحداث الزمان التي تقع في المستقبل، أو من الأخبار عن أحداث وقعت في الماضي الصحيح أو غير ذلك.

والباقلاني في كتابه لا يخرج في قضية الإعجاز القرآني وأسبابها عن ذلك، ولا يأتي فيها بأمر جديد، بعد إضافة ظاهرة.

فهو في كتابه يتحدث عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، ويركز الكلام على بلاغة القرآن، فيذكر مظاهر هذه البلاغة ووجوهاً وينفي أن تكون معرفة الإعجاز بسبب من البديع، ويوازن بين بلاغة القرآن وبلاغة رسول الله ﷺ.

ثم يوازن بين بلاغة مختارات من الشعر العربي وبلاغة كتاب الله ...

وفي هذه الموازنات الرائعة التي يبلغ فيها الباقلانيغاية في سمو المنهج النقدي، نلمس عمق الفهم لكل ما يتصل بالنقد من أحكام وموازين ومناهج فهو ينقد معلقة أمرئ القيس:

فَقَانِيكَ مِنْ ذَكْرِي حَبِيبِ مَنْزِلٍ بُسْقَطَ اللَّوْيَ بَيْنَ الدُّخُولِ فَحُوْمَلَ  
كُلُّهَا نَقْدًا دَقِيقًا يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْقُصْدِيَّةَ وَنَظَائِرُهَا تَنْفَوِتٌ فِي أَيَّاتِهَا  
تَنْفَوِتٌ بَيْنًا فِي الْجُودَةِ وَالرِّدَاعَةِ، وَالسَّلَامَةِ وَالانْعِقَادِ، وَالسَّلَامَةِ وَالانْحِلَالِ  
وَالْتَّمْكِنِ وَالاسْتِصْعَابِ. وَالتَّمْهِلِ وَالاستِرْسَالِ، وَالتَّوْحُشِ وَالاسْتِحْرَاءِ، وَلَهُ  
شَرَكَاءِ فِي نَظَائِرِهَا، وَمُنَازِعُونَ فِي مُحَاسِنِهَا، وَمُعَارِضُونَ فِي بَدَائِعِهَا، وَلَا  
سُوَاءَ كَلَامٌ يَنْحُتُ مِنَ الصَّخْرَةِ تَارَةً، وَيَذُوبُ تَارَةً، وَقُولٌ يَجْرِي فِي سَبَكِهِ عَلَى  
نَسَاطَةِ، وَفِي رَصْفِهِ عَلَى مَنْهَاجٍ، مُخْتَلِفٍ مُؤْتَلِفٍ، وَمُؤْتَلِفٍ مُتَحَدٍ وَمُتَبَاعِدٍ،  
وَشَارِدٍ مُطَبِّعٍ، وَمُطَبِّعٍ شَارِدٍ<sup>(١)</sup>.

(١) إعرار القرآن تحقيق صاحب هذا البحث .

ثم يقول<sup>(١)</sup>: وكنا أردا أن نتصرف في قصائد مشهورة، فتكلم عليها، وندل على معانيها ومحاسنها... ثم رأينا هذا خارحاً عن غرض كتابنا، والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره، ولذلك كتب وإن لم تكن مستوفاة، وتصانيف وإن لم تكن مستفقة... ولم نحب أن ننسخ لك ما سطره الأدباء في خطأ امرئ القيس في العروض والنحو والمعاني وما عابوه عليه في أشعاره وتكلموا به على ديوانه<sup>(٢)</sup>.

وينقد شعر امرئ القيس والنابغة والأعشى وغيرهم نقداً لاذعاً.. ثم ينتقل إلى البحتري فقول<sup>(٣)</sup>: أنت تعلم أن من يقول بتقدم البحتري في الصنعة به من الشغل في تفضيله على ابن الرومي، أو تسوية ما بينهما ما لا يطمع معه في تقديميه على امرئ القيس ومن في طبقته، وكذلك أبو نواس، إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، ويقابل كلامه بكلام أضرباته. من أهل عصره، وإنما يقع التباهي اليسير، والتفاوت القليل.

ويقول عن امرئ القيس<sup>(٤)</sup>: وهو كبيرهم - أي كبير الشعراء - الذي يقررون بمقدمة، وشيخهم الذي يعترفون بفضلهم، وقادتهم - الذي يأتمنون به، وإمامهم الذي يرجعون إليه.

ويقول عن البحتري<sup>(٥)</sup>: وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام، ويقدمون رأيه في البلاغة على كل رأي.

وعن أبي نواس<sup>(٦)</sup>: وكذلك نجد لأبي نواس من بهجة اللفظ، ودقائق المعنى، ما يتحير فيه أهل اللطف، ويقدمه الشطار الظراف على كل شاعر ويرونه لنظم غيره.

ويعرض الباقلانى للموازنة بين قول ابن الضحاك:

(١) ٢٠٩ ، ٢١٠ المرجع نفسه

(٢) ٢١٠ المرجع السابق.

(٣) ص ٢٤١ المرجع نفسه

(٤) ٢٤١ المرجع نفسه

(٥) ٢٤٠ المرجع نفسه

(٦) ٢٤ المرجع نفسه

كانه - نصب كأسه - قمر يكروع في بعض أنجم الفلك

وقول أبي نواس:

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا  
فيذهب إلى أن الخليع - الحسين بن الضحاك - أبدع في المعنى، فاما العبارات فإنها ليست على ما ظنه. لأن لفظ (يكروع) عنده ليس ب صحيح، وفيه ثقل بين «وتفاوت» وفيه إحالة لأن القمر لا يصح تصور أن يكروع في نجم.

وأما قول أبي نواس «إذا عب» فكلمة قد قصد فيها المنانة، وكان سبيلاً أن يختار سوهاها من ألفاظ الشراب، ولو فعل ذلك كان أملاخ، وقوله «شارب القوم» فيه ضرب من التكلف الذي لا بد له منه، أو من مثله، لإقامة الوزن، ثم قوله «خلته يقبل في داج من الليل كوكبا» تشبيه بحالة واحدة من أحواله وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك، وإنما تناوله ليلاً، فليس بتشبيه مستوفى، وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملأع وأبدع:

أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس  
وكأنها شاربها قمر يقبل عارض الشمس<sup>(١)</sup>  
ويعرض الباقياني لقصيدة البحترى المشهورة «أهلًا بذلك الخيال  
المقبل»، وهي التي كان يقول ابن العميد فيها:

إنها أجود شعر البحترى، وكان البحترى يسمى بعض أبياتها: عروق الذهب.. فينقدها الباقياني نقداً شديداً<sup>(٢)</sup>.

ويفضل البحترى على أبي تمام وابن الرومي بديباجة شعره، وتقدمه بحسن عبارته، وسلامة كلامه، وعذوبة ألفاظه، وقلة تعقد قوله<sup>(٣)</sup>.

(١) ٢٤٢ - ٢٤٣ إعجاز القرآن

(٢) ٢٤٢ - ٢٦٤ المرجع نفسه

(٣) ٢٦٥ - ٢٦٦ المرجع نفسه

ويستجيد من شعر ابن المعتز الفخر<sup>(١)</sup> ويرفع من منزلته فيه حتى ليقول: فانظر في القصيدة كلها، ثم في جميع شعره، تعلم أنه ملك الشعر، وأنه يليق به الفخر خاصة، ثم مما يتبعه مما يتعاطاه، ما لا يليق بغيره. بل ينفر عن سواه.

ويميز شعر المتنبي في الشجاعة وأبي فراس في الفخر، وأبي نواس في الشطارة<sup>(٢)</sup>، وذي الرمة في وصف المهامه والبواudi<sup>(٣)</sup>.

#### - ٤ -

وكتاب «إعجاز القرآن» يحتوي على الكثير من آراء النقاد في الحكم على الشعر والشعراء.

والحديث في الإعجاز يستتبع الحديث في النقد في أغلب الأمر، إذ يضطر المحدث إلى عرض النماذج من البلاغة المعجزة في القرآن الكريم وبلاعة الشعراء في الشعر العربي، وكثيراً ما تضطربه المناسبة إلى الموازنة بين شعر وشعر وشاعر، إلى غير ذلك من الأحكام النقدية، التي يسوقه الحديث إليها، والكلام فيها.

والكتاب يعد من أصول كتب الأدب والنقد في التراث العربي.

---

(١) ٢٩١-٢٩٢ المرجع نفسه

(٢) ٢٩٢ المرجع نفسه

(٣) ٢٩١-٢٩٣ المرجع

## الامتناع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى

- ١ -

أبو حيان التوحيدى (٣١٠ - ٤١٤ هـ) (٩٢٢ - ١٠٢٢ م) علم من أعلام العقل العربي في القرن الرابع الهجري، وأديب موسوعي الثقافة، عميق التفكير، متعدد الجوانب. وصفه ياقوت في «معجم الأدباء» بأنه «فيلسوف الأدباء»، وأديب الفلسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين وإمام البلاغة». وإنه «فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة».

وإنه «كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدرية والرواية ووصفه الدكتور الحوفي في كتابه عن التوحيدى بأنه الثمرة الكبيرة التي أنضجتها علوم عصره وأدبه».

ووصفه الدكتور زكريا إبراهيم في مقدمة كتابه الذي نشر في «سلسلة أعلام العرب»، بأنه «الناطق بلسان الثقافة العربية في القرن الرابع الهجري»، وأنه «قام بدور حضاري في تلك الحقبة من تاريخ العرب، بوصفه مفكراً موسوعياً حاول أن يمزج الفلسفة بالأدب». وذكر أن «جمع التوحيدى بين التراث اليوناني من جهة، والثقافة العربية من جهة أخرى، هو الذي أهل للقيام بهذا الدور الحضاري».

ووازن أحمد أمين، وزكي مبارك، والحوفي، ومحمد كرد علي، بيده وبين الباحث، موازنات كثيرة.

وقد عمر التوحيد طويلاً، وتوفي أبوه وأمه وهو صغير، وعاش في كفاح متصل، ونضال طويل وحل وترحال دائمين، وحاول أن يبعد شبح المؤس والحرمان عنه فلم يفلح وتردد على قصور الوزراء والكتاب في عصره، مثل: المهلبي، وابن العميد، وابن عباد، وابن سعدان، فلم يظفر منهم بطائل بل كسب عداوتهم له، وعاش في حيرة عيشة الزاهدين المتتصوفين. وفي لحظة من لحظات الشقاء والتعاسة الفسية، أحرق كتبه، وشاهد النار وهي تشتعل فيها وتلتهمها. ومات بشيراز عام ٤١٤ هـ، بعد أن حورب من عصره وشقى بأهل زمانه، وعاش في حرمان متصل، وفقر شديد.

ولقد أتصف الكتاب المحدثون التوحيدية فيما كتبوا عنه، ونوهوا بفكره الناضج، وفلسفته العميقية، وتقافته المتنوعة التي ترددت فيها أصداء شتى المعارف التي كانت سائدة في عصره.

والحوفي في كتابه عن التوحيد يعرض لأصل أبي حيان، ورجح أنه نشأ من أصل عربي لا فارسي، ويعرض لصلاته بابن العميد، ويرجح أن ابن العميد الذي اتصل به، هو الوزير أبي الفتح بن العميد، وهو ابن أبي الفضل بن العميد، الوزير المشهور، والكاتب المعروف، والأديب الخالد.

## - ٢ -

كان الجاحظ الثاني أبو حيان التوحيدى من أعلام القرن الرابع الهجري ومن رواد الحركة الأدبية فيه وأئمتها. عاش حياته بائساً مكدوداً يشكو المؤس والحرمان، وكأنما أدركته حرفه الأدب أو صبت عليه هذه الحرفة كلكلها حتى كادت تطحنه طحناً.

يصف حال نفسه في مقدمة كتابه «الإشارات الإلهية» الذي حققه وقدم له د. عبد الرحمن بدوي فيقول: (ص ١٨ القاهرة ١٩٥٠).

«أما حالى فسيئة كيما قلبتها، لأن الدنيا لم تواتنى لأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تعجب عليّ فأكون من العاملين لها وأما ظاهري وباطني فما أشد اشتباهمَا، وأما سري وعلانيتي فممقوتان بعين الحق، لخلوهما من علامات الصدق، ودنوهما من عوائق الرف، وأما سكوني

وحركتي فآفتاب محيطان بي، لأنني لا أجد في أحدهما حلاوة النجوى، ولا أخرى في الأخرى من مرارة الشكوى، وأما قراري واضطرابي فقد وهنتي الااضطراب حتى لم يدع في فضلاً للقرار، وغالب ظني أنني قد علقت به لأنه لا طمع لي في الفكاك ولا انتظار عندي للانفكاك».

ولقد عاش عصره وحياته في شقاء دائم كان العصر البوبيهي (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) عصر اضطراب سياسي كبير، شمل العالم الإسلامي كله، وخضعت فيه الخلافة العباسية للملوك البوبيهيين، الذين استلموا من الخلفاء كل سلطاتهم، وحكموا العالم الإسلامي باسمهم، وبدأت تنشأ الإمارات المستقلة، والدوليات المتحركة من نفوذ بغداد والبوبيهيين، ونشأ عن ذلك ضعف عام شمل جميع أرجاء الخلافة وكثرت الحروب، وعم الفقر، وساد البؤس والحرمان كل مناطق الولايات الإسلامية.. ووجد الأدباء أنفسهم أشد طبقات المجتمع خصاصة، وأكثرها فاقة، وأذيعها شكوى ومرارة وألمًا، وكان أبو حيان التوحيدي ظاهرة من ظواهر هذا المجتمع العجيب، ووجدنا طبقة من الأدباء تحترف الكدية، واتخذت لنفسها لقب «الساسانيين» وقد صورهم أبو دلف الينبوعي الخزرجي في قصيده الدالية المشهورة وكذلك البديع الهمذاني في مقاماته، تصويراً واضحاً.

ومع أن التوحيدي عاش قريباً من بلاط الوزيرين ابن العميد والصاحب ابن عباد، فقد هجاهما، وألف فيما كتاباً سماه «مثالب الوزيرين»، وأثر أن يعيش مع الغباء والمجتدين الأدبياء الأردباء». (ج ١ ص ٧ الامتناع والمؤانسة ط القاهرة ١٩٣٩) - وكما يقول محقق كتاب «الإشارات الإلهية» د. عبد الرحمن بدوي نقاً عن ياقوت في معجم الأدباء: «لقد عرف الشقاء الذي لا يستحقه، ولقي الأهوال من الأحياء، بينما وجد التافهين يرتفعون إلى أعلى مراتب الرئاسة والشرف في الدنيا، وسعى ما استطاع لطلب المثالة بين الناس، ولعقد الرئاسة بينهم، ولدرك الجاه عندهم» ولكن حرم من ذلك كله، وزاد من شعوره بالألم أنه طلب المجد عند أناس مهنته، أعني حرفة الأدب، لكنهم بلغوا مرتبة الوزارة، وهو لم يتل إلا البؤس والحرمان «ي»، من مقدمة كتاب «الإشارات الإلهية».

وكان صديقه أبو بكر القومسي الفيلسوف مثله، ويقول عنه التوحيدى: كان بحراً عجاجاً وسراجاً وهاجاً، وكان من الضر والفاقة ومقاساة التسلة بمنزلة عظيمة، فهو عظيم القدر عند ذوى الأخطار، منحوس الحظ منهم، وقال له التوحيدى ذات يوم: ما ظنت أن الدنيا ونكدتها تبلغ من إنسان ما تبلغ مني، إن قصدت دجلة لأغتسل منها نصب ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيم بالصعيد عاد صلداً أملس «ي»، من مقدمة «الإشارات» - عن ياقوت في معجم الأدباء ص ١٥ ج ١٠.

وكم كان يكرر: «معاناة الضر والبؤس أولى من مقاساة الجھال، والصبر على الوخيم الوبيل أولى من النظر إلى محيا كل ثقيل»، وعاش متربعاً على الفقر وعلى الناس وعلى السادة في عصره.

إن التوحيدى كان شاهداً على عصره، وعلامة واضحة من علامات بيته، فهو يعيش حياته غريب الروح والفكر، غريب الدار والوطن لا يستقر به قرار، ولا ينعم بأن يؤويه سكن أو دار، لكنه غني النفس، غني الفكر، غني الأدب. يشعر بعظمته وبنفسه وبقيمة أدبه وفكرة في الحياة، ويقول مثل هذه العبارة الرفيعة: «أستشعر العظمة. فإنك بهذا الاستشعار تستحق التكreme» - ص ١٠٤ الإشارات الإلهية.

وهكذا عاش التوحيدى حياة البائسين، وحياة المفكرين، حتى ليعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

وكتاب «الامتناع والمؤانسة» له حققه ونشره أحمد أمين وأحمد الزين في ثلاثة أجزاء، وقالا عنه: إنه مجموع مسامرات في فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة، حاضر المؤلف بها الوزير أبي عبد الله العارض في أربعين ليلة.

وأقول إن التوحيدى عرض في هذا الكتاب الجليل كل مشكلات الثقافة والفكر والأدب في عصره، في ندوات أدبية كان يعقدها في أمسيات جميلة في دار الوزير أبي عبد الله العارض.

إن الكتاب حديث متصل عن كل التيارات الفكرية والأدبية في عصر التوحيدى ، مما كان موضوع سمر ومتادمة وحوار في مجلس هذا الوزير.

وكما ألف بعض الأدباء في هذا العصر في باب السمر أصول كتاب ألف ليلة وليلة ، فقد ألف التوحيدى كذلك هذا الكتاب الممتع الرائع ، الذى يقص علينا فيه كل ما كان يعيشه من مشكلات الفكر والثقافة والأدب في أدب رفيع من أدب السمر والحوار ، في مجلس وزير جليل .

ويشبهه «ألف ليلة وليلة» كتاب «الامتناع» في أن كلاً منها يتوزع السمر والحديث فيه في ليال متعددة ليلة بعد ليلة .

والكتاب موزع على أربعين ليلة ، وإن كانت الليلة العاشرة والحادية عشرة جعلتا في ليلة واحدة ، وسقطت الليلة الثانية عشرة من الكتاب .

وينتهي الجزء الثالث من الكتاب بالليلة الأربعين وكان الحديث فيها عن أبي تمام والبحترى شاعري القرن الثالث الهجرى العظيمين ، وعن تباين الأفكار والمذاهب وتخاومها ، وعن ضلال الزائغين الذين ذهبوا إلى أن الله عز وجل لم يخلق السباع الضاربة ولا الهوام ، ولا سلطها على الناس ، ولم يضر الناس بالأوجاع والأسقام - ص ١٩٠ ج ٣ الامتناع ، ويرد عليهم التوحيدى هذا الرأى .

ثم ينقل التوحيدى عن بعض المتكلمين ببغداد قوله : إذا كان الله عدلاً كريماً ، جواداً عليها ، رؤوفاً رحيمًا ، فإنه سيصير جميع خلقه إلى جنته .

نم يقول الوزير للتوحدى : هات ملحة المجلس ، فيقول التوحيدى عن أبي همام : لو كان النخل لا يحمل بعضه إلا الرطب ، وبعضه إلا البسر ، وبعضه إلا الخلال ، وكنا متى تناولنا من الشمراخ بسرة خلق الله مكانها سرتين ، وما كان بذلك بأس ، ثم قال : أستغفر الله ، لو كنت تمنيت ندل نواة التمر زيدة كان أصوب .

ويذكر التوحيدى كذلك بعض المؤثرات عن أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها فيصفها الوزير بفصاحة اللسان ، وشجاعة الجنان .

كما يذكر مؤشرات أخرى لأدباء متعددين وفي آخر الكتاب يخاطب التوحيدى صديقه أبي الوفاء المهندس فيقول:

وأما ما قلت لي أيها الشيخ من أنه ينبغي أن تكتب رسالتك إلى الوزير حتى أقف على مقاصدك فيها، وأستبين براعتك وترتيبك بها، فانا أفعل ذلك في هذه الورقات.

ثم يلحق بالليلة الأربعين رسالتين كتبهما إلى الوزير.

وفي الرسالة الأولى يتحدث التوحيدى إلى وزيره فيقول:

كنت وصلت إلى مجلس الوزراء وفرت بالشرف منه، وخدمت دولته وتصرفت من الحديث بإذنه في شجونه وفنونه، كل ذلك آملاً في جدوى آخذها، وحظوة أحظى بها، وزلفى أميس معها، فتقبل ذلك كله، ووعد عليه خيراً، ولم يزل أهله، وانقلبت إلى أهلي مسروراً، بوجه مسفر، ومحيا طلق، وأمل قد سد ما بين أفق العراق إلى صنعاء اليمن، حتى إذا قلت للنفس: هذا جناب الوزير ومحضره، فاطمئني راضية مرضية، حصلت من ذلك الوعد والضمان، على بعض فعارات الزمان، وعجب في ذلك من الزمان، فهو بمثله مليء. وبقيت محمولاً حيران لا أريش ولا أبرى ثم رفعت ناظري، وسدلت خاطري، وفصلت الحساب لي وعليّ، فوضاح العذر المبين، المانع من استزادة المستزيد..

وليس بعد هذا الأسلوب أسلوب يمعن في التهكم. ولا أبلغ في السخرية، منه.

وتمضي الرسالة الثانية كذلك جامعة بين الجد والهزل، والسخرية والتهكم ثم يلحق التوحيدى بهاتين الرسالتين رسالة ثالثة في شكوى البؤس وجه بها إلى أبي الوفاء المهندس الذي كتب له التوحيدى هذا الكتاب، وختم كتابه بها.. وفي هذه الرسالة يقول التوحيدى لأبي الوفاء الذي قربه إلى الوزير:

خلصنى إليها الرجل من التكفف، أنقذنى من لبس الفقر، أطلقنى من قيد الضر، اشتريني بالإحسان، أكفني مؤونة الغداء والعشاء.

ويسترسل في كلامه قائلاً:

إلى متى الكسيرة اليابسة، والقميص المرقع، إلى متى التأدم بالخبز والزيتون؟ قد والله بع الحلق وتغير الخلق، الله، الله في أمري أجبرني فإبني مكسور، اسكنني فإبني صد - ظمان - أغثني فإبني ملهوف، حلني فإبني عاطل، شهرني فإبني غفل. قد أذلني السفر من بلد إلى بلد، وخذلني الوقوف على باب باب، ونكرني العارف بي، وتباعدني القريب مني .. أيها الكريم .. ارحم، والله ما يكفييني ما يصل إلى في كل شهر من هذا الرزق المقتر، الذي يرجع بعد التقىير والتيسير إلى أربعين درهماً مع هذه المؤونة الغليظة، والسفر الشاق، والأبواب المحجوبة، والوجوه المقطبة، والنفوس الضيقة، والأخلاق الدينية.

ثم يقول في هذه الرسالة: وأنا الجار القديم، والعبد الشاكر، ولكنك مقبل كالمعرض، ومقدم كالمؤخر.

إن التوحيد يعرض في هذه الكلمات قصته مع الوزير، عرض الساحر البلigh الذي لا يجارى بيانه بيان.

والوزير العارض الذي وصله أبو الوفاء المهندس به من وزراء الدولة البويهية استوزره - كما يقول أحمد أمين - صممصان الدولة البويهي عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٤ م لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة، وكان له ندوة يجتمع فيها العلماء والمفكرون والأدباء، ومن بينهم: التوعيدي، وابن زرعة الفيلسوف ومسكويه وأبو الوفاء المهندس، وسواهم.

وهذا الوزير هو أبو عبد الله الحسين بن أمجد بن سعدان .. أما أبو الوفاء (٣٢٨ - ٣٧٦ هـ) فهو من كبار المهندسين في العصر البويهي.

- ٣ -

وكتاب «الامتاع» يحتوى أعظم الوثائق الأدبية والفكرية، التي تم خضر عنها القرن الرابع الهجري العظيم، قرن الثقافات الرفيعة والأدب المزدهر، والفلسفة الذائعة.

والكتاب أحد كتب التوحيد الرائعة التي نعرف منها: الإشارات الإلهية الهوامل والشواميل الذي حققه أحمد أمين صقر: والمقابس، والصدقة والصديق، والدخائر والبصائر

في كل ليلة من ليالي «الامتاع والمؤانسة» الأربعين، يجري الحوار والسمير حول موضوع محدد، يعينه ابن سعدان الورير، وإن كان عقل التوحيد الواسع الثقافة، المحيط بجوانب شتى من المعرفة، كثيراً ما يسلك سبيل الاستطراد فينتقل من طرفة إلى طرفة، ومن فكرة إلى فكرة، ومن شيء إلى آخر شبيه به، حتى ليتناول موضوعات عدة، ويختتم الليلة غالباً بملحة وداع، أي بطرفة يختتم بها الأمسية الأدبية.

«الامتاع والمؤانسة» هو خلاصة رائعة لمشكلات الفكر والثقافة والأدب في القرن الرابع الهجري، وهو زاد رفع من المعرفة، وكما نجلس في عصرنا الراهن في أنديتنا الأدبية لتحدث وتناقش ونتحاور في مختلف مسائل الثقافة، كان أبو حيان التوحيد الجاحظ الثاني، مأسلوبه البلigh، وبيانه الرفيع، وكلامه العذب، يجلس في مجلس هذا الوزير البوهي الكبير، ليحدث في مختلف مسائل العلوم والمعرفة والفلسفة، حديث الإنسان المثقف الدهشة، البلigh الأربب، فيملك الأسماع، ويستولي على الألباب، ويشير الدهشة من كل مكان، ويتصل الحوار بينه وبين أعلام عصره في ندوة الوزير، ويحتاج كل لرأيه، وتكون نتيجة ذلك كله ثراء ما بعده ثراء للفكر والعقل وللإنسان.

في مقدمة الكتاب يذكر أبو حيان مدى اعتزازه بصديقه أبي الوفاء المهندس، واستجابته لطلبه في تأليف الكتاب، ويمزج ذلك كله بالشکوى من الزمان

وفي الليلة الأولى بصف مجلس الوزير ابن سعدان، ويتحدث عن لذة الحديث، وعن الاشتقاد اللغوي للكلمة، ثم بذكر ملحة الوداع، وهي سادرة لحظة

وفي الليلة الثانية يذكر أبا سليمان المنطقي ، ورأيه كذلك في علماء عصره، من مثل ابن زرعة ، وابن الخمار ، وابن السمع ، وأبي بكر القومي ومسكويه ، وعيسي بن علي ، ويحيى بن عدي ، وقد تحدث أبو حيyan عن هذه الأعلام ورأيه فيهم ، ورأيهم في النفس

والليلة الثالثة في أصدقاء السوء ، والرابعة حديث عن الصاحب بن عباد الوزير هـ = ٩٩٨ م مع الاستطراد إلى كثير من الأعلام وكلمات مأثورة لهم ، وأراء مروية عنهم .

وفي الليلة الخامسة يتصل الحديث بابن عباد أيضاً ، وبمكاتبه المشهور أبي إسحاق الصابي .

وفي الليلة السادسة يتحمّل التوحيدي عن أمم العالم القديم في عصره ، وما امتازت به كل أمّة من هذه الأمم .

وفي الليلة السابعة يدور السمر حول موازنة بين علمي الحساب والبلاغة .

وهي الليلة الثامنة تضمنت ذكر المناقشة الفكرية بين السيرافي ومتى بن يونس حول أهمية المتنطق اليوناني في الكلام ، ومقدار أهميته بالنسبة للنحو العربي ، وأيهما أولى بالعناية .

ويصف التوحيدي أبا سعيد السيرافي وصفاً شائقاً .  
والليلة التاسعة عن أنواع الحيوان وخصائصها ، وكذلك دارت الليلة العاشرة والحادية عشرة وسقطت الليلة الثانية عشرة من الكتاب .

أما الليلة الثالثة عشرة فيدور الحوار والسمر فيها حول النفس ، وفي الليلة الرابعة عشرة حوار حول السكينة أي الطمأنينة وضرورتها ، وحول خصائص الأمم وصفتها كذلك

والليلة الخامسة عشرة حوار كلامي عن الواجب والممکن وال السادسة عشرة حول الحر والقدر وهي نهاية الجزء الأول من «الامتناع والمؤانسة» .

والجزء الثاني من الكتاب يبتدئ بالليلة السابعة عشرة، ويدور الحديث فيها في جملته حول إخوان الصفا، من هم؟ وما فلسفتهم .  
واليوم الثامنة عشرة سمر ومجسون . والتسعة عشرة قراءات لكلمات فلسفية .

واليوم العشرون حول الحديث النبوى ، والعحادية والعشرون حول الغناء والموسيقى والثانية والعشرون حول الجزئي والكلى وهما من الفلسفة ، ثم حول الواحد والكثير .

واليوم الثالثة والعشرون مأثورات نبوية شريفة .  
والرابعة والعشرون تعود إلى الحيوان والنبات .

والخامسة والعشرون موازنات بين النظم والنشر ، ومتزلة الشعر بين فنون الأدب .

وال السادسة والعشرون تدور حول الأمثال . والسبعين والعشرون قصص وفكاهات والثامنة والعشرون حول الفنانين وفنهم ، والتاسعة والعشرون والثلاثون وبعض الليلة العحادية والثلاثين حول مسائل لغوية وغيرها . ويتجه بها الجزء الثاني من كتاب «الامتاع والمؤانسة» .

ويبدأ الجزء الثالث ببقية الليلة العحادية والثلاثين وفيها يتراوح الحديث إلى المطعمين والطاعمين ، حيث يدور الحديث حول ذلك في بقية هذه الليلة وفي ليتين آخريين ، هما الليلة الثانية والثلاثون ، والليلة الثالثة والثلاثون .

أما الليلة الرابعة والثلاثون فتدور حول سياسة الشعب وواجب الحاكم والمحكوم وهي ليلة حافلة بالجد والعبرة والعظمة .

وفي الليلة الخامسة والثلاثين يدور الحوار حول الجبر والاختيار ، والحب والشهوة ، والنفس والروح ، وغير ذلك من أمور فلسفية عميقة .

وفي الليلة السادسة والثلاثين يتنتقل السمر إلى اللغة ، من حيث ينتقل في الليلة التي بعدها إلى الأخلاق ، وفي الليالي الثلاث الأخيرة الشامنة والثلاثين ، والتاسعة والثلاثين والأربعين ، يتصل السمر بالفكاهة والجد وبواحد الذكاء . (ويتجه بذلك الكتاب) .

## دلائل الأعجاز

عبد القاهر الجرجاني

- ١ -

يعرض عبد القاهر في الدلائل لكثير من المشكلات الأدبية والبيانية والنقدية في عصره ويبدي رأيه فيها.

١ - فقد أبان في كتابه مدى قيمة عنصر المعنى في النص الأدبي، ومع ذلك فقد رد رداً شديداً على من يقدمون الشعر لمعناه، ويقللون من الاحتفال باللطف، ولا يرون الجودة إلا في أن يكون الشعر قد أودع حكمة وأدباً واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر، فإن مالوا إلى اللفظ شيئاً لم يحفلوا بغير الاستعارة، وعبد القاهر وإن جاري هؤلاء قليلاً فيما عرض له من السرقات والأخذ في المعاني الشعرية، إلا أنه يقرر في قوة وجراة خطأ من يجعل الأساس في الحكم على الشعر هو المعنى، ويقول: إن الأمر بالضد فإننا لا نرى متقدماً في علم البلاغة مبرزاً في شاؤها إلا هو ينكر هذا الرأي ويزري على القائل به، ويغضنه. ويقول عبد القاهر: إنهم لم يعيروا تقديم الكلام بمعنى لهم بأن المعنى إذا كان أدباً وحكمة وكان غريباً نادراً فهو أشرف، بل عابوه من حيث كان من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص إلا يعسر في قضيته تلك إلا الأوصاف التي تحض ذلك الجنس وترجع إلى حقيقته، وأن لا ينظر فيها إلى جنس آخر وإن كان من الأول بسيط أو متصلاً به اتصال ما لا ينفك منه، ويقرر أثر ذلك أن الصياغة والنظم هما اللذان يحب النظر إليهما في الحكم على الشاعر والشعر، فمعلوم أن سيل الكلام

سبيل الصياغة والتوصير، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع فيه التصوير، ثم يستدل لكلام الجاحظ في خطأ من يقدم الشعر بمعناه حيث يقول الجاحظ: «المعانى مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن، وتحير اللفظ، وسهولة المحرج، وصحة الطبع، وحودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير»<sup>(١)</sup>. ويقول بعض الباحثين<sup>(٢)</sup>: إن الشاعر لا يكفيه أن يحصل قدرًا من الأفكار<sup>(٣)</sup> حتى يستطيع أن يقول الشعر. فنحن لا نحكم على الشاعر إلا بعد أن نقرأ الألغااظ التي كتبها.. ويقر عبد القاهر كذلك أنه لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبها، والمعنى في مثل هذا يراد به الغرض الذي أراد المتكلّم أن يثبته أو ينفيه نحو أن نقصد تشبيه الرجل بالأسد، فنقول «زيد كالأسد»، ثم تريده هذا المعنى بعينه فتقول «كان ريداً كالأسد» تجعله من فرط شجاعته أنه لا يتميز عن الأسد، ولا يقصّر عنه حتى يتوهّم أنه أسد في صورة آدمي، فانظر هل كانت هذه الزيادة إلا بما توحّى في نظم اللفظ وترتيبه<sup>(٤)</sup>

٢ - ويقر عبد القاهر أن الكلام على ضربين:

- (أ) ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلاله اللفظ وحده.
- (ب) وصرّب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلاله اللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة تانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الاستعارة والكتابية<sup>(٥)</sup>، ويقول إنك إذا عرفت هذا المعنى فها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني سالمعنى المفهم من ظاهر اللفظ،

(١) ١٦٧ المرجع

(٢) ١١٠ و ١١٩ الأدب وقومه عز الدين اسماعيل

(٣) ويقول ما لا راميه إن الشعر لا يصح من الأفكار، ولكنه يصح من الألغااظ ١٠٩ المرجع نفسه

(٤) ١٦٨ و ١٦٩ المرجع

(٥) ١٧٠ و ١٧١ المرجع

ويمعني المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يُفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر<sup>(١)</sup>.

وقد فهم النقاد نظرية عبد القاهر تلك، وتوسعوا فيها، فقالوا: إن المعنى الذي تجده في معاجم اللغة للكلمة ما هو إلا النسخة التي يتجمع حولها طائفة من المعانى الثانوية، وكثير من المهارة الأدبية عبارة عن إطلاق تلك المعانى الثانوية لتؤثر تأثيرها في الخيال<sup>(٢)</sup> فإن أسمى ما يصل إليه من الأدب أن يجعل الإيحاء اللفظي من السيطرة وبعد المدى والحيوية والقدرة بمكان عظيم<sup>(٣)</sup> فالشاعر يستخدم المعنى العقلي للألفاظ، ويستخدم كذلك علاقاتها وإيحاءاتها وصوتها وإيقاعها والصور الموسيقية وغيرها مما تكونه الألفاظ حين يربط بعضها بعض<sup>(٤)</sup>.

٣ - وكذلك عرض عبد القاهر للفظ وأبان أهميته في الأداء والتعبير البيني، ولكنه نفى أن تكون الفصاحة صفة للفظ من حيث هو لفظ، وذلك في مواضع كثيرة من الكتاب<sup>(٥)</sup>.

٤ - ويتحدث عبد القاهر في إعجاز القرآن حديثاً موجزاً لأنه مشغول بوضع الأساس الذي يحلل كلام الله الكريم على ضوئه ليعرف إعجازه، وبين عظمته ومنزلته في البلاغة، وإن كان قد رد على من ذهب مذهب الصرفة، وأن الإعجاز في القرآن سببه صرف الله العرب عن معارضته.. وهكذا يفيض عبد القاهر في دلائل الإعجاز في شرح النظم وأسرار بلاغته، مما يجعلنا نؤمن بأن «دلائل الإعجاز» قد أله عبد القاهر لبيان هذه النظرية البينانية الخطيرة والتطبيق عليها، وذلك أنه جعل معرفة أسرار الإعجاز مرتبطة بمعرفة أسرار النظم ودقائقه ووجوهه، وقد سمي كتابه «دلائل الإعجاز»، وهو لا يريد حجج الإعجاز، لأنه لم يتكلم عنها ولم يعرض لها، وإنما يريد

(١) ١٧١ المرجع.

(٢) ٣٨ المرجع.

(٣) راجع ٢٥٧، ٢٩٧ الدلائل.

(٤) ص ٤٠ قواعد النقد الأدبي.

(٥) ١٠٣ الأدب وفنونه.

بالدلائل معنى مقدمات، فكأنه يقول هذه هي مقدمات لفهم قضية الإعجاز وأسراره، ومن ثم جعل الكتاب من أوله إلى آخره خاصاً بقضية النظم وبالتطبيق النبدي عليها لأن معرفة هذه القضية مقدمة لمعرفة أسرار الإعجاز نفسه.

ومن الخطأ الجسيم ما ذهب إليه كثيرون من الباحثين من أن «دلائل الإعجاز» خاص ببحث علم المعاني<sup>(١)</sup>، والدليل على هذا الخطأ الفادح واضح، فإن عبد القاهر لم يخص كتابه دلائل الإعجاز ببحث علم المعاني وحده، بل تكلم فيه كذلك عن التشبيه. والاستعارة والمجاز والكتابية، مما هو من مباحث علم البيان.

وتتكلم فيه كذلك عن التقسيم والمزاوجة والسجع وغيرها مما هو من مباحث علم البديع، فكيف يكون الكتاب في علم المعاني.

لا، إنما ألف عبد القاهر كتابه لعرض نظريته الجديدة حول النظم<sup>(٢)</sup>، والتطبيق عليها، ليجعل مما يقرره في ذلك كله مقدمة لفهم قضية اعجاز القرآن الكريم، وإذا كانت كلمة المعاني وردت عند عبد القاهر في الدلائل فإنه لم يكن يعني بها نفس المدلول الذي جعله السكاكي لها وعناء بها.

## - ٢ -

### نظريّة النظم عند عبد القاهر.

نظريّة النظم أهم النظريّات في البلاغة العربيّة، وبخاصة بلاغة عبد الظاهر وقد عرض لها عبد القاهر في «دلائل الإعجاز» عرضاً واسعاً، وكذلك أشار إليها في «أسرار البلاغة»، وسوف نستعرض آراءه هنا بتفصيل.

(١) راجع مثلاً: ١٦١ البيان العربي

(٢) كتب مصطفى باصف عن الطعن في دلائل الإعجاز في حوليات كلية الأداب بجامعة عين شمس يساير ١٩٥٥، وللدكتور محمد سايل كتاب بعنوان «نظرية العلاقات أو الطعن في عبد القاهر والقد العربي الحديث»

في مقدمة دلائل الإعجاز يعرف عبد القاهر النظم بأنه «تعليق الكلم بعضها بعض، وجعل بعضها بسبب من بعض»، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة:

- ١ - تعلق اسم باسم بأن يكون خبراً عنه أو حالاً منه أو تابعاً له. الخ.
- ٢ - «اسم ب فعل»، فاعلاً له أو مفعولاً به أو مطلقاً أو فيه أوله أو معه.
- ٣ - «حرف بهما وذلك على وجوده عدّة».

ويشير إلى أنه من الضروري في معرفة الفصاحة أن نضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام، وأن الألفاظ لا تتفاصل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها القضية وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ.

ويؤكّد أن نظم الكلم يقتفي فيه آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس.

وليس النظم في مجمل الأمر إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف منهاجه، فلا تزيغ عنها، فمداره على معاني النحو وعلى الوجوه والفرق التي من شأنها أن تكون فيه وليس هو إلا توخي النحو في معاني الكلم، فلا معنى للنظم غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم أو فيما بين معاني الكلم بتعبير آخر.

وال الفكر لا يتعلّق بمعاني الكلم المفردة مجردة من معاني النحو أو منطوقاً لها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها.

ويأخذ في تفضيل أمر المزية وبيان الجهات التي منها تعرّض:

فيعرض للفظ يطلق والمراد به غير ظاهره مما يدور في الأعم على شيئاً: المجاز والكتابية ويقرر أن المزية فيما وفي التمثيل ليست في أنفس المعاني التي يقصد المتكلّم إليها ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إليها.

ويعرض للاستعارة في بيت ابن المعتز:

سألت عيّه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير  
مؤكداً أنها على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن بما توخي في وضع

الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد صلحت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم في بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: «**واشتعل الرأس شيئاً**<sup>(١)</sup>»، قوله: «**وفجرنا الأرض عيوناً**<sup>(٢)</sup>».

ويتحدث عن التشبيه في مثل زيد كالأسد، وكأن زيداً أسدًا، ففي المثال الثاني زيادة في معنى التشبيه ليست في الأول، وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توحي في نظم اللفظ وترتيبه حيث قدمت الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع أن.

كما يتحدث عن ضروب من المجاز العقلي أو المجاز في الإساد وعن ضروب الكناية في النسبة.

ويقرر أن الاستعارة والكناية والتلميل وسائل ضروب المجاز من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد، فإذا قلنا في لفظة «اشتعل» من قوله تعالى: «**واشتعل الرأس شيئاً**» إنها في أعلى مرتبة من الفصاحة لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها الرأس معرفاً بالألف واللام، ومقرروناً إليها الشيب منكراً منصوباً، فليست الفصاحة صفة للفظ «اشتعل» وحده.

ويتحدث عن وجود النظم في التقديم والتأخير، وفي الحذف، ويتكلّم على فروق الخبر من مثل زيد منطلق وزيد المنطلق والمنطلق زيد وعلى أسرار الاتيان بالذى، وعلى فروق في الحال، لها فضل تعلق بالبلاغة. وعلى أسرار الفصل والوصل، وعلى تقديم كل على النفي وتأخيرها عنه، وعلى مثل: «**وجعلوا الله شركاء الجن**<sup>(٣)</sup>»، وعلى أسرار التنكير في مثل: «**ولكم في القصاص حياة**<sup>(٤)</sup>»، وعلى ضروب من تأكيد الخبر وعلى الفصر.

ويقرر أن المزية للكلام إنما هي في نظمها باعتبار معنى اللفظ لمعنى اللفظة التي تليها، وليس أفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه.

فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها، وزيادات تحدث في أصول المعانى، كالذى أريتك فيما بين ريد

(٣) سورة مريم الآية ٤٠٠

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٩

(١) سورة مريم الآية ٤

(٢) سورة تسنيم الآية ٣٢

كالأسد وكأن زيد الأسد، ولا نصيب للألفاظ من حيث هي ألفاظ بوجه من الوجوه، فأنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص والمزية، فليس للفظ من حيث هو لفظ حسن ومزية، إذاً المزية ليست بمجرد وإنما تقع في اللفظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس.

ويجعل الإعجاز القرآني في النظم وحده لا في شيء آخر.

وبذلك ينتهي عبد القاهر من عرض نظريته في النظم هذا العرض الجديد لتلك النظرية الجديدة أيضاً.

وخلاصة ما يقرره عبد القاهر:

- ١ - أنه لا فصل بين الكلام ومعناه. ولا بين الصورة والمحتوى.
  - ٢ - أن البلاغة في النظم لا في الكلمة مفردة، ولا في مجرد المعاني.
  - ٣ - أن النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معاني الكلم.
  - ٤ - ولذلك أخذ عبد القاهر يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو، مستنبطاً الفروق بينها، عارضاً لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها.
- وهذه النظرية، وهي نظرية النظم، بما استملت عليه من تطبيقات واسعة عند عبد القاهر، لم يعرض لها أحد قبله، ولذلك جهد عبد القاهر في إيضاحها، ودفع الشبه عنها، والرد على من يعارض عبد القاهر فيها، من أول «دلائل الإعجار» إلى آخره.

وقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبي الخالص اعتماداً كلياً في كل ما يقرره من أحكام، مقرراً أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد له قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون من تحدثه نفسه بأن لما بومي إلية من الحسن واللطف أصلاً، وحتى إذا عجبته عجب وإذا نبهته لموضع المزية اتبه.

وقد أترى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربي إثراء جليلاً، في نقد الأساليب وتحليلها، واستساط الفروق والخصائص فيما بينها، وبما عرض به من أحكام نقدية دقيقة على أساليب كثيرة من صرور الشعر والثر

ويقول الدكتور بدوي طبانة في كتابه «البيان العربي»: إن فلسفة عبد القاهر البيانية تنهض على أساس النظم وأن عبد القاهر لم يكن مخترعاً لها وإن كان هو الذي بسط فيها القول، وأقام على أساسها فلسفة كتابه، فقد سبقه إليها الواسطي المتكلم (٣٠٧ هـ) صاحب كتاب «إعجاز القرآن الكريم في نظمه» وظهرت هذه الفكرة واضحة في الصراع الذي أثاره امتزاج الثقافات وتغريب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ودفع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية<sup>(١)</sup>.

ولا نستطيع أن نقول إن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر حتى ينفيه صاحب «البيان العربي» ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم هذا الشرح الجديد حقاً وتطبيقه عليها هذه التطبيقات الواسعة، وإذا كان عبد القاهر لم يخرج بالنظم عن معاني النحو، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعاني المتتجدة المختلفة<sup>(٢)</sup>. فإن الجديد عنده هو أنه استخدم معاني النحو وأحكامه استخداماً جديداً بيانياً عصياً.. وإلا لكان في النحو غنى عن كل ما قرره عبد القاهر من أحكام بيانية بلا غية. ويقرر عبد القاهر في كل فصل من فصول «الدلائل» أن لا سبيل لمعرفة الإعجاز إلا النظر في الكتاب الذي وضعناه. واستقصاء التأمل لما أودعناه، وأنه «الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان»<sup>(٣)</sup> ولا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا الوصف الذي كان له معجزاً، «والطريق إلى العلم به موجود»<sup>(٤)</sup> أي ممكن ويكرر في الكتاب أنه يقرر أموراً صعبة، وأنه قد يصعب فهمها، وغير ذلك مما يجعل عبد القاهر يستحذ ذهنه في تقريرها، وذهن القارئ والسامع في تقبيلها لوجه الجدة فيها، وأنه المبتكر لها.

ويعرض الدكتور مندور لقضية النظم عند عبد القاهر فيقرر:

(١) ١٦٣ البيان العربي - طعة تالثة

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) ٨ الدلائل

(٤) مقدمة دلائل الإعجاز

١ - أن الأدب فن لغوي<sup>(١)</sup> كما قرر عبد القاهر من قبل بالفحوى فإخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون وهذه النظرية الصحيحة هي موضع اعتراضاً بتفكير عبد القاهر. وعبد القاهر يبدأ بنظرية فلسفية في اللغة، ثم يتنهى إلى الذوق الشخصي الذي هو مرجعنا الأخير في دراسة الأدب.

٢ - النقد وضع مستمر للمشاكل، فلكل جملة أو بيت مشكلته التي يجب أن نعرف كيف نراها ونضعها ونحكم فيها، وهذا هو النقد الموضوعي كما رأه عبد القاهر.

٣ - الحكم على النظم هو النظر في المعنى منظوماً والذوق هو الفيصل الأخير في الحكم على هذه الدقائق، وإلى هذا فطن عبد القاهر بحسه الأدبي الصادق. ويتحكم الذوق عند عبد القاهر في نظم المعاني التي تعبر عنها.

٤ - وتسوق فكرة النظم عبد القاهر إلى تخطي الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة. فعني بها من حيث الجودة ونقدها نقداً أدبياً.

٥ - إحساس عبد القاهر الأدبي سبق دائمًا لعقله.

٦ - اهتدى عبد القاهر إلى كل تلك الحقائق - التي وإن يكن في تفكير اليونان القدماء ما يماثلها كما أن في علم اللسان الحديث ما يؤيدها - فالفضل الأكبر في الواقع عليها لمواهب عبد القاهر الفطرية.

٧ - ليس نظرية عبد القاهر في النظم من القيمة لتطبيقاته. فهناك يظهر ذوقه العربي السليم، ذلك الذوق الذي لا يمكن أن يعني عنه في الأدب شيء، وما نظرية عبد القاهر في رمزية اللغة ورد المعاني إلى النظم وما منهجه في نقد النصوص نقداً موضوعياً إلا مراحل تنتهي به إلى الذوق الذي يدرك الدقائق ويحس بما تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة».

هذا وقد أطلق السكاكي (٦٢٦ هـ) صاحب المفتاح على أصول النظم وأبوابه ومسائله علم المعاني «وأخذ قواعده» كما أخذ فروعه من كتاب دلائل الإعجاز.

(١) في الميزان الجديد لمendor الطبعة الثانية.

## مصادر فكر عبد القاهر البلاغي

تأثير عبد القاهر في كتابيه الأسرار والدلائل بكثير من علماء البلاغة والبيان قبله :

١ - فقد أفاد من المبرد دراسته في الكامل كثيراً، واقتبس منه آراءً في البلاغة، كما أخذ عنه شواهد كثيرة، واستدل برأيه في الدلائل.

٢ - وفكرة قرب الشبيه في الاستعارة موجودة في نقد الشعر لقدامة أخذها عن القديمة، وسار عليها العسكري والأمدي وصاحب الوساطة، وتبعهم عبد القاهر في الأسرار والدلائل.

وقد أورد عبد القاهر رأي قدامة في أن «أعزب الشعر أكذبه»، وحلله وشرحه.

وعرف عبد القاهر الكنية بنفس تعريف قدامة.

ويظهر في الأسرار والدلائل أثر بلاغة أرسطو المترجمة في كتابي الخطابة والشعر اللذين ترجمهما ابن سينا في الشفاء وترجمهما غيره، وقد اقتبس عبد القاهر من هذه الترجمات وتأثر بها:

(أ) فقد أخذ منها ما كتب في بلاغة التجنيس، من أنه وقد أعاد اللقطة يخدلك عن الفائدة وقد أعطاها.

(ب) وأخذ فكرة أن الاستعارة تكون استعارة من الشبيه وقد تكون من الصد

(ج) وبناء الشعر على التخييل الذي بسطه عبد القاهر نظرية لأرسطو في كتابه الشعر.

(د) وقرب التشبيه في الاستعارة أول من تكلم عنه أرسطو في كتاب الخطابة، وقد بسط عبد القاهر الكلام فيه، كما نكلم عليه قبله الكثيرون.

وللأمدي أثر فيما كتبه عبد القاهر:

فقد نقل عبد القاهر كلمة للأمدي في بيته للطائين ، واستدل بها في أسرار البلاغة على ما أراد ، ثم نقدها في دلائل الإعجاز . وكذلك نقل كلمة عن معنى الاستعارة عند الأمدي .

ونهج عبد القاهر نهج الأمدي في تعليقه على كثير من الأبيات في الاستعارة كأبيات لبيد وزهير وأبي ذؤيب في الاستعارة المكنية وسواهم .

ويخص عبد القاهر النظم بمزية البلاغة ، كما ذهب إليه الأمدي ومن قبله الجاحظ .

### بين عبد القاهر والقاضي الجرجاني:

نشأ الرجلان في جرجان ، وعاش القاضي في القرن الرابع (توفي سنة ٣٩٢ هـ) ، وعبد القاهر في القرن الخامس (توفي عام ٤٧١) وكانت نشأة عبد القاهر في جرجان موطن القاضي الجرجاني ، وتأثره بيئتها ، وتثقفه على أساتذتها وقراءته في مؤلفات علمائها ، واتجاهه إلى الثقافة الدينية والأدبية التي اتجه إليها القاضي ، وتأثره بها ، واستمداده من معينها .

ويتجلى أثر الوساطة بوضوح في كتابي عبد القاهر: الدلائل والأسرار، فكثيراً ما يقتبس من آرائها، أو يأخذها قضية مسلمة يبني عليها ويستدل بها.

فكلام عبد القاهر في المعاني «وزيادة شاعر على آخر فيها» وكذلك حديثه عن السرقة ومظاهرها وما تقع فيه من المعاني، إلى غير ذلك مما نراه في الدلائل وفي الأسرار، كل ذلك قد تأثر فيه عبد القاهر بالقاضي .. والاتفاق في الغرض وعموم الدلالة لا يعد سرقة عند عبد القاهر، وقد أتفاض في ذلك من قبل القاضي الجرجاني ، وعاب ابن يموت في رميء أبا نواس بالسرقة فيما اتفق هو وغيره فيه في عموم الدلالة .

والاستعارة وتقرير الشبه فيها فكرة ذكرها عبد القاهر كما ذكرها الجرجاني وفي الحق أن قدامة قد ألم بها في نقد الشعر متاثراً بخطابة أرسسطو

فيها.. ونقل عبد القاهر نفس تعريف القاضي للاستعارة، مما نراه في الوساطة.

ونقل عنه عبد القاهر نقهه لبيت ابن المعتز:

بياض في جوانبه احمرار      كما احمرت من الخجل الخدود  
وسلمه له.

وأثر التعقيد اللغظي أفاض في الحديث عنه القاضي، وكتب فيه عبد القاهر متأثراً كل التأثر به. وقد سبقهما الجاحظ إلى الحديث عنه في بيانه، وألم إماماً في موازنته.. ورأى عبد القاهر في أبي تمام والنعي عليه لا غرابة هو رأي القاضي، وكذلك رأيه في البحترى والإشادة بطبعه، وعلى العموم فتأثر عبد القاهر فيما كتبه عن التعقيد بما كتبه القاضي من قبل عنه في وساطته واضح بين.

واستدل عبد القاهر على أن أسلوب زيد الأسد الأرجح فيه أن يكون تشبيهاً برأي القاضي.

كما ينقل عنه في مواضع كثيرة أخرى في كتابيه الأسرار والدلائل:  
نقل عنه أن بيت أبي نواس: «خليل والحسن تأخذه» الخ، مأخوذ من بيت بشار:

خلقت على ما في غير مخيسر      هواي ولو خيرت كنت المهدبـاـ  
وتتكلم القاضي عن سر القطع في بيت المتنبي: «جَلَّا كـمـا بـي فـلـيـكـ  
التـبـرـيـخـ» الخ، ولعل عبد القاهر سار على طريقته في بيان بعض أسرار الفصل.  
وباب الفصل والوصل أصل تسميته موجود في كتاب الجاحظ حيث يقول:  
البلاغة عند الفارسي هي معرفة الفصل من الوصل، وقد نقل عبد القاهر هذه الكلمة في الدلائل.

وقد تأثر عبد القاهر بصاحب الصناعتين أبي هلال العسكري:  
فقد نقل عنه كلمته التي ذكر فيها مناقشة البحترى لابن الرومي في بيت أبي نواس:

ولم أدر من هم غير ما شهدت لهم      بشرقي ساباط الديسار البساس  
وأنه مأخود من بيت أبي خراش الهذلي .. ونقل عنه كثيراً غير ذلك.  
ونقد رأى أبي أحمد العسكري - وهو من أسرة صاحب الصناعتين - في  
تسميته التمثيل بالمماثلة.

وقد أخذ عبد القاهر بعض آرائه عن علماء النحو.

(أ) نقل كثيراً عن سيبويه :

١ - فقد نقل عنه سحر بلاغة القديم .

٢ - وإن تقديم الاسم في مثل محمد قام يفيد التنبيه .

٣ - ونقل بعض شواهد من الكتاب لسيبوه في باب الحذف .

٤ - واستدل بكلام سيبويه على أن (إنما) تجيء الخبر لا يجهله  
المخاطب .

وسوى ذلك مما تأثر عبد القاهر فيه بآراء سيبويه في النظم وروعته .

(ب) ونقل عبد القاهر عن أبي علي الفارسي كثيراً مثل :

١ - أن إنما بمعنى ما وإلا .

٢ - وأن مثل «كريي كراكا» يجعل الأولى خبراً .

(ج) وتأثر عبد القاهر بالسيرافي في دفاعه ضد الرأي القائل بأنه لا  
جدوى في التوسيع في دراسة علوم العربية ، ومناقشة السيرافي لمنى<sup>(١)</sup> في  
ذلك مشهورة .

وعلى العموم فقد أفاد عبد القاهر من سيبويه في دراسته لخصائص  
النظم ، وهذا ما حدا بالشيخ أحمد المراغي إلى عد سيبويه أول واسع لعلوم  
البلاغة .

(د) ونقل عبد القاهر عن المربزاني صاحب الموضع أمثلة أخذ فيها  
الشاعر معنى من آخر وصياغة حسنة فاستبدَّ به .

وروى عنه شرعاً لطفيل تمثل به أبو بكر .

---

(١) الامتناع والمؤاسة للتوحيد ، معجم الأدباء ج ٨ في ترجمة السيرافي - ٢٢٥ - ٢٢٧ الأسرار

ونقل عنه كلمة أبي نواس في بيته «الطير غدوته» وسبق النابغة للمعنى .

ونقل عنه جملة في تمثيل ابن الخطاب بالشعر .

(هـ) نقل عبد القاهر عن ابن قتيبة كلمة له بدون أن يشير إليه . وهي أن «الشعر ما حسن لفظه ومعناه ، ومنه ما حسن لفظه فقط ، أو معناه فقط» ، وهي في مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وتأثر عبد القاهر بالجاحظ كثيراً جداً في كتابيه الأسرار والدلائل :

١ - فما كتبه عبد القاهر عن البيان يتجلّى فيه روح الجاحظ .

٢ - وذكر أخذًا من الجاحظ أنواع الدلالات على المعاني الإشارة والخط والعقد واللفظ .

٣ - وفضيلة الكلام لنظمه لا لفظه هو روح كلام الجاحظ .

٤ - ولا يقبل من السجع إلا ما طلبه المعنى والطبع بدون تكلف واستكراه ، وهي فكرة استمدّها عبد القاهر من الجاحظ .

٥ - وجمال اللفظ ومزيته في أن يكون مألوفاً متداولاً ليس وحشياً ولا سوقياً ، هذا الكلام هو روح كلام الجاحظ .

٦ - ويحمد «من الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى سمعك ، وهو كلام الجاحظ ، أخذه عبد القاهر عنه .

٨ - ونقل مقدمة الجاحظ للحيوان «جنبك الله الشبهة الخ» .

ونقل عنه كلمة في إعجاز القرآن ، وكلمة في اختيار رواة الأخبار للبلية من الكلام . ونقل عنه رأيه في النعي على من يقدم الشعر لمعناه .

ونقل عنه كلمة «من أصر من يقال : لم يدع الأول والآخر شيئاً» .

ونقل عن كلامه عن المتقربين «رسالة الجاحظ إلى ابن الزيات» .

بل إن كثيراً من مثل عبد القاهر وشواهد مأخوذ من البيان والتبيين ، وذلك ظاهر جلي لا داعي لذكره .

## بين عبد القاهر وابن سنان:

عاصر ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ - ٤٧١ هـ) شيخ البلاغة والبيان عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ - ٤٥٦ هـ) كما عاصر ابن رشيق صاحب العمدة (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ).

فعبد القاهر عاش في جرجان، والخفاجي في حلب، وابن رشيق في القيروان. وألف الأول أسرار البلاغة ولدائل الإعجاز، من حيث ألف الثاني كتابه «سر الفصاحة»، وألف الثالث كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده».

فأما الصلة الباقية بين ابن رشيق وابن سنان فمصدرها اعتماد الرجلين في تأليفهم على مصدر واحد له أهمية وهو نقد الشعر، فكان كتاب العمدة وكان كتاب سر الفصاحة تجديداً يسير حول منهجه قداماً في النقد.

وللآن لا تتجلى صلة واضحة بين الخفاجي والجرجاني ولا يظهر أي أثر للتشبه أو للتأثير بين الرجلين، اللهم إلا في مواضع قليلة:

فقد ذكر ابن سنان - كما ذكر عبد القاهر - شبهة الذين زعموا أن الحكاية هي المحكى، ودليلهم عليها أن الحكاية لو كانت غير المحكى بل مثله لكان من قرأ القرآن آتياً بمثله على الحقيقة، وأجاب الخفاجي عن هذه الشبهة كما أجاب عبد القاهر في دلائله بأن التحدي إنما وقع بفعل مثل القرآن على الابتداء دون الاحتذاء، وبالتالي للقرآن قد أتى بمثله محتذياً. فلا يكون بذلك معارضاً، وعلى هذا أيضاً كان يقع التحدي بين العرب بالشعر على سبيل الابتداء.

ورأيي أن ذلك مصدره هو التشبيه بين الثقافة العامة في عصر الرجلين لا غير.

وعلى ذلك فلم يتأثر الخفاجي ولم يتتأثر الجرجاني بالخفاجي ولو أن الرجلين أطلاع أحدهما على مجهد الآخر في دراسة البلاغة لكان لذلك أثره الخطير في تحويل مناهج البحث البلاغي.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن مؤلف الخفاجي أعمق تفكيراً وأشمل فكرة وأوسع مدى وأبلغ بياناً من كتابي الجرجاني «الأسرار ولدائل».

ويذهب باحث إلى خلاف هذا الرأي فيقول في ذلك ما نصه<sup>(١)</sup>:

وبعد فإنه لم يكن التأليف في البلاغة قبل عبد القاهر قد استقل بالابحاث البلاغية وتخلص مما يشوبه من مواضع أخرى أدبية أو نحوية أو غير ذلك، فكنت تجد الكتاب يحوي مسائل ليست من صميم العلم في شيء، وتجده غير منظم التنظيم الذي استحدث فيما بعد، وكتاب «سر الفصاحة» من هذا النوع، يذكر مسائل من صميم المعانى فيما هو من مباحث البيان، ويقحم المسائل البدعية في غيرها مما هي من موضوع البيان والمعانى، ويضيف إلى ذلك نقولاً أدبية، وبحوثاً هي إلى الأدب أقرب منها إلى غيره، فنراه يتكلم عن المفاضلة بين شعر المتقديرين والمحدثين، ويوازن بين المنظوم والمثور، ويذكر الكمية والطرماح ابن حكيم وعدم احتجاجهم بشعرهما، ويتحدث عن عيب النقاد على جرير والفرزدق طول مقامهما في الحضر إلى غير ذلك وهذا هو الطابع العام لكتاب «سر الفصاحة» وهو وإن كان متأثراً بطريقة عصره ومذهب السابقين عليه إلا أنها حين نوازن بينه وبين عبد القاهر، وكلاهما معاصر لصاحبة يعيش معه في بيئه واحدة، وتظللهما ثقافة واحدة أو متقاربة، نجد الثاني سبق الأول بأشواط بعيدة في هذا المضمار، وذلك أن الجرجاني قد استوفى أبحاثاً بلاغية في كتابه مما خلا «سر الفصاحة» منها كالمجاز المرسل والمجاز العقلي والفصل والوصل والخبر والإنشاء إلى غير ذلك مما لا يحدث ابن سنان عنه، وظهرت في كتب عبد القاهر مميزات لم يتمتع بها سر الفصاحة، من تخلص العلم من الأمور الأجنبية عنه، ومن قربه إلى التحديد العلمي والتنسيق المنظم، والاستيفاء الشامل، ولكن لعل من الإنصاف أن نلتمس للخفاجي في ذلك عذرًا، فقد كان والياً، ونحن وإن كنا لم نعرف مدة ولايته إلا أنها على أي حال قد شغلت نفسه كثيراً. وقد كان الخفاجي شاعراً، وللشاعر نزعة هي وحي الإلهام وسنته الخاطر.

وبعد: فلسر الفصاحة منزلة كبيرة في البلاغة. فإن كان ابن المعتز قد ألف كتابه البديع، وقدامة ألف نقد الشعر، وأبو هلال قد ألف الصناعتين وابن

---

(١) من بحث شره د. كامل العقبي في مجلة الأزهر عن ابن ساد عام ١٩٤٨

رشيق قد ألف «العمدة»، فحسبنا أن نذكر ابن سنان ومؤلفه القيم (سر الفصاحة)، فإنه حلقة بين هذه الكتب وبين كتاب عبد القاهر والسكاكبي ومدرسته، فإن ابن سنان كان كعبد القاهر: كلاهما بني للبلاغة العربية صرحاً شاهقاً تعزز به وتتفتخر، وكلاهما أقام ببحوث البلاغة على نهج جديد كان أساساً لبحوث البلاغيين من بعد.

وإذا كانت الفكرة الأولى عند عبد القاهر حين ألف في البلاغة هي الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقةه، فإنها كذلك هي الفكرة التي كانت تسيطر على عقل ابن سنان وتفكيره، كلا الرجلين ابتدأ بقضية الإعجاز، وخرج منها صفر اليدين، لم يهتد إلى أمنيته المنشودة، ولكن ابن سنان يرى أن سر الإعجاز هي صرف الله الناس عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، وعبد القاهر يرى أن سره هو دقائق ولطائف في نظم القرآن الكريم أعجزت القائلين، وأسكتت صوت المحدثين، أو قل أن سر الإعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحتوي عليه هذه الكلمات من معان.

هذا وقد تأثر السكاكبي ومدرسته بعد القاهر وآرائه البيانية إلى حد بعيد، ويتجلى ذلك في «مفتاح العلوم» للسكاكبي وفي «الإيضاح» للقزويني وفي سائر كتبهم. وذلك واضح لا يحتاج إلى بيان.

ولم يشر ابن الأثير صاحب «المثل السائر» م ٦٣٧ هـ إلى عبد القاهر ولكن نقل عنه جملأ في الحذف<sup>(١)</sup> وسار على أن السجع لا بد أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى كما فعل عبد القاهر.

---

(١) ٢٠٣، ٢٠٤ و ١٩٥ المثل التاجر

# منهج عبد القاهر

في «أسرار البلاغة»

- ١ -

أسرار البلاغة كتاب مشهور رائع، ألفه الإمام عبد القاهر الجرجاني (٤٠٠ - ٤٧١ هـ)، ويعد من أهم الأصول والمصادر - في النقد والبلاغة العربية.

ويشرح لنا عبد القاهر غرضه من الكتاب فيقول:

اعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى، كيف تتفق وتختلف، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفضل أجناسها وأنواعها، واتتبع خاصتها ومشاعها، وأبين أحوالها، في كرم منصبها من العقل، وتمكنها في نصابه، وقرب رحمها منه، أو بعدها حين تنسب عنه، وكونها كالحليف الجاري مجرى النسب، أو الرنين الملخص بالقوم لا يقبلونه ولا يمتعضون له ولا يذسون دونه<sup>(١)</sup>. تم يردد ذلك بقوله: وإن من الكلام ما هو شريف في جوهره كالذهب الإبرير، الذي تختلف عليه الصور، وتعاقب عليه الصناعات، وجل المعول في شرفه على ذاته، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته، ومنه ما هو كالصناعات العجيبة من مواد غير شريفة، فلها، ما دامت الصورة محفوظة عليها، قيمة تغلو، ومنزلة

(١) ١٧ و ١٨ أسرار اللاءة تعليق محمد رشيد رضا، ط ١٩٥٩ - مكتبة محمد صبيح بدرب الدفاع

تعلو<sup>(١)</sup>، ثم يقول: وأول ذلك وأولاً، وأحقه بأن يستوفيه المنظر ويقتصاه، القول على التشبيه والتتمثل والاستعارة فإن هذه أصول كثيرة، جل محسن الكلام إن لم نقل كلها، متفرقة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه النصوص يوضح لنا فيها عبد القاهر أموراً كثيرة:

١ - فهو يذكر أولاً أن جل اهتمامه في الأسرار موجه إلى التشبيه والتتمثل والاستعارة وقد عني بها حقاً عبد القاهر في الكتاب عنابة فائقة، وأشارك معها في البحث في هذا الكتاب الكنية والمجاز وبعض ألوان المحسنات البديعية كالتجنيس وال-song والمبالغة والطباقي والأخذ والسرقة، وغير ذلك

٢ - ويدرك ثانياً أنه يعني بذلك لبيان أمر المعاني في اتفاقها واختلافها وصلتها بالعقل وقربها منه أو بعدها عنه، ويريد عبد القاهر بالمعاني هنا ما يريده بها في قوله: إن المطابقة والاستعارة وسائل أقسام البديع لا شبهة أن الحسن والقبح لا يعرض الكلام بها إلا من جهة المعاني خاصة<sup>(٣)</sup>، ويفسر لنا ذلك رأيه في أن الاختصاص - أي البلاغة - في ترتيب الكلم يقع في الألفاظ مرتبة على المعاني المرتبة في النفس<sup>(٤)</sup>، مريداً بالمعاني هنا معاني النحو التي يذكرها في تعريف النظم وأنه توخي معاني النحو فيما بين الكلم، فليس المراد من كل ذلك إلا تقرير أن بلاغة التشبيه والتمثل والاستعارة وغيرها راجعة إلى النظم أو هي بسبب منه، فحديه عنها في هذا الكتاب إنما هو تطبيق على نظريته في النظم التي يجعل بلاغة الكلام راجعة إليه، ويؤكد ذلك قوله في آخر كتابه «دلائل الاعجاز»: وجملة الأمر أنها ما رأينا في الدنيا عافلاً اطرح النظم والمحاسن التي هو السبب فيها من الاستعارة والكنية والتتمثل وضرور المجاز والإيجاز، وصد بوجهه عن جميعها، وجعل الفضل

(١) ١٨٠ المرجع

(٢) ١٨٠ أسرار البلاغة

(٣) ١٤ سطر ١ و ٢ أسرار البلاغة

(٤) ص ٢ و ١٣ المرجع نفسه

كله والمزية أجمعها في سلامة الحروف<sup>(١)</sup> حيث يقرر أن البلاغة إنما هي في النظم وفي المحسن التي هو السبب فيها في الاستعارة والتمثيل والكتابية الخ، ونظريته في النظم هي موضوع كتابه «دلائل الإعجاز»، ورأيه في المحسن - التي يرجع السبب فيها إلى النظم - في الاستعارة والتمثيل الخ هو موضوع كتابه «أسرار البلاغة».

٣ - فعبد القاهر إذا تدور أفكاره التي كتبها في كتابه حول فكرة واحدة لا فكريتين، وهذه الفكرة هي أن البلاغة ترجع إلى النظم والصياغة سواء فيما يتصل بالأسلوب أو بأهم عناصره من التشبيه والتمثيل والاستعارة والكتابية والمجاز الخ، وقد بحث بلاغة النظم في الدلائل وبلاعنة التشبيه وأخواته في الأسرار الذي يقرر فيه أن بلاغة هذه الألوان راجعة في الحقيقة إلى النظم، بلاغة الاستعارة عنده راجعة إلى نظم عبارتها وما بين المعاني من الارتباط<sup>(٢)</sup>، وليس المزية التي يثبتها للكتابية على الإفصاح راجعة إلى نفس المعنى الذي يقصد المتكلم إليه، ولكن المزية في طريق إثبات هذا المعنى<sup>(٣)</sup>، وكذلك الأمر في التشبيه، بلاغة كل هذه الألوان تعود إلى الذي هو ارتباط معاني الكلم بعضها ببعض وترتبط بعضها على بعض على وفق ترتيبها في الذهن، وانظر إلى قول عبد القاهر في دلائله في شرح الاستعارة في بيت ابن المعز المشهور:

سألت عليه شعب الحي حين دعا  
أنصاره بوجوه كالدنانير  
قال: فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها  
الحسن، وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخي في وضع الكلام من التقديم  
والتأخير، ونجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازته<sup>(٤)</sup>.

فمن الخطأ ما ذهب إليه خلف الله في كتابه «من الوجهة النفسية في  
دارسة الأدب ونقده» من أن دارسة الفن الأدبي تعتمد على ناحيتين: ناحية

(١) ص ٤٠٢ دلائل الإعجاز (طبع المثار ١٣٣١ هـ)، ص ٣٣٢ الدلائل طبع المكتبة محمودية.

(٢) الأسرار ط ١٩٣٩ - عيسى الحلبي ص ١٤، ١٥.

(٣) الدلائل ط ١٣٣١ ص ٥٦ (ط ١٢٣٧).

(٤) الدلائل ص ٦٨ ط المكتبة محمودية وتحقيق المراعي.

البناء والنظم والتركيب، وهذا ما درسه عبد القاهر في دلائل الاعجاز، وناحية الصياغة والتصوير والجمال وهي - ما درسه عبد القاهر في أسرار البلاغة<sup>(١)</sup>. ذلك أنه ليس هناك فاصل فكري بين الكتابين، فضلاً عن أن هاتين الناحيتين اللتين ذكرهما خلف الله إنما هما ناحية واحدة وفكرة واحدة. ويتابع خلف الله شرح رأيه فيقول إن مقياس الجودة الأدبية عند عبد القاهر هو تأثير الصورة البينية في نفس متذوقها، وهذه هي الفكرة الرئيسية التي تبرز في أسرار البلاغة<sup>(٢)</sup> وهو يريد ربط (الأسرار) بالمذهب النفسي في دارسة الأدب ونقده، وقد يكون ذلك صحيحاً لو أنها جعلنا هذا الربط هو أحد ما اتجه إليه عبد القاهر في كتابه أسرار البلاغة من أهداف، لا أن نجعله هو كل ما اتجه إليه، أو الغاية والهدف له من الكتاب.

إذا كان عبد القاهر قد دارت فكرته في الدلائل حول البلاغة وأنها تكون في النظم، وأن النظم هو تعليق معاني الكلم بعضها ببعض، فإن فكرته في الأسرار تدور حول ذلك أيضاً لإظهار أسرار هذه المعاني في التشبيه وأخواته، فدلائل الاعجاز موضوع نظرية عامة في الأدب لاتصالها بالاعجاز أما «أسرار البلاغة» فشرح وتطبيق لهذه النظرية على التشبيه وأشباهه، لأن ذلك وثيق الصلة بالخلق الأدبي، ففي الدلائل يتناول الجرجاني شرح المقياس الذي يقاس به الاعجاز وهو النظم، وفي الأسرار درس أبواب التشبيه ونظائره دراسة يتضح منها اعتماد هذه الأبواب على فكرة النظم. فلا تنكشف بلاغتها إلا على أساسها، ففكرة النظم التي بسطها عبد القاهر في الدلائل هي الفكرة نفسها في الأسرار<sup>(٣)</sup> وهذه الفكرة تقوم على الربط بين ألفاظ الأسلوب ومعانيه، فالمعاني التي يؤديها الأسلوب، وهي معاني النحو وأحكامه، ينظر إليها عبد القاهر في كتابيه نظرة أساسية و يجعلها أساس كل خلق في العمل الأدبي وهذه نظرة سائدة في الكتابين معاً<sup>(٤)</sup>.

(١) ٧٤، ٧٥ من الورقة النفسية ط ١٩٤٧.

(٢) ٩٢، ٩٦ المرجع.

(٣) راجع ١٨٥ البيان العربي لطباعة - طبعة ثلاثة

(٤) ص ٣ سطر ٦ - ٩ أسرار البلاغة ط ١٩٥٩ - تعليق محمد رشيد رضا

٤ - فليس هناك على الإطلاق أي اختلاف في كلام عبد القاهر في كتابيه؛ وليس هناك اضطراب في موقف عبد القاهر من البلاغة - ومن قضية اللفظ والمعنى.

- ٢ -

إن البلاغة عند عبد القاهر:

١ - لا ترجع إلى اللفظ وحده، وفي ذلك يقول عبد القاهر في أول كتابه «أسرار البلاغة»: أما رجوع الاستحسان إلى اللفظ، من غير شرك من المعنى فيه، فلا يكاد يعود نمطاً واحداً، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم، ولا يكون وحشياً غريباً، أو عامياً سخيفاً<sup>(١)</sup>، ويؤكد أن البلاغة ليست في اللفظ بل في النظم بما يقرره من أن الاختلاف في فصيلة الكلام وبلامغته ليس بمجرد اللفظ بل بالنظم.

ويرد على من يحاول الاعتراض على عبد القاهر بالتجنيس فيقرر أن بلامغة التجنيس ليست باللفظ وحده، بل لا تم إلا بنصرة المعنى أي النظم.. وهذا هو ما يقرره عبد القاهر من أن البلاغة إنما هي في النظم لا في اللفظة المفردة.

٢ - وكذلك لا ترجع البلاغة عند عبد القاهر إلى المعنى وحده، فإن من الداء الدوى غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل من الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى، يقول: ما في اللفظ لولا المعنى، وهل الكلام إلا بمعناه، فأنت تراه لا يقدم شعرأ حتى يكون قد أودع حكمة وأدبأ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر، فإن مال إلى اللفظ شيئاً لم يعرف غير الاستعارة، وإن الأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق لأننا لا نرى متقدماً في علم البلاغة إلا وهو ينكر هذا الرأي ويعيشه<sup>(٢)</sup> وليس ذلك في رأي عبد القاهر ناشئاً عن الجهل بأن المعنى إذا كان أدبأ أو حمكة أو كان غريباً نادراً، كان أشرف من غيره، ولكن لأن التقديم إذا كان على أساس

(١) ص ٢ سطر ٢ - ١٠ المرجع

(٢) راجع ١٦٤ دلائل الإعجاز المكتبة المحمودية.

المعنى - هذا - لم يكن للكلام من حيث هو شعر وكلام<sup>(١)</sup>. وهذا هو نفس ما يقرره عبد القاهر في الدلائل وفي أسرار البلاغة، وما قرره الجاحظ من قبل من أن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي<sup>(٢)</sup>.

٣ - وإنما ترجع البلاغة عند عبد القاهر إلى النظم باعتباره توخيًا لمعاني النحو فيما بين الكلم، فالبلاغة تعود إلى معاني الأسلوب، والنظم هو مظهر هذه البلاغة، وهذه المعاني التي يفاض عبد القاهر في شرحها وبيان أسرارها في كل أسلوب وفي كل تصوير: وهو ما أشار إليه الجاحظ من قبل من أن الشأن في إقامة الوزن، وتحثير اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج. وفي صحة الطبيع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من الصبغ، و الجنس من التصوير.

### - ٣ -

وهكذا تجد عبد القاهر في الأسرار يؤكّد نظرته التي ذهب إليها، وهي أن البلاغة لا تعود إلى اللفظ بل إلى النظم من حيث هو مراعاة لمعاني النحو فيما بين الكلم، ويؤكّد هذه القضية في كل مجال حتى في باب الجناس والسجع فلا نجد تجنّيساً مقبولاً سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه<sup>(٣)</sup>. وكذلك لا شبهة في أن المطابقة والاستعارة وسائر أقسام البديع لا يعترضها الحسن والقيمة إلا من جهة المعاني خاصة<sup>(٤)</sup> ثم يفسر لنا عبد القاهر غرضه من كتابه (الأسرار)، ويؤكّد نظريته في النظم ومعاني النحو.

وينتقل بعد ذلك إلى الكلام على الاستعارة<sup>(٥)</sup>، ثم التشبيه والتمثيل<sup>(٦)</sup>، ثم الفرق بين الاستعارة والتمثيل<sup>(٧)</sup>، ويشرح الاستعارة

(١) ١٦٦ المرجع نفسه

(٢) ٤٠٣ و ٤٤ الحيوان طبعة الشاسي - القاهرة ١٣٢٣ هـ

(٣) ص ٧ سطر ١ و ٢ أسرار البلاغة ط ١٩٥٩

(٤) ص ١٤ سطر ١ و ٢ أسرار البلاغة ط ١٩٥٩ .

(٥) ٢٠ - ٦٤ المرجع

(٦) ٦٤ - ١٩٢ المرجع

(٧) ١٩٢ - ٢٠٧ المرجع

الممثيلية<sup>(١)</sup>، ويتحدث عن الأخذ والسرقة<sup>(٢)</sup>، وينبدأ بتقسيم المعاني إلى عقلية وتخيلية ويتكلّم عن كلّ قسم منها وصورة وألوانه<sup>(٣)</sup>.. كما يتكلّم على الأخذ والسرقة، وعلى أقسام المعاني من عقلية وتخيلية، وعن المجاز العقلي واللغوي والمجاز بالحذف.. وبذلك ينتهي الكتاب.

ويشرح لنا عبد القاهر سر ترتيب فصول الكتاب فيقول: اعلم أنّ الذي يوحّيه ظاهر الأمر أنّ نبدأ بجملة من القول في الحقيقة والمجاز، وتنبع ذلك القول في التشبيه، التمثيل، ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما، ونأتي بها في أثرها، وذلك أنّ المجاز أعم من الاستعارة، والواجب أن نبدأ بالعام قبل الخاص، والتشبيه كالأصل في الاستعارة، وهي شبيهه بالفرع له. أو صورة تقتضيه من صوره، إلا أنّ ها هنا أموراً اقتضت أنّ تقع البداية بالاستعارة وبيان صور منها، والتتبّيه على طريق الانقسام فيها، حتى إذا عرف بعض ما يكشف عن حالها، عطف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين، فوفى حقوقهما، وبين فروقهما، ثم ننصرف إلى استقصاء القول في الاستعارة<sup>(٤)</sup>.

#### - ٤ -

وإذا كان عبد القاهر قد عرض للتشبيه والاستعارة والكتابية في الدلائل، فإنما عرض لها لبيان ارتباطها بالنظم والمعنى، بينما عرض لها في الأسرار لمعرفة أقسامها والفارق بين بعضها وبعض، ومعرفة القوي والضعف من هذه الأقسام والأمر في السرقة كذلك، فقد عرض لها في الدلائل لبيان أنّ اللفظ تابع للمعنى وأنّ المعنى يغير بتغيير الصور، وفي الأسرار لبيان أنها إنما تكون في المعاني خاصة.

إن المعنى وحده - الغرض وال فكرة - مشترك عام بين الناس جميعاً، ولكنّه ملك لمن يصوّره ويبيّنه في الأذهان، فلنّاس أفكار واحدة بوجهه

(١) ٢٠٧ - ٢١٠ المرجع.

(٢) ٢١١ المرجع وما بعدها.

(٣) فالمعنى العقلية يتحدث عنها في ٢١١ - ٢١٣ الأسرار، والمعاني التخييلية كذلك

(ص ٢١٤ وما بعدها)

(٤) ١٩٥٩ و ١٩٦٠ الأسرار

التقريب، ولكن الأسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب كما يقول فولتير.

وإلى هذا يذهب النقاد، ويقرر عبد القاهر خاصية الأسلوب، وملوكية كل أديب لأسلوبه، وأن الأسلوب هو الذي يميز بين موهبة وموهبة، وبين شاعر وشاعر، وهذا الأسلوب ليس سرداً لأنفاظ، بل ترتيباً لمعانيها وفق ترتيبها في النفس، فهو المقصود من كلام عبد القاهر على المعنى، وأنه الذي يستحق أن تكون فيه المزية والفضيلة والاختصاص.

ففكرة عبد القاهر في البلاغة أنها راجعة إلى النظم والأسلوب والصياغة والتصوير، وأن هذا الأسلوب هو مجال الإبداع الفني، وموطن الخلق الأدبي، ففيه تميز الموهاب وتختلف الأذواق، وتتبادر المراتب والأقدار، ومن ثم فقد شرح في «الدلائل» هذه النظرية، وبنى عليها تطبيقاً واسعاً في «أسرار البلاغة» لفنون التشبيه والتمثيل والمجاز والكناية وألوان المحسنات البدعية.

ومن ثم فإن دلائل الإعجاز أسبق في التأليف على الأرجح من أسرار البلاغة، فدلائل الإعجاز يتضمن قضية وشرحها، وأسرار يتضمن تطبيقاً واسعاً على بعض دعائم هذه القضية، ولذلك نراه في صدر الكتاب يوجز في بيان هذه النظرية التي بسط الكلام عليها في الدلائل، وهي نظرته في النظم، ثم يبني عليها أحکامه الواسعة الجيدة التطبيق على الاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية والمجاز والأخذ والسرقة، وضرورب المعانى التحقيقية والتخيلية.

## - ٥ -

على أن عقريّة العمل الأدبي تظهر في أمرين:

- ١ - الشكل الذي يختاره الأديب مظهراً للحقيقة الجمالية.
- ٢ - الكلمة من حيث علاقتها اللزومية المرتبطة بمعناها.

أما الشكل (النظم أو الصورة أو الصياغة أو الأسلوب) فقد درس عبد القاهر وجوهه البلاغية في كتابه «دلائل الإعجاز» دراسة مفصلة.

أما ما يتصل بالشكل وهو الكلمة من حيث دلالتها على معانيها اللزومية في المجاز والاستعارة والكناية، وصلة ذلك بالتشبيه والتمثيل، ومن حيث

دلالتها كذلك على المعاني التحقيقية والتخييلية وال通用ية والخصوصية، فإن ذلك كله وثيق الصلة بالخلق الأدبي من ناحية، وبالنظم والصياغة من ناحية أخرى، وهو ما بحثه عبد القاهر في «أسرار البلاغة» بحثاً مفصلاً، وجعله من المحاسن التي يكون النظم السبب فيها.

- ٦ -

وفي كتاب «أسرار البلاغة» تظهر بوضوح ملامة عبد القاهر الجرجاني كناقد من أعظم النقاد العرب، الذين يدركون بأذواقهم أسرار الكلام، ودقائق بلاغاته، ويفرقون بمشاعرهم الفنية بين أسلوب وأسلوب، ولفظة ولفظة، وحرف وحرف.. ومع أن عبد القاهر قد استفاد من جهود النقاد العرب قبله فإنه كان ذروة لم يصل إليها أحد من قبله ولا من بعده، وكان قوة تجديديه كبيرة في الأدب ونقده وفهم موازينه وإدراكه أسرار بلاغاته على السواء.

وفي الأسرار أروع الفصول التحليلية في النقد، والجديد المبتكر من الدراسات لخصائص التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكتابية، وأعمق الآراء وأطوفها في الكثير من مشكلات البيان حتى عصر الجرجاني، ويمتاز كتاب الأسرار بربطه بين النقد والتأثير النفسي للنص الأدبي، وبمحاولاته العديدة في سبيل الكشف عن مدى هذا التأثير، وأثره في بلاغة النص، وكل ذلك مما جعل للكتاب أهمية كبيرة، ومنزلة ضخمة في النقد الأدبي.

- ٧ -

ولقد كان النقاد قبل عبد القاهر الجرجاني يفصلون بين اللفظ والمعنى أو بين الشكل والمضمون، أو بين الصورة والمحتوى، ويتحدثون عنهما كعنصرين مستقلين تمام الاستقلال، وجاء ابن رشيق صاحب العمدة، فحاول إيجاد صلة بين هذين العنصرين. فقال: اللفظ جسم وروحه المعنى، وإذا كان لا يمكن الفصل بين الجسم والروح فكذلك لا يمكن الفصل بين اللفظ والمعنى، إذ هما متلازمان، وهذه هي كانت نظرية النقد اليوناني، فقد أشار أرسطو إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى، وإلى وحدة العمل الأدبي، وأن بين

المعنى واللفظ تلازمَاً دقيقاً، وعند الفلسفة الجماليين الغربيين المحدثين كذلك أن الفصل بين الصورة والمضمون غير ممكن في فهم الجمال الفني وتذوقه والحكم عليه، فهما وجها النموذج الأدبي فليس هناك مضمون بصورة، بل هما شيء واحد، فلا فارق بين المعنى واللفظ في أي نموذج أدبي ، إلا إذا جعلنا المعنى هو الأحساس الأولى عند الأديب قبل أن تستوي في الصورة الأدبية، وهذه لا شأن لنا بها، إنما الشأن في المعاني التي يحتويها النموذج الأدبي، وهي لا توجد قبل وجوده إلا وجوداً غامضاً، إنما يتم وجودها حين تصاغ، وحين تأخذ شكل قالبها المعين، وتبرز واضحة فيه بكل خصائصها الفكرية واللسفية، فمادة النموذج الأدبي وصورته لا تفتران، فهما كل واحدة.. وكان عبد القاهر الجرجاني من أعظم النقاد العرب الذين اهتدوا إلى هذه العلاقات بين الألفاظ والمعاني في الأدب، وسمىها النظم، وعرفه بأنه تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض ، وفند رأي من يجعل مدار البلاغة على اللفظ أو على المعنى ، ورأى أنها إنما هي في العلاقة بين الألفاظ في العبارات وبين المعاني ، وأكد أن ليس الغرض بنظم الكلم أن تتوالت ألفاظها في النطاق، بل إن تنساقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، وهو ما اهتدى إليه فيما بعد أعلام الفلسفة الجمالية مسترشدة بمثل بحوث عبد القاهر الرائدة في الجمال الأدبي وسره وتحليله، بينما تجد أن الكلاسيكيين يرفعون من شأن الصورة أو الشكل ، والرومانسيين يهتمون بالمعنى ويقدمونه على اللفظ ، ودعاة مذهب الفن للفن يحررون النص الأدبي من كل قيود المضمون والمحتوى، ما دام النص يغذي حاسة الجمال فينا، ودعاة الرمزية يهتمون اهتماماً خاصاً بما توحيه الصورة والألفاظ من رموز ومجازات عن طريق موسيقى وأصواتها، ودعاة الواقعية يعودون للاهتمام بالمضمون في النص الأدبي وإن كانوا لا يجردون الشكل من الجمال الفني<sup>(١)</sup>، فإن فلسفة الجماليين تبرز دائماً هذه الصفات النقدية صورة للمشاعر الفنية التي تؤكد وحدة العمل الأدبي ، وترتبط بين مضامينه وأشكاله برباط وثيق من الوحدة والالتحام ، وفلسفة عبد القاهر اللغوية واضحة

---

(١) راجع في هذا ١٦٢ - ١٩٦ في النقد الأدبي لشوفي ضيف.

كل الوضوح في أنها ذات قيم جمالية معبرة فلا فارق بين المعنى والصورة عنده في النص الأدبي، واللفظ يستمد بلاغته من أنه ظل للمعنى والمعنى يستمد مزيته من حيث إنه المادة التي يصوغها اللفظ.

وهكذا يصح لنا أن نقول: إن عبد القاهر كان مقدمة رائعة للفلسفة الجمالية كما صورها دعاتها في أوروبا بعد عبد القاهر بقرون كثيرة.

وإذا كان الناقد الإيطالي المشهور كروتسى (١٩٥٢ م) يعتد بالشكل الأدبي ويرى أن الحقيقة الجمالية إنما هي فيه، لا في المضمون، ولا قيمة عنده للفظ المفرد، فإن فلسنته الجمالية تكاد تكون مأخوذة من عبد القاهر الجرجاني، ومقتبسة منه، فالشكل<sup>(١)</sup> عنده هو النظم عند عبد القاهر، وهما معًا يجمعان بين اللفظ والمعنى في الأسلوب، ويتفق الناقدان الكبيران في الاعتداد بالشكل أو النظم وحده في الحقيقة الجمالية، وهكذا تتجلّى لنا عظمة ناقدنا العربي الكبير، الذي كانت فلسنته الجمالية قمة عالية وصل إليها النقد الأدبي.

## - ٨ -

فالغاية الأولى التي يقصدها عبد القاهر من الأسرار هي تحقيق أمر المعاني<sup>(٢)</sup>، وإن ضروب البيان ترجع إلى ائتلاف المعنى أكثر مما ترجع إلى سحر اللفظ، وإن المعنى هو الذي يتطلب كل شيء، وإن المعاني قسمان: معانٍ عقلية ومعانٍ تخيلية، فالمعنى العقلية قد تكون حقيقة، وقد تكون

(١) يحدد كروتسى المضمون بأنه الأحساس أو الناحية الانفعالية قبل صقلها صقلًا حماليًّا، أما التشكيل عنده فهو صقلها وإبرارها في تعبير عن طريق الشاط المكري، ولا قيمة عنده في التشكيل للكلمات الممردة، من حيث هي مادة للتغيير، ولا من حيث الجرس والصوت منفصلين من المعنى والصورة. ومن الحمالين من يجعل المضمون هو التعبير أو الحقيقة النفسية المتحللة في التعبير، وبقصد بالشكل المادة العفل للتصوير الفي كالألوان للتصوير مثلاً، وهذا عكس ما دهّب إليه كروتسى الذي دهّب إلى أن البلاغة في التشكيل والجمالية فيه، كما هو رأى عبد القاهر، فالشكل أو النظم لا فصل بينهما عند الناقددين العالميين، أي بين اللطع والمعنى على ما قررناه.

(٢) أسرار اللاعة

مجازاً واستعارة وتشبيهاً وتمثيلاً ومجازاً عقلياً أو لغويًا، وأما المعاني التخييلية فلها ضروب شتى وأنواع ساحرة.

ثم المعاني خاصية وعامية، والعامية قد تصير بالتحوير والصياغة خاصية، والمعاني الخاصة هي التي يحكم فيها بالسرقة دون العامية.

## - ٩ -

وخلالص بحوث «أسرار البلاغة» هي بيان ما يأتي :

(أ) يذكر فضيلة البيان وألوانه الساحرة، وأن سحر الكلام في حسن نظمه وتأليفه<sup>(١)</sup> :

وقد أوضح عبد القاهر إثر ذلك غايته وفكرته التي يريد إيضاحتها في كتابه، وهي بيان أمر المعاني وأحوالها وتفصيل أجناسها وأنواعها<sup>(٢)</sup>.

(ب) وتكلم على الاستعارة وأقسامها وألوانها في إفاضة<sup>(٣)</sup>.

(ج) وذكر التشبيه والتّمثيل ومظاهرهما وحقيقةهما وبلاغتها وأقسامهما في إفاضة ودقة وتحليل<sup>(٤)</sup>.

وعقد موازنات جيدة بين التشبيه والتّمثيل<sup>(٥)</sup>. وذكر أسلوب التجريد ومنع أن يكون استعارة أو تشبيهاً<sup>(٦)</sup>.

ثم فرق بين الاستعارة والتّمثيل في إفاضة<sup>(٧)</sup>. وفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ<sup>(٨)</sup>.

(١) ١٠ - ١٨ الأسرار.

(٢) ١٩ - ٢٠ المرجع

(٣) ٢٢ - ٧٠ المرجع

(٤) ٧٠ - ١٧٦ المرجع

(٥) ١٧٧ - ٢٠٦ المرجع

(٦) ٢٩٢ - ٢٩٢ المرجع

(٧) ٢٠٧ - ٢٢٣ المرجع

(٨) ٢٧٧ - ٢٩٠ المرجع

(د) ثم تكلم عن المعاني العقلية والتخيلية وألوانها وبلاغة كل منها، وأثر جانب الحقيقة على جانب الخيال وذكر أنه أعز جانباً وأكثر اتساعاً مما يظلون، وحلل معنى قولهم: أعدب الشعر أكذبه، وأنهم إنما أرادوا به التدقير في المعاني والعمل فيها، ولا وصف الوضيع بأوصاف العظيم وما شاكله. كما تكلم على الأخذ والسرقة والاستعارة<sup>(١)</sup>.

(هـ) وأفاض في شرح حدي المجاز والحقيقة، وفي الكلام على المجاز العقلي وحقيقته<sup>(٢)</sup>، وتكلم على أنواع من المجاز اللغوي والمجاز بالحذف، وعلى بعض جوانب الاستعارة... . وبذلك ينتهي الكتاب. ولقد أساء عبد القاهر عرض أفكاره في كتابه الأسرار وكذلك في الدلائل، فخرج تاليه مشوهاً مضطرباً معاداً مكروراً.

ولذلك نجد البحث الواحد قد يكرره في الكتاب، وقد يذكر بعضه في كتاب ويكمله في كتاب آخر:

فالتجنيس والسبع مثلًا بحثهما عبد القاهر في الأسرار<sup>(٤)</sup> وفي الدلائل<sup>(٣)</sup>.

والتعقيد اللغطي تجده مفرقاً في الأسرار<sup>(٥)</sup>.  
 والاستعادة في مواضع متعددة من الأسرار والدلائل... . وكذلك التشيه والتلميل.

والاتفاق والأخذ والسرقة عرض لها عبد القاهر في الأسرار<sup>(٦)</sup> وفي الدلائل<sup>(٧)</sup>.

---

(١) ٣٠٢ - ٢٦٣ المرجع.

(٢) ٣٤٢ - ٣٠٢ المرجع.

(٣) ٤ - ١٤ الأسرار.

(٤) ص ٤٠ الدلائل

(٥) ١٢٠ و ١٥ الأسرار.

(٦) ٣٠٢ - ٢٩٣ الأسرار.

(٧) ٣٩١ - ٢٧٢ و ٢٦٩ الدلائل.

والمجاز العقلي واللغوي أنماض في الحديث عنهما في الأسرار والدلائل، وذكر بلاغة المجاز الحكمي في الدلائل<sup>(١)</sup>.

وتكلم على الكفاية في الصفة وفي الإثبات<sup>(٢)</sup> في موضع عده.

وذكر الشعر وأثره وسحره موزعاً في الكتابين.. إلى آخر هذه البحوث الموزعة المفرقة.

وعبد القاهر عالم لا مؤلف، وحسبك أن كتابه الدلائل صورة مشوهه للتأليف، فهو لا يعرف أن يكتب الفكرة في صفحات مستقلة وإنما هو يبديء، ويعيد، ويأتي من ها هنا وها هنا، ويكرر ويكثر التكرير حتى يخرج إلى الهدن، ويدرك جزءاً من الفكرة هنا وجزءها الآخر هناك، وكذلك كان صنيعه في «الأسرار»، وحسبك أنه بدأ الكلام على الاستعارة وبين الكلام على فرع لم يذكر أصله (وهو التشبيه) فأداه ذلك إلى التكرار والإحاله.

وقصاري القول إن عبد القاهر قد بحث في أسرار البلاغة والمعانى ووجوهاها، وكيف تتفق وتختلف، ومن أين تجتمع وتفترق، وتتبع خاصيتها ومشاعرها، وفصل أجنسها وأنواعها<sup>(٣)</sup>، وخص كثيراً من كتابه ببحث المجاز والاستعارة والتتميل والتشبيه والتخييل لأنها صور المعانى ولأنها القطب الذى تدور حوله البلاغة<sup>(٤)</sup>.

وألف كتابه «دلائل الإعجاز» وأثبت فيه أن المزية والوصف الذي كان به الإعجاز هو الفصاحة والبلاغة والبيان، وأن هذه المزية والفصاحة ليست إلا حسن الدلالة وتمامها وتبهرجها في صورة رائعة من النظم. أو هي أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به<sup>(٥)</sup>، وأنه لا مزية للعبارة على الأخرى إلا بقوة دلالتها على الغرض المقصود، وذلك راجع إلى النظم<sup>(٦)</sup>، ولا مزية في اللفظة المفردة إلا من

(١) ٢٢٧ - ٢٣٦ الدلائل

(٢) ١٣٥ - ٢٤٢ و ٣٤٣ الدلائل

(٣) ص ١٩ الأسرار.

(٤) ٤٩٩ الدلائل.

(٥) ٣٥ الدلائل

(٦) ١٩٩ المرح

جهة ضئيلة<sup>(١)</sup>، وأن الفصاحة والبلاغة راجعة إلى المعاني وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ نفسها<sup>(٢)</sup>، فالالفاظ تبع للمعنى لا العكس<sup>(٣)</sup>، والفصاحة صفة للفظ من حيث إنه دال على المعنى<sup>(٤)</sup>، وليس النظم إلا توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم<sup>(٥)</sup>، فالنظم في معاني الكلم دون ألفاظها بتتوخي معاني النحو فيها<sup>(٦)</sup>، ومداره على معاني النحو ووجوهه وفروقه<sup>(٧)</sup>، وليس للمزية موضع تكون فيه إلا معاني النحو وأحكامه<sup>(٨)</sup>.

ورد على من جعل الألفاظ من حيث هي ألفاظ موضع الفصاحة والبيان وكشف شبههم<sup>(٩)</sup>، كما نهى على من أغفل النظم، وأخذ يبحث عن المعنى وحده بدون التفات إلى الصورة التي خرج فيها والنظم الذي ظهر به<sup>(١٠)</sup>، فهو يعيّب على من يخص بالمزية الألفاظ من حيث هي ألفاظ، ومن حيث هي كلام مفردة، ويعيّب على من ينظر إلى المعنى من حيث هو معنى بدون التفات إلى صورته.

ويجعل البلاغة والبيان والفصاحة راجعة إلى النظم الذي هو ألفاظ منظومة اقتفي في نظمها آثار المعاني وخرجت وفق أحكام النحو ومعانيه ووجوهه.

ولعبد القاهر آراء وأحكام أدبية متعددة على الأدباء والشعراء. في  
الأسرار:

(١) ٣٥ و٣٦ و٤٦ و٤٠ و٥٠ و٣٥٣ المرجع

(٢) ١٩١ و٣١٨ و٣٩٨ المرجع.

(٣) ٤٥ و٥٠ و٢٨٥ و٣٢٠ المرجع

(٤) ٢٥٠ الدلائل

(٥) ٣٠٠ و٤٠٣ الدلائل، ص ١، من المدخل للدلائل، ٦٤ و٦٨ الدلائل

(٦) ٣١٧ الدلائل

(٧) ٦٩ الدلائل.

(٨) ص ٣٠١ الدلائل.

(٩) ٢٨٨ و٣٠١ و٣٤٨ المرجع.

(١٠) ١٩٤ - ١٩٨ المرجع

(أ) فقد ذكر أبا تمام واستكراهه للألفاظ في سبيل طلب التجنيد<sup>(١)</sup> وأشار إلى تعسفه في اللفظ وإلى أخطائه مما جناه عليه التهاون، وعدم مبالاته في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين اللفظ<sup>(٢)</sup>.

(ب) وذكر البحتري وتقريره المعنى بعيد بالتسهيل في الأسلوب<sup>(٣)</sup>.

(ج) وذكر ابن المعتر وأن طريقه طريق أبي تمام وأنه لم يكن من المطبوعين<sup>(٤)</sup>.

## - ١٠ -

هذا هو جوهر كتاب أسرار البلاغة.. غير أن لي نقداً عليه في جعله الاستعارة من المعاني التحقيقية دون التخييلية، وإنني أرى أنها تخيل لا تحقيق:

قال عبد القاهر: إن الاستعارة ليست من باب التخييل.. إنما هي من باب التحقيق:

(أ) لأن المستعير لا يقصد إثبات معنى اللفظة المستعارة وإنما يقصد إثبات شبه هناك.

(ب) وجودها في القرآن والحديث يؤيد ذلك.

(ج) ثم هي تعتمد التشبيه والتشبيه قياس والقياس يجري في المعقول<sup>(٥)</sup>.

(د) وفرق بين التخييل الذي هو إثبات أمر غير ثابت أصلاً بين الاستعارة التي يثبت بها أمر عقلي صحيح<sup>(٦)</sup>.

---

(١) ١١ الأسرار

(٢) ١٢١ والأسرار.

(٣) ١٢٤ الأسرار

(٤) ٢٦٢ الأسرار

(٥) ٤١ و ٢٣٧ الأسرار

(٦) ٢٣٨ و ٢٣٩ المرجع.

(هـ) وآراء علماء النقد كالآمدي والجرجاني وسواهمما تؤيد ذلك<sup>(١)</sup>.

وأقول: إن الاستعارة لا تعتمد التشبيه أبداً وإنما هي مبنية على جعل حقيقة أخرى على سبيل المبالغة<sup>(٢)</sup>.

ودليلنا على ذلك ما يأتي :

(أ) أن نوعاً من الاستعارة وهو العنادية لا تشبيه فيه<sup>(٣)</sup>.

(ب) الاستعارة مبنية على التخييل لا على الحقيقة، والتحليل لا يعتمد التشبيه.

(ج) قالوا: إن هناك استعارة شديدة التخييل يتناسى فيها المستعير التشبيه. ويصرف النفس عن مذهبها، مثل:

ويصعد حتى يظن الجھول بأن له حاجة في السماء<sup>(٤)</sup>

(د) في الاستعارة الصحيحة ما لا يحسن دخول أدوات التشبيه فيها<sup>(٥)</sup> وذلك كالنور إذا استعير للعلم والظلمة للجهل مثلاً، وكلما كان الشبه بين الشيئين أخفى وأدق وأغمض وأبعد من العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن.

(هـ) على أن الاستعارة في الادعاء لا في النقل<sup>(٦)</sup>.

وقد تكلم عبد القاهر في الأسرار عن الاستعارة المكينة وحلل أساليبها.

وهي عندي استعارة تمثيلية حذف بعض أجزائها بدليل ما يأتي :

(أ) أن المشبه فيها لا يمكن أن يكون ذاتاً أو شبه ذات ينص عليه ويشار إليه.

---

(١) ٣٤٦ المرجع

(٢) ٢٧٨ المرجع

(٣) ٦٨ المرجع.

(٤) ٢٦٢ - ٢٧٧ الأسرار.

(٥) ٢٨٨ و ٢٨٩ المرجع

(٦) ١٣٥٤ الأسرار، ٢٨ ، الدلائل

(ب) وأن المشبه به في مثل يد الشمال ليس هو اليد التي ذكرها لبيد في بيته بل هو ما أضيف إليه اليد<sup>(١)</sup>.

(ج) ويظهر روح التمثيل في بعض أمثلتها بوضوح وجلاء، وفي البعض الآخر تدق فيها فكرة التمثيل.

## تهذيب الأخلاق لابن مسكونيه

- ١ -

نحن مع حضارة العقل العربي المبدع في القرن الرابع والخامس وهم اقمة عصور الابتكار والتجديد في التراث العربي .

مع عالم كبير هو الإمام ابن مسكونيه أحمد بن محمد (٣٣٠ - ٩٤٢ هـ = ١٠٣٠ م)، الفارسي الأصل، العربي النشأة والثقافة واللغة، من أئمة الإسلام، وأعلامه الخالدين، حيث عاش في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، وكان ميلاده بالري، ووفاته في بغداد دار السلام، وعاصمة الإسلام الكبرى .

وقد درس على المنهج الدراسي القديم المألوف في عصره في المدارس العربية. فدرس اللغة والنحو والصرف والشعر والأخبار والفلسفة والطب وعلم العدد - الحساب - وشارك في علوم كثيرة، حتى ذاع فضله، وانتشر صيته في كل مكان، وقربه إليه عضد الدولة البوهي، فعينه خازناً لدار الحكمة، فصار أثيراً عنده، مقرباً لدبيه، ونشر علمه وفضله في أفاق ملكه .

عاش ابن مسكونيه في العصر البوهيمي، الذي ازدهرت فيه الثقافة والمعرفة فكان أحد الذين جمعوا بين ثقافات الإسلام وثقافات الإغريق، وألموا إماماً واسعاً بطرق من حكمة اليونان والروم والهند والفرس، إلى حكمة العرب وتجاربهم، وكان اتصاله بالورير المهملي (المتوفى عام

٣٥٢ هـ - ٩٦٣ م)، ثم بابن العميد الوزير (المتوفى عام ٣٦٠ هـ - ٩٧١ م) ثم بابنه أبي الفتح (المتوفى عام ٣٦٦ هـ - ٩٧٧ م)، ثم بعاصد الدولة بن بويه بعد ذلك، من الأسباب التي أنمّت تجاريته وحكمته، وساعدته على الاتصال بكل جوانب الثقافة العربية والمتدرجة، خاصة أنه عاش في عصر انقسام الخلافة العباسية إلى دولات، وظهور القوميات المستقلة، وأنه كذلك قد عمر طويلاً، حتى اتسعت خبرته بالحياة، وزادت معارفه في شتى جوانب الثقافة.. وبخاصة الفلسفة. وكانت الفلسفة العربية الإسلامية قد نمت وتعددت مذاهبها، وازدهرت حلقاتها العلمية وتولى جيل الفلاسفة المسلمين، جيلاً أثراً جيل، وإذا كان من أئمتها أبو إسحاق الكندي (٨٥٢ هـ - ٨٦٦ م) في القرن الثالث، فقد نبغ فيها في القرن الرابع: المعلم الثاني الفارابي (٣٣٩ هـ)، وابن سينا (٤٢٨ هـ - ١٠٤٧ م)، وابن مسكويه وجماعة إخوان الصفا، وسواهم من أعلام الفكر العربي، وقرأ ابن مسكويه للسائلين والأقدمين، واطلع على أصول الفلسفة الإغريقية، إلى ثقافته الإسلامية الرفيعة، حتى صار يشار إليه بالبنان بين الفلاسفة والحكماء.

ومن مؤلفاته الفلسفية كتابه المشهور: *تهذيب الأخلاق*، وكتبه: ترتيب السعادات والفوز الأكبر، والفوز الأصغر. وألف في الطب، وله في التاريخ كتاب قيم هو «تجارب الأمم».

وهكذا كان موسوعة في كل فن، ومرجعاً في كل علم، وأستاذًا كبيراً، تتلمذ عليه، وتخرج به أعلام الفكر الإسلامي في القرن الخامس الهجري وما بعده من قرون وأجيال.

## - ٢ -

وكاب «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه يعد أصلاً فريداً من أصول الثقافة الإسلامية، وقد كتبه للعلماء ومحبي الفلسفة، ليعالج به مشكلات الحياة والسلوك، وليصل - كما كان يحلم - بالمطلع عليه إلى السعادة المنشودة، وقد تأثر في منهجه فيه بالمعلم الأول أرسطو في كتابه «الأخلاق».

وكان ابن مسكويه من التجارب الكثيرة في الحياة ما يدفعه إلى الكتابة في الأخلاق، ليرشد الناس للفضيلة والسعادة والطرق التي تؤدي إليهم. ويوضح هذا من عهده الذي كتبه لنفسه وهو سطور في كتاب «المقاييس» للتوحيد (٤١٣ - ٥٢٢ م).

وب قبل أن نتعرف إلى فلسفة الأخلاق عند ابن مسكويه يصح لنا أن نتساءل: ما هي الفلسفة؟ وما هي الأخلاق؟ وما الصلة بينهما؟.

والفلسفة هذه الكلمة المعرفة عن اليونانية مأخوذة من كلمتي فيلوس بمعنى محبة، وسوفيا بمعنى الحكم، فمعنى الكلمة إذن محبة الحكم، ومعنى الفيلسوف هو محب الحكم، وكان فيثاغورث (٤٩٧ - ٥٨٢ ق.م.) أول من سمي حب الحكم باسم الفلسفة، يقول بارتلمي سانتهيليز في مقدمة كتاب «الكون والفساد» لأرسطو ترجمة أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد: إن فيثاغورث لما سأله ليون طاغية سيفونيا عن عمله، أجاب بأنه فيلسوف، وهو اسم لم يسمع من قبل في اللغة اليونانية ومعنى الفلسفة عامة قدّيماً تأمل أسرار الكون الإلهية الأبدية الخالدة وبواميسه الثابتة التي لا تتغير، وكان الفلاسفة الإغريق أطاليس: وانكسمندر، وانكسمنيس يسمون أنفسهم حكماء، فأنكر ذلك عليهم فيثاغورث، ودفعه تواضع العلماء إلى إطلاق اسم فلاسفة عليهم وعلى نظرائهم وعلى الأرجح كان سبب ذلك هو إيمانه بأنه لا يصح أن تنسب الحكمة إلى غير الخالق الأبدى، فالحكيم وحده عنده هو الله، ومن ثم استبدل كلمة حكيم بكلمة فيلسوف، أي محب للحكمة، وقد تطور معنى الكلمة تطوراً كبيراً على مختلف العصور.

أما الأخلاق فهي كلمة جامعة تشمل الفضائل والمثل، التي يعتقد بها صفوة الناس وأخيارهم. التي دعا إليها الأنبياء والرسل من القديم، وحصلت عليها الكتب السماوية المقدسة، واصطفاها المفكرون وسيلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وفلسفه الأخلاق هي الأصول الأخلاقية التي يشرعها الفكر للسلوك الإنساني، مما يرجع الأمر فيه إلى فكر المفكرين والفلسفه والحكماء. وذلك مما دعا إليه ابن مسكويه هذا الإمام الكبير، والمربي الروحي العظيم والأستاذ

الرقيق المنزلة عند علماء عصره من مثل آرائه في الفضيلة، وفي نواميس الاجتماع وفي أسس السعادة.

ومع أن شخصية ابن مسكويه شخصية فيلسوف مؤمن بنزعة الاختيار والتوفيق السائدة في كتاباته، إلا أنه اجتماعي يرى لعوامل كثيرة أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده، وعملي كذلك لا يكتب في الأخلاق ليسجل آراءه فحسب، بل يكتب وهدفه الوصول عملياً لتعود الأخلاق الفاضلة، والخلق بها..

ولإذا كان سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧ م) في كتابه «علم الأخلاق» قد عد الفكر والإرادة صفتين جوهريتين لذات الله، ونظر كذلك إلى الحرية على أنها عين ذات الله أو عين فعاليته اللامتناهية في نفوذها إلى كل صور الوجود الممكنة حتى تبلغ ذروة اللامتناهية وفقاً لقوانين ضرورية، وجعل النفس الإنسانية هيئه لصفة الفكر الإلهي. فإنه نظر إلى المعرفة الناتجة عن طريق الحواس على أنها معرفة ظنية، أما المعرفة المحصلة بالعقل فهي عنده معرفة يقينية، فقد سبقه إلى ذلك ابن مسكويه في كتابه وينتهي سبينوزا بمذهبه الأخلاقي إلى نهاية مشرقة أخص خصائصها هذه الصبغة الروحية التي تألفت بها جوانب عقله وقلبه وروحه.. وذلك هو ما سجله ابن مسكويه في كتابه.

ولإذا عدنا إلى كتاب «مبادئ الأخلاق» لجورج مور (١٨٧٣ - ١٩٥٨ م) وجدنا عنده ومضات كثيرة من فيلسوفنا ابن مسكويه وبعد كتاب «مبادئ الأخلاق» أول تطبيق عملي للمنهج التحليلي على مشكلات الأخلاق في الفلسفة المعاصرة، وبحثه عن الخير والسعادة وغيرهما تجد جذورهما عند ابن مسكويه في كتابه الذي جعله ست مقالات متميزة.

ويرى ابن مسكويه أن للنفس ثلاث قوى، كل واحدة منها قد يسوء أو يحسن استعمالها لظروف وأسباب متباعدة، فقد تجنح نحو الإفراط، أو تهبط نحو التفريط فيكون ذلك شرًّا ورذيلة. وقد تكون وسطاً معتدلة، لا إلى هذا ولا إلى ذلك، فيكون هذا خيراً وفضيلة.

ولإذن فالنفس عنده لها ثلاثة فضائل رئيسية بعدد هذه القوى. وتنظم كل فضيلة منها فضائل جزئية تعود إليها، وينسجم هذه الفضائل فيما بينها تكون فضيلة أخرى، هي كمال الفضائل الثلاث السابقة، لذلك أجمع الحكماء على أن أصول الفضائل هي الحكمة والعرفة والشجاعة والعدالة. كما قرر ذلك ابن مسكويه في «تهذيب الأخلاق».

على أن عالمنا الكبير، قد تأثر في هذه النظرية بنظرية الأوساط المعروفة التي شرحها أرسطو ثم الفارابي من بعده شرحاً طويلاً.

ورأى أبو علي بن مسكويه أن النفس فضيلة أخرى هي أشبه بها، وهي التشوف للعلم والمعرفة. والفضيلة عنده هي المعرفة كما ذهب إليه سقراط، والرذيلة هي الجهل. وقد ترك مذهب أفلاطون وأرسطو في ذلك.

ويوضح ابن مسكويه رأيه في ذلك فيقول: «إن من الناس من لا يدرى كيف يحسن إلى نفسه، التي هي محبوسة في قيود من الخطأ، لجهله بالخير الحقيقي. أما من عرف لنفسه كرامتها، واختار لها الخير الحقيقي الذي هو الأعلى. فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات.

والسعادة عنده ابن مسكويه هي الخير التام في نفسه، وهو متاثر في نظريته هذه بآراء فلاسفة الإغريق. على أن السعادة عنده ليست في المتع الحسية، التي لا يطلبها إلا الرعاع وال العامة وطلاب التجارة والكسب حتى في العبادات.

بل إن السعادة عنده هي في أمر واحد هو الحكمة التي يستحق من يحوزها أن يسمى حكيناً وفيلسوفاً، وأن ينال بذلك السعادة الكاملة المنشودة. ومع ذلك كله فقد كان ابن مسكويه اجتماعياً، عرف لجسمه حقه، ولنفسه حقها، ولم مجتمعه حقه

فدعى الإنسان إلى أن ينيل جسمه ما به حياته، وما يتفق مع المروءة، وأن يكمل نفسه العاقلة بالفضائل الخلقية، وبالفضيلة الفلسفية. والإنسان عنده مدنى بالطبع، وقد نظر أبو علي إلى الذين يعيشون عالة على الناس نظرة سخرية واستهجان.

وهكذا كان ابن مسكونيه عملياً في فلسفته الأخلاقية، في كتابه المأثور «نهذيب الأخلاق» يبحث في الفضيلة وبيتها، وفي السعادة ويحددتها. ثم يتبع هذا وذاك يرسم المنهج الذي يؤدي إلى الظفر بهما.

ولم يكن هذا الإمام الكبير متعصباً لرأي، ولا منحازاً مع عصبية. فقد أخذ أصول مذهبة الخلقي من الإسلام الكريم ومع ذلك استفاد الكثير من الثقافتين الفارسية والإغريقية.

لقد مضى على وفاة ابن مسكونيه تسعة قرون ونصف ميلادية، مع ذلك فلا تزال آراؤه في الفضيلة والخير والسعادة وحرية الإرادة وفي المسؤولية الإرادية وغيرها، جديدة.

ويا ليت تراث هذا الإمام الكبير يجد من يعني به تحقيقاً ودراسة وبحثاً ويجد من ينشره في طبعات جميلة تقربه إلى أذهان شباب هذا الجيل.

وكتابه «تجارب الأمم» من أمنع الكتب التاريخية، التي تجعل من فيلسوفنا مؤرخاً كبيراً في عصر جيل الأئمة الكبار من أعلام القرنين الرابع والخامس.

رحم الله ابن مسكونيه، فقد أسدى إلى الفكر العربي الكثير من الأيدياليبيض وترك لشباب العرب تراثاً خالداً، يهتدون به في كل مشكلات حياتنا الفكرية والاجتماعية والسلوكية، وفي كل جوانب تربية النفس الإنسانية، ومحضها على السلوك الإنساني الرفيع، المقترن بالحب والطهارة والطموح والارتقاء في مدارج الفضائل إلى أعلى عليين:

وأسلوب ابن مسكونيه أسلوب أديب بلغه متمنك من الأدب، ملم بثقافات العربية، صاحب ذوق رفيع، وموهبة عالية، وفطرة مطبوعة على الفصاحة والبلاغة:

ولا ريب أنه كان إلى عقله يملك ذوقاً رفيعاً عالياً في صناعة الأدب: وكان أسلوبه أقرب إلى أساليب الأدباء، وأكثر صلة بذوق الأديب.

## رسالة الغفران

لمعري

بعث ابن القارح برسالة إلى أبي العلاء، فرد عليهم أبو العلاء برسالة الغفران.

ويعلل كامل كيلاني لتسميتها الغفران بأن الفكرة الرئيسية فيها، والتي دفعته إلى إنشائها، مناقشة من فازوا بالغفران. ومن حرموها في الدار الآخرة. وكان المعري يكثّر فيها من سؤال الذين يلقاهم في الجنة بقوله: «بم غفر لك؟ كما كان يكثّر من سؤال من يجده في النار: لم لم يغفر لك قوله» . . .

ويبدأ المعري الرسالة بقوله، يخاطب ابن القارح:

وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور، ومن قرأها لا شك مأجور  
وغرقت في أمواج بدعها الرازحة، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة وفي  
قدرة ربنا - جلت عظمته - أن يجعل كل حرف منها شيح نور، لا يمتزج بمقابل  
الزور. ولعل سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معارض من  
الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض إلى السماء بدليل الآية:  
﴿إِلَيْهِ يَصُدُّ الْكَلْمَ الطَّيْبَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ يَرْفَعُهُ﴾<sup>(١)</sup>.

ثم يقول: وفي تلك السطور كلم كثير كله عند الباري - تقدس - أثير.  
وقد غرس لمولاي الشيخ الجليل - إن شاء الله - بذلك الثناء شجر في الجنة  
لذيد الاجتناء. ويصور أبو العلاء ابن القارح وقد ركب نجبياً - أي جملًا  
كريماً - من نجد الجنة خلق من ياقوت ودر. ويسير به في الجنة على غير

(١) سورة فاطر الآية ١٠.

منهج ومعه شيء من طعام الخلود ويلتقي بالأعشى ويحاوره، كما يلتقي بزهير وبعبد بن الأبرص، وعدي بن يزيد وأبي ذؤيب الهذلي، وبالنابغتين وببلبيد.

ويلتقي برضوان خازن الجنة، يرفع صوته ويقول له: يا رضوان، يا أمين الملك الجبار الأعظم على الفراديس، ألم تسمع ندائى بك، واستغاثاتي إليك، فقال: لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصدك فما الذي تطلبه أيها المسكين؟ فيرد عليه: أنا رجل لا صبر لي على العطش وقد استطلت مدة الحساب، ومعي صك - أي وثيقة - بالتوبيه، وهي للذنب كلها ماحية وقد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتها باسمك فقال: وما الأشعار؟ فقلت: الأشعار جمع شعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس، وكان أهل العاجلة - الدنيا - يتقربون به إلى الملوك والسدادات، فجئت بشيء منه إليك لعلك تاذن لي بالدخول، فقد استطلت ما الناس فيه، وأنا ضعيف، ولا ريب أنى ممن يرجو المغفرة، وتصح له بمشيئة الله تعالى، فقال: إنك لغبين الرأى، أتأمل أن آذن لك بغير إذن من رب العزة؟ هيهات.

ويلتقي بحمزة سيد الشهداء، فينشده مدحًا له فيه، ويستشفع به، فيحيله على ابن أخيه علي بن أبي طالب ليخاطب رسول الله ﷺ في أمره.

ويتركه إلى شيخه أبي علي الفارسي.. كل ذلك على لسان ابن القارح علي بن منصور بن طالب الحلبي الذي كتب الموري الرسالة من أجله.

ثم يستشفع فيه آل البيت إلى فاطمة الزهراء ليراجح من أهوال الموقف ويصير إلى الجنة فيتعجل الفوز، فتأخذه ويقف عند رسول الله، فيشفع له، ويؤذن له في الدخول. ويعبر الصراط، فلما صار إلى باب الجنة وقف دونه رضوان يطالبه بالجواز، إذ لا سبيل إلى الدخول إلا به، وهنا يلتفت إليه إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، ويجدبه جذبة يدخل بها الجنة، بعد أن أقام في الموقف ستة شهور.

ويحاور حميد بن ثور ولبيداً في الجنة وفي الجنة يحضر المآدب، ويسمع الغناء، ويلتقي بالشعراء ويسحره جمال الحور، ويصنع رحلة إلى جنة العفاريت، فيلتقي بالجن، ويسمع شعرهم ولغتهم، ويرى الحطيشة، والخنساء وينظر إلى الجحيم من أقصى الجنة، ويطلع فرى إبليس، ويشاهد

بشاراً، ويتحدث إلى أمرئ القيس، وإلى عترة وعلقمة، وعمرو بن كلشوم، والحارث اليشكري، وطرفة بن العبد، وأوس بن حجر، والأخطل والمهلل، والشنفرى وتأبط شراً.

ثم يعود إلى محله في الجنة، فيلقى آدم عليه السلام، ويستمر به المطاف ليلتقي بحورية، ثم بالرجاز: رؤبة والعجاج.

ويفيض في الجزء الأخير من الرسالة في الحديث عن النفاق والزنادقة والزنادقة، وعن الحلاج ومذهب الحلول والتناسخ، ويجره الحديث إلى ابن الرومي، وإلى أبي تمام، وأبي مسلم الخراساني، وإلى ابن الراوندي وسواهم.

إن هذه الرسالة التي تحمل فكر المعري ونظرته إلى الحياة، وآراء كثيرة له في نقد الشعر والشعراء، وهي من أنفس الذخائر في تراثنا العربي الخالد.. وهذه الرحلة الطريفة إلى العالم الآخر تحمل روحًا قصصية عالية تصلح لأن تكون من أرفع النماذج القصصية الأسطورية، أو الخيالية لو صيغت بأسلوب جديد.

ومن الطريق أن نعرف أن في دار الكتب المصرية أربع نسخ خطية من الرسالة اثنان منها في مكتبة تيمور، كما توجد نسخة من الرسالة في مكتبة سوهاج وأخرى في مكتبة جامعة الإسكندرية.

وقد طبعتها مكتبة أمين هندية بالقاهرة عام ١٩٠٣، وكتب خاتمة لها عبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة البيان. ثم نشرتها دار المعارف والمكتبة التجارية بالقاهرة بتحقيق المرحوم كامل كيلاني.

وفي عام ١٩٥٠ نشرت دار المعارف رسالة الغفران بتحقيق الأستاذة عائشة عبد الرحمن، ثم قدمت دراسة عن الرسالة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٥٣، وقد استعانت الدكتورة بنت الشاطئ بنسخة خطية من مكتبة كوبيريلي زاده بإسطنبول موثقة النسب بأبي العلاء برواية تلميذه الخطيب التبريزى.

وكانت الرسالة قد لقيت عناية كبيرة في دوائر المستشرقين، فنشر نيكلسون عام ١٩٠٢ ملخصاً للقسم الثاني منها مترجمًا في المجلة الآسيوية الملكية وكان قد حصل على مخطوطة للرسالة كانت في مكتبة المستشرق شكسبير، وقدم نيكلسون عام ١٩٠٠ وصفاً موجزاً للمخطوطة وترجمة موجزة للقسم الأول منها مع فقرات كثيرة من الأصل العربي.

وفي عام ١٩١٦ ظهرت في مدريد باللغة الإسبانية دراسة عن الرسالة للمستشرق الإسباني المشهور بلاسيوس أكد فيها أن أصولاً إسلامية، من بينها «رسالة الغفران»، قد تكونت أساس الكوميديا الإلهية، وقد ترجم بلاسيوس بعض النصوص من الرسالة وقارن بينها وبين نصوص من كوميديا دانتي.

ورسالة الغفران تعد في مقدمة تراث أبي العلاء، الذي وصلنا، وحفظته الأقدار لنا من الضياع، ويضاف إليها ديوان سقط الزند، واللزوميات، وعبد الوليد، وملقى السبيل الذي نشره حسن حسني عبد الوهاب في مجلة المقتبس - السنة السابعة - عن مخطوطة بالاسكوريا.

كما بقي من تراث المعربي مجموعة من رسائله نشرها مرجليلوث عام ١٨٩٨ وطبع في أكسفورد.

وكذلك الفصول والغايات، وقد طبع جزء منه في القاهرة بتحقيق الزناتي.

وكذلك رسالة الملائكة التي نشرت في دمشق عن مخطوطة بالظاهرية بتحقيق محمد سليم الجندي.

وبعض الرسائل الصغيرة الأخرى.

والذي فقدناه من تراث المعربي كثير ومنه كتاب «الإيك والغضون»، الذي زادت أجزاؤه على المائة. وغير ذلك.

وأدب الرحلات الخيالية إلى العالم الآخر، وإلى الجنة والنار مدین لرسالة الغفران ولصاحبها أبي العلاء بدین كبير، فالرسالة في جوهرها وروحها

عمل فني كبير وإبداع أدبي لا مثيل له.. ومع أن في رحلة الإسراء والمعراج طرائف روحية رائعة، فإن أبو العلاء ولا ريب قد احتداها في «الغفران» وتأثر بها تأثراً كبيراً، كما تأثر برحمة المويد الزرادشتى إلى الأعراف والجنة والنار.

## سر الفصاحة

للحفاجي

- ١ -

نحن في القرن الخامس الهجري ، وتراتنا النقدي مليء السمع والبصر، والكتب الرائدة فيه كثيرة ، والنظريات النقدية جد تربة وغنية ، والنقاد لا يزالون يفاجئون قراءهم بالكثير من الآراء والأفكار التي تدور حول النقد.

وإذا نحن نفاجأ بظهور ثلاثة كتب في وقت واحد ، وفي بيئات متعددة ، دون أن يعلم مؤلف أحدهما عما ظهر في الوقت نفسه من كتب نقدية أخرى شيئاً .

- «دلائل الإعجاز» للإمام عبد القاهر الجرجاني - ٤٧١ هـ - ويكمel  
نظرية عبد القاهر النقدية فيه كتابه الآخر «أسرار اللاغة»

- «العمدة في صناعة الشعر ونقده» لابن رشيق القير沃اني المتوفى عام  
٤٥٦ هـ.

- «سر الفصاحة» لابن سنان الحفاجي المتوفى عام ٤٦٦ هـ

عبد القاهر يظهر في جرجان ، وابن رشيق في القيروان ، وابن سنان في حلب . الثلاثة من أعلام النقاد في القرن الخامس الهجري ، وإن كان يسبقهم الساقلاني الذي توفي في مطلع هذا القرن عام ٤٠٣ هـ . والثلاثة شاركوا في النقد مشاركه كبيرة ، وأسهموا كذلك في وضع أصول البيان

وقواعد البلاغة، والثلاثة يبدو أنهم تأثروا بآراء قدامة بن جعفر (٣٣٧ - هـ) في كتابه «نقد الشعر»، وإن كان تأثر ابن رشيق وابن سنان به جد كبير، مما يجعلهما يعتمدان على كتاب قدامة اعتماداً شديداً، ويجعل بينهما من التشابه ما قد يدعى إلى القول بأن أحدهما رجع إلى الآخر وأفاد منه، وإن كان الأمر ليس كذلك على وجه اليقين. أما الخفاجي وعبد القاهر فليس بينهما أي اثر للتشابه والتأثر العلمي إلا أشياء قليلة لا تغنى من الأمر شيئاً، مثل ما ذكره ابن سنان وعبد القاهر حول إعجاز القرآن الكريم كتاب العربية المخالد المتره من شبهة الذين زعموا أن الحكاية هي المحكي، والرد عليهما (دلائل الإعجاز، سر الفصاحة)، ولو أن عبد القاهر أو ابن سنان قد أطلع أحدهما على آراء الآخر في النقد وأصول البلاغة، لكان لذلك أثره في تحويل التيات النقدية والبيانية إلى مناهج جديدة.

ونعود إلى ابن سنان وكتابه «سر الفصاحة».

## - ٢ -

ابن سنان<sup>(١)</sup> هو الأمير الشاعر الناقد الأديب العالم أبو محمد عبد الله بن محمد ابن سعيد بن يحيى بن سنان الخفاجي الحلبي، ينتهي

---

(١) راجع ترجمته في ٢٢٢، ٢٣٥، ج ١، فوات الوفيات، وقد نقلت هذه الترجمة في مقدمة ديوانه المطوع بالمعطعة الأساسية - بيروت عام ١٣٦٠ هـ (ص ٢، ٣ من الديوان)، وبقلها أيضاً مؤلف كتاب «أعلام النساء في تاريخ حل الشهباء»، ص ٢٠١ - ٢٠٤، ج ٤ وقد ترجم له بروكلمان وجورجي ريدان وغيرهما، وورد ذكره في «معجم الأدباء» لياقوت عبد الكلام على حلب، كما ورد استطراداً في «معجم الأدباء» لياقوت أيضاً وفي صفحة ٣٤٥ من «حلبة الكميّت» للتواجي شعر له، وراجع رسالة مخطوطه عن ابن سنان للأستاذ الدكتور عبد الحميد العبيسي، وهي مجلة الأزهر عام ١٩٦١ و١٩٦٢ مقالات عن ابن سنان للدكتور محمد كامل الفقي، وقد ظهر كتاب عن ابن سنان وسر الفصاحة - مد عام، وقد ترجم له الدكتور سامي الدهاومي في كتابه «قدماء ومعاصرون» ص ٦٧ - ٨٧ (طبعة دار المعارف المصرية عام ١٩٦١)، وترجم صاحب هذا البحث له في كتابه «سو حمامة وتاريخهم السياسي والأدبي» (ص ٨، ج ٤٠، طبعة ١٩٤٩) «والحفاجيون في التاريخ» ص ١٠١ - ١٢٤، طبعة دار الطاعة المحمدية بالأزهر - القاهرة).

إلىبني حزن الخفاجيين الذي استقروا في حلب، وذاعت شهرتهم فيها حتى ليقول ابن سنان لبعض خصومه:

مهلاً فإنك ما تعد (مباركاً)  
بيت له النسب الجلي وغيره  
خالداً ولا تحصى - سناناً والدا  
دعوى تريد أدلة وشواهدا

ويقول كذلك:

ضلالك، ما نسبت إلى (سنان)      ولا ضربت خؤولك في تميم  
وقد ولد في حلب عام ٤٢٣ هـ، نعرف ذلك من قصيدة له في ديوانه نظمها  
عام ٤٤٣ هـ ويقول فيها مفتخرًا بأصوله بالخلفاجيين من بنى عامر العقيليين:  
إذاعامر فرعت في العلا      ولم يبق من فوقها مرتفقى  
علقت بأطراف ذاك النجار      وجلت بعادية ذاك البناء  
بعشرين أنفقتها في الصدود      وجدت بها في زمان النوى

ويؤيد ذلك رسالة كتبها ابن بطلان إلى صديق له عام ٤٤٠ ويصف له  
فيها مدينة حلب ويقول<sup>(١)</sup>:

إن فيها شاباً حدثاً يعرف بالخلفاجي قد ناهز العشرين، وعلا في الشعر  
طبة المحنكين.

وقد تتلمذ ابن سنان على شاعر الميرة الكبير أبي العلاء المعربي (٦٦٣ - ٤٩٩ هـ)، في معرة النعمان القرية من حلب، وعلى أعلام علماء حلب في عصره، وقرأ الكثير من تراث العربية في اللغة والأدب والنقد والبيان، وسمت نفسه إلى أعلى مدى من الطموح، وتوفي أستاذه أبو العلاء عام ٤٤٩ هـ وابن سنان في السادسة والعشرين من عمره، وفي الديوان قصيدة رائعة رثى فيها جماعة من أهله وأصدقائه، وأظهر فيها حزنه العميق على فيلسوف الميرة وشاعرها.

وفي عام ٤٥٣ هـ وابن سنان في سن الحادية والثلاثين ريعاً يسافر شاعرنا الناقد من حلب إلى القسطنطينية، وفي الديوان أربع قصائد تستير إلى

(١) راجع الرسالة في ١ «أعلام السلاطين في تاريخ حلب الشهاء»، نقلًا عن «معجم البلدان» لياقوت عند الكلام على «حلب»

ذلك، ففي قصيدة بعث بها من القسطنطينية إلى (ابن ملهم) وآل حلب من قبل الفاطميين عام ٤٥٣ هـ يقول:

واأسفي من رحلة طوحت فيها إلى الروم الأغاريب  
قادني الدهر إليها ومن يجاذب الأقدار مغلوب<sup>(١)</sup>

ويذكر د. الدهان تفسيراً آخر لرحلة ابن سنان إلى القسطنطينية نقلًا عن ابن العديم مؤرخ حلب، فيقول<sup>(٢)</sup>:

فَكَرِّ الْأَمِيرِ مُحَمَّدِ الْمَرَادِيِّ الْكَلَابِيِّ فِي أَنْ يَظْفَرُ بِالْحُكْمِ وَحْدَهُ، وَأَنْ  
تَكُونَ لَهُ حَلْبٌ كُلُّهَا دُونَ عَمِّهِ (ثَمَال) الَّذِي يَسْاعِدُهُ الْفَاطِمِيُّونَ، وَفَكَرِّ مُحَمَّدٌ  
فِي أَنْ يَسْتَنْجِدُ بِالْرُّومِ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ، فَوُقُوعُ نَظَرِهِ عَلَى شَاعِرَنَا الشَّابِ ابْنِ  
سَنَانَ، وَقَرَأَ يَهُ عَلَى إِرْسَالِهِ إِلَى بَلَادِ الرُّومِ فِي هَذِهِ الْمَهْمَةِ الشَّافِةِ، وَسَارَ  
الشَّاعِرُ عَلَى كَرَهِهِ، وَخَلَفَ وَرَاءَهُ زَوْجَهُ وَصَاحِبَهُ وَوَطَهُ، وَرَبِيعًا أَحَبَّهَا، وَعَيْشًا  
أَلْفَهَا، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ٤٥٣ هـ، وَالشَّاعِرُ فِي الْثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ  
الْمُؤْرِخُونَ هَذِهِ الْبَعْثَةَ، فَأَثَبَنَا ابْنُ العَدِيمِ مؤرخُ حَلْبٍ، وَأَورَدَهَا ابْنُ  
الْقَلَانِسِيِّ مؤرخُ دِمْشِقَ الَّذِي قَالَ:

«سَدَبَ ابْنُ سَنَانَ لِلْمَسِيرِ مِنْ حَلْبٍ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ رَسُولًا. يَسْتَنْجِدُ  
لِمُحَمَّدٍ عَلَى عَمِّهِ ثَمَالٍ. وَلَمْ يَذْكُرْ الْمُؤْرِخُونَ عَنْ صَاحِبِ هَذَا الرَّسُولِ وَرَفَاقِهِ  
شَيْئًا، وَسَكَنُوا عَنْ كُلِّ مَا يَدُورُ حَوْلَ الرَّسُولِ، وَعَنِ الرَّجِمَانِ، وَعَنِ الْمَسَالِكِ  
وَالدَّرُوبِ<sup>(٣)</sup> وَلَكِنَّ التَّارِيخَ يَعْلَمُنَا أَنَّ الْأَمِيرَ مُحَمَّدًا صَالِحَ عَمِّهِ (ثَمَالًا)،  
وَاقْتَسَمَا الْبَلَادَ بَيْنَهُمَا، فَسَعَطَتْ بِذَلِكَ سَعَارَهُ الشَّاعِرِ<sup>(٤)</sup>.»

وفى إحدى فصائل الخفاجي التى بعث بها من هناك إلى بعض أبناء عمومته فى حلب يقول:

(١) ص ٣٥ من الديوان

(٢) ص ٧٤ قدماء، ومعاصرون - للدكتور محمد سامي الدهان - طعة دار المعارف

(٣) ٧٥ و ٧٦ المرجع نفسه

(٤) ٨١ المرجع نفسه

الأغيب عن حلب ثلاثة أشهر  
قلتم شغلنا بالحصار، وصدقنا  
لو شئت أهرب مرة من عندكم

لم تكتبوا فيها إلى بلفظة  
ما كان بعدهك من (معز الدولة)  
ما كنت أقصد غير قسطنطينية

وتدل هذه القصيدة على أن ابن سنان وبعض بنى أعمامه انتهوا فرصة  
الخلافات السياسية على ملك حلب بين الفاطميين والكلابيin ، فشاروا  
بعض ولايات حلب، ليقيموا لهم فيها دولة، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، ففر  
ابن سنان إلى القسطنطينية خوفاً من أن يفتكم به أحد، ويكون ذلك تفسيراً  
آخر لهذه الرحلة وهو الذي أرجحه لأنه يرجع إلى شعر ابن سنان .

وعاد الشاعر ابن سنان، لا إلى حلب، ولكن إلى ولاية صديقه (ابن  
ملهم) في طبرية وعكا، عام ٤٥٤ و ٤٥٥ هـ .

وفي عام ٤٥٦ هـ توفي صديقه أبو العلاء صاعد الكاتب بأنطاكية فرثاه  
ابن سنان بثلاث مراث نجدها في الديوان ، وكان يراسل ابن منقد ، وكان ابن  
منقد يأخذ عليه قيامه بالثورة من أجل الملك .

وفي صفر من عام ٤٥٦ هـ يعود ابن سنان إلى حلب ويمدح أميرها  
محمد بن صالح بن مرداد الكلبي العامري ، ويقيم في ظله، مؤملاً أن  
يقلده ولاية إقليم من الأقاليم التابعة لدولة حلب ، ولكن الأمير محمد بن  
صالح لم يفعل ، وبدأ تململ ابن سنان يظهر في شعره ، وبدأت الوشايات  
تثور حوله . ويعزم على الرحيل من حلب إلى ولاية ابن حمدان عام ٤٥٩ هـ  
فيرسل قصيدة إلى صديقه ابن حمدان يقول فيها فيما يقول :

يظن العدى أني مدحتك للغنـي      وما الشعر عندي من كريم المكاسب  
أعني على نيل الكواكب في العـلا      فأنت الذي صيرتها من مطالبي  
ويتوسط وزير الأمير محمود بينه وبين ابن سنان حتى يقلده ولاية «قلعة  
عزاز»<sup>(١)</sup> في آخر عام ٤٦٠ هـ ، فأقام بها شاعرنا الناقد .. ولكن لم يلبث أن

(١) بلدة شمالي حلب، بيهما مسيرة يوم، طيبة الهواء، عدنة الماء، فيها قلعة حصينة (٦١٦)  
محمـ محـ البلـدانـ ليـاقـوتـ - طـ (١٩٠٦).

شق عصا الطاعة، وأعلن استقلاله بالولاية، ولم يجد الأمير محمود بن صالح شيئاً نافعاً في حل هذه المشكلة إلا أن يعمل على قتل ابن سنان السُّم بحيلة من حيل الحداع وكان ذلك عام ٤٦٦ هـ، فمات ابن سنان وحملت جثته إلى حلب فدفن بها، ومات شهيداً لطموحة.

وهكذا نجد أن الشاعر قد انصرف طيلة حياته إلى السياسة ولم يفرغ إلى الأدب وحده، ولو كان قد فرغ لذلك، وعاش حياته كلها للأدب والنقد لكان شيئاً رهيباً في هذا المجال. وإذا نظرنا إلى كتابه «سر الفصاحة» هالتنا شخصية ابن سنان النقدية واللغوية والأدبية، مما بالنا لو أن هذا الشاعر العظيم الذي توفي عن ثلاثة وأربعين عاماً، كانت حياته كلها خالصة للثقافة والأدب.

إن مؤتمرات السياسة وأحداثها في عصره، وطموح ابن سنان وأماله العراض، قد عجلت بالقضاء عليه، وبموته مسوماً.

### - ٣ -

وفي وسط هذه الأحداث السياسية ألف ابن سنان كتابه «سر الفصاحة»، كما ألف كتاباً في إعجاز القرآن سماه «الصرخة» وجمع ديوان شعره، وإن كان الكثير من شعره قد ضاع في هذه المحنَّة السياسية.. وكتبه وشعره تدل على ثقافة ابن سنان الأدبية والنقدية الواسعة، ولا شك أن لتلمذته على أبي العلاء المعري أثراً كبيراً في ذلك ويدرك ابن سنان أستاذة أبي العلاء في قصيده التي رثى فيها جماعة من أهله وأصدقائه، وأظن أنه نظمها بعد فشل ثورته السياسية الأولى، فيقول:

ومنيماً على المرة نطوي      هـ الليالي، وذكره منشور

ويقول الدكتور الدهان: «كان شاعرنا يجوس خلال حلب، ويلوذ بعلمائها وأدبائها، ويأخذ عن شيوحها وأساطينها، وهم بقية العصر الحمداني الراهن، وتلاميذ العباقرة الشيوخ ممن درجوا على هذه القمة الخالدة. كابن جنى، وابن خالويه، والفارابي والمتيني، والسلامي، وأبي فراس، فالعصر

المرداسي خليفة العصر الحمداني في كل شيء، والخفاجي أراد أن يكون خلفاً لهؤلاء النوايغ، فملاً صدره بالعلم والمعرفة<sup>(١)</sup>.

ويقول كذلك عن «سر الفصاحة»: إنه دروس جيدة في النقد الأدبي، يعدها النقاد من طلائع الكتب الرصينة في هذا الباب، ويعرفون لمؤلفه بسرعة الاطلاع، ودقة المعرفة، وسلامة الذوق، يعرض لآراء الفحول والقدماء من النقاد، فيقف لهم، وبيدي رأيه فيهم، فيخالف ويوافق، ويستحسن ويستحب، ويرود شواهد من الشعر والنشر في اختيار رفيع، يدل على رسوخ قدم، وقوية بيان، وأسلوبه في الكتابة هو أسلوب الفحول في التشر، ليس فيه سجع ولا التزام، إنما هو رقيق فصيح بلين، كأجمل ما تكون الأساليب التشرية<sup>(٢)</sup>، ويكرر ذلك فيقول: إن ابن سنان غدا بكتابه إماماً من أئمة النقد الأدبي<sup>(٣)</sup>.

فكتاب «سر الفصاحة» كتاب جليل، عظيم الخطر، كبير الأثر في بحوث النقد والبلاغة، مشهور بين العلماء، مشهود له بالأهمية والابتكار والخلق.

يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي محقق الكتاب: إن أسلوب ابن سنان في كتابه أسلوب أدبي علمي ممتاز، لا يطغى فيه ذوق الأديب على ذوق العالم، كما طغى في أسلوب عبد القاهر الجرجاني، ولا يطغى فيه ذوق العالم على ذوق الأديب، كما طغى في أسلوب السكاكيني (من بعده)، وكان لهذا أثره فيما حذوه من المتأخرین من علماء البلاغة، فقد أمعنوا في طريقته، إلى أن أخلوها من الذوق الأدبي وجعلوا من كتب البلاغة ميداناً لجدلهم العلمي، فقد انصرفوا عن ذلك الأسلوب الأدبي العلمي الممتاز للخفاجي، متأثرين بمدرسة السكاكيني دون مدرسة الخفاجي، ودون مدرسة عبد القاهر أيضاً<sup>(٤)</sup>. ويقول أيضاً إن عبد القاهر ذهب بالشهرة في علوم البلاغة عند المتأخرین، دون ابن سنان الخفاجي، حتى عدوه شيخ البلاغة

(١) ص ٨، و ٧٩ قدماء ومعاصرون - د. الدهان.

(٢) صفحة د - و - هـ «سر الفصاحة» تحقيق عبد المتعال الصعيدي.

(٣) صفحه ط، يـ - المرجع نفسه

(٤) راجع ص ٣ من كتاب «سر الفصاحة».

على الإطلاق فقد لمدرسته البقاء بينهم، دون مدرسة الخفاجي، مع أن أسلوب الخفاجي أقرب إلى أسلوبهم من أسلوب عبد القاهر<sup>(١)</sup>.

وفي مقدمة «سر الفصاحة» التي كتبها ابن سنان يقول إنه أودع كتابه طرفاً من شأن الفصاحة وحققتها، وحملة من بيانها، مقرباً ذلك إلى الناظر، وموضحاً إياه للمتأمل<sup>(٢)</sup>.

والكتاب بحث مفصل في أسرار الفصاحة والبلاغة، وقد رجع ابن سنان إلى النظرية اللغوية في البلاغة وهي بلا شك عنده أساس نظريته في النقد، فقد تكلم على اللغة والحرف، وعلى الألفاظ المفردة وصفاتها وأسباب الفصاحة فيها، ثم على الألفاظ المؤلفة وأسرار فصاحتها، ثم على المعاني المفردة وما يجب أن تكون عليه في التأليف، ليكون الكلام موائماً للفكر والمنطق والعقل، وذكر أن الفصاحة مقصورة على الألفاظ بعكس البلاغة فهي وصف للألفاظ مع المعاني، ووضع المقاييس البينية الدقيقة لكل شيء، ذاهباً إلى أن تأليف الكلام - أي الأدب - صناعة موضوعها هو الكلام، مخالفًا لقدماء في «نقد الشعر الذي ذهب إلى أن موضوعها المعاني... ومن أجل ذلك كله عرض ابن سنان لقضايا بيانية كثيرة، كما عرض لقضايا لغوية أيضاً هي إحساس الحركة النقدية.

- ١ - فهو يذهب إلى ضرورة تأليف اللفظة من حروف متباude المخارج.
- ٢ - وينقد من يمدح أستاذ المعمري بالغموض، ولذلك يفصل الكلام في الوضوح، ويجعله شرطاً في الفصاحة والبلاغة.
- ٣ -ويرى ضرورة أن تكون الكلمة غير كثيرة الحروف.
- ٤ - كما يرى ضرورة اجتناب الحروف المترادفة في تأليف الكلام.
- ٥ - وضرورة وضع الألفاظ موضوعها حقيقة أو مجازاً.
- ٦ - وضرورة المناسبة بين الألفاظ من طريق الصيغة أو من طريق المعنى.

(١) ١١٦ المرجع نفسه.

(٢) ١٥٤ المرجع نفسه

٧ - ويعرض للحشو في الكلام، متأثراً في ذلك بقدامة مبيناً ما يعاب منه وما يستحسن ويدخل الإيغال في الحشو وفي حديثه عن المعاظلة في الكلام - سوء التركيب - يفرق بينها وبين مشاكلة النظم بعضه لبعض، متأثراً أيضاً بقدامة.

٨ - ويتحدث ابن سنان عن الاستعارة والكناية، وعن التمثيل، والتشبيه، وعن المبالغة في المعنى واختلاف نقاد الأدب حولها.

٩ - كما يتحدث عن السجع والازدواج وآراء النقاد فيما، ويستحسن السجع المطبوع، متأثراً في ذلك بالجاحظ ويقدامة، وينقد الرمانى فيما ذهب إليه من ذم السجع وفصاحة الفوائل. ويذكر الكتاب المحدثين الذين أكثروا من السجع، والذين أقلوا منه، والذين كانوا بين هؤلاء وهؤلاء... . ويذكر كذلك القوافي في الشعر والتصرير، والتجانس، وتقريب معنى اللفظين، وتضاد معنיהם، وهذا هو المطابق عند البلاغيين، وقدامة يسميه «تكافؤاً»، وينكر ذلك عليه الأمدي... . ويذكر الإيجاز، ويناقش تعريف الرمانى له.

١٠ - ويتحدث عن المعاني وأسباب فصاحتها من مثل: صحة التقسيم - تجنب الاستحالات والتناقض - صحة الأوصاف في الأغراض - صحة المقابلة - في المعاني - صحة التفسير، وهو في ذلك متأثر جد التأثر بقدامة.

### - ٣ -

وابن سنان يخطئ من يفضل أشعار المتقدمين على شعر المحدثين ويناقش ذلك كله في تفصيل وقوه.

وكذلك يبين أن منهجه في النقد هو تحكيم ما قدمه في كتابه من مناهج حول الألفاظ والمعاني، دون التفات إلى تقدم الزمن أو تأخره، وهذا هو مذهب الجاحظ والمبرد والموري والمنصريين من النقاد.

ويشرح ابن سنان أن المعنى المبتدأ أو الماجن لا يعيب الشعر في شيء - كما ذهب إليه بعض النقاد - ما دام تأليفه بليغاً.

ويبيّن المناهج الخاطئة لبعض النقاد في النقد، من اختيار ما يوافق ذوق الناقد وطبعه، ومن إيشار الغريب دون المشهور، ومن عكس ذلك، ومن استحسان الشعر لأجل قائله.

وهكذا نجد منهج ابن سنان في النقد قريباً من منهج قدامة، في النظر إلى اللفظة المفردة، واللفظة المنظومة المؤلفة في الكلام، وفي المناسبة بين الألفاظ من طريق الصيغة، أو من طريق المعنى، وفي مسائل كثيرة، تتصل بالأسلوب والصياغة أو بالفكرة والمعنى، وهو في ذلك كله، وبما فيه من الآراء الحافلة في النقد، ذو أثر كبير في الثقافة النقدية والبيانية في القرن الخامس الهجري وما تلاه من قرون، وقد نوه ابن الأثير (عام ٦٣٧ هـ) في أول كتابه «المثل السائِر» بالكتاب وبمؤلفه، وأشاد بهما، وتأثر بالكتاب في كثير من دراساته.

ويرجع ابن سنان إلى آراء النقاد قبله كثيراً: كالجاحظ وابن قتيبة، وقدامة، والأمدي، وصاحب «الوساطة بين المتنبي وخصوصه» وهو القاضي الجرجاني، والرماني، والباقلاني وغيرهم.. ومع ذلك كله فشخصية ابن سنان قوية واصحة في كتابه: بنقده لما يستحق النقد من الأداء، ويبحسن عرضه، وجمال تنسيقه، وقوة حجته وسلامة ذوقه في النقد.

وثقافة ابن سنان هي من ثقافة المتكلمين، وأسلوبه في الجدل قوي واضح، وهو ينتصر للمتكلمين، حتى يرى كلامهم دون ما سواه هو الحجة الدامغة.

وهو منصف في أحکامه الأدبية والنقدية والبيانية، يعتمد على الحجة والدليل، ويختبر كل شيء بميزان العقل والتفكير.

وإذا كان قد نقد أبا تمام في قوله:

يُضحكُنَّ مِنْ أَسْفِ الشَّبَابِ الْمَدِيرِ  
لأن المدير - في رأيه - مثل الإدار فإن ذلك تفكير بعيد وتعليل غير منصف، ولا يقبله ذوق الجمهور.

ويعيّب ابن الأثير على ابن سنان طرحه للكلمات الطويلة مثل «المستنشدين».

إن المنهج العام النقدي لابن سنان مبني على أساس منهج قدامة، وكذلك كان الأمر عند ابن رشيق.. ولكن ابن سنان يعتمد على نظرية لغوية في النقد يرجع إليها ويحكمها، فاللغة عنده هي الأساس الأول في الصياغة الأسلوبية، وهي الميزان السليم في النقد، ولا بد أن يحتمل ذوق الناقد وطبعه إلى جوهر اللغة، وتراثه تأليفها.

وذوق ابن سنان النقدي ذوق عالٌ رفيع، يقول ابن سنان:  
أجاز لنا في بعض الأيام شيخنا أبو العلاء بن سليمان (المعربي) قول  
الشاعر (الخطيئة):

ألا حبذا هند وأرض بها عند      وهنـد أتـى من دونـها النـأي وـالـبعـد  
وقـال: من حـبـه لـهـا لم يـرـ تـكـرـيرـ اـسـمـهـاـ عـيـأـ، وـلـأـنـهـ يـجـدـ لـلتـلـفـظـ بـاسـمـهـاـ  
حـلـاوـهـ، فـلـمـ يـرـ مـنـ الـاعـذـارـ لـتـكـرـيرـ إـلـاـ هـذـاـ. ثـمـ يـقـولـ:

أـلـاـ أـنـيـ بـالـ عـلـىـ جـمـلـ بـالـ      يـقـودـ بـنـاـ بـالـ، وـيـتـبـعـنـاـ بـالـ  
وـهـوـ لـعـمـرـيـ قـيـعـ، وـإـنـ كـانـ عـيـبـ هـذـاـ الفـنـ - التـكـرـيرـ - الـذـيـ لـاـ غـاـيـةـ  
وـرـاءـ فـيـ القـبـحـ قـوـلـ مـسـلـمـ:

سـلـتـ وـسـلـتـ، ثـمـ سـلـ سـلـلـهـاـ مـسـلـلـاـ  
وـلـوـلـاـ أـنـ هـذـاـ الـبـيـتـ مـرـوـيـ لـمـسـلـمـ، وـمـوـجـوـدـ فـيـ دـيـوـانـهـ لـكـنـتـ أـقـطـعـ عـلـىـ  
أـنـ قـائـلـهـ أـبـعـدـ النـاسـ ذـهـنـاـ، وـأـقـلـهـمـ ذـهـنـاـ، وـمـنـ لـاـ يـعـدـ فـيـ عـقـلـاءـ الـعـامـةـ،  
فـضـلـاـلـاـ عـنـ عـقـلـاءـ الـخـاصـةـ، لـكـنـيـ أـخـالـ خـطـرـةـ مـنـ الـوـسـوـاسـ عـرـضـتـ لـهـ فـيـ  
وقـتـ نـظـمـ هـذـاـ الـبـيـتـ فـلـيـتـهـ لـمـ عـادـ إـلـىـ صـحـةـ مـزـاحـهـ، وـسـلـامـةـ طـبـعـهـ، جـحدـهـ،  
فـلـمـ يـعـرـفـ بـهـ، وـنـفـاهـ فـلـمـ يـنـسـبـ إـلـيـهـ. وـمـاـ أـضـيـفـ هـذـاـ وـأـمـثـالـهـ إـلـاـ إـلـىـ عـوزـ  
الـكـمالـ فـيـ الـخـلـقـةـ، وـعـمـومـ النـقـصـ لـهـذـهـ الـفـطـرـةـ<sup>(1)</sup>.

ويـقـولـ ابنـ سـنـانـ:  
فـأـمـاـ قـوـلـ أـبـيـ الطـيـبـ:

وـقـدـ ذـقـتـ حـلـاوـهـ الـبـنـينـ عـلـىـ الصـباـ  
فـلـاـ تـحـسـبـيـ قـلـتـ مـاـ قـلـتـ عـنـ جـهـلـ

---

(1) ١٦٤ - ١٦٢ المراجع بمسه.

فقد كان الصاحب أنكره على أبي الطيب، والأمر فيه على ما قاله، وهو من ردِّي الاستعارة، وأرى أن الزائد في قبحه قوله:  
«حلواء»، لأن المستعمل في هذا الفن «حلوة».

ويذكر رأي الصولي في الاحتجاج لأبي تمام بصحة استعمال أسلوب «ماء الشباب» على صحة استعماله «لماء الملام»، ويقول أثر ذلك: هذه جملة ما قاله أبو بكر - الصولي - وهي غير لائقة بمثله من أهل العلم بالشعر - أي النقد - لأن قولهم كلام كثير الماء، وماء الشباب وقول يونس:

إن الأخطل أكثرهم ماء شعر، إنما المراد به الرونق، كما يقال ثوب له ماء، ويقصد بذلك رونقه، ولا يحسن أن يقال:

ما شربت أذب من ماء هذا الثوب، كما لا يجعل أن يقال:  
ما شربت أذب من ماء هذه القصيدة الخ<sup>(١)</sup>.

وهكذا فإن كتاب «سر الفصاحة»، وإن غالب عليه طابع البلاغة، فإن هذا الطابع لم يخرجه عن النقد، ولم يبعد به عن مجال الحكم والموازنة والشرح والتحليل والتفسير للحكم الأدبي.

ولا نستطيع أن نلم بكل ما في الكتاب من أحكام في النقد، فهو كله مبني على النقد ومملوء بنظرياته، مما يستحيل معه إحصاء أثره في هذا المجال.

ولنقف هنا، لنقول في آخر الأمر: إن «سر الفصاحة» وإن كان بحثاً عن أصول الفصاحة والبلاغة، إلا أنه من أروع كتب النقد العربي، وأجمعها لأصوله، وأشملها لمذاهبه وتياراته، وأكثرها مناقشات، وأحكاماً نقدية، تستند إلى الذوق، وترجع إلى الطبع، وتستهدي بأحكام الفطرة الأدبية الخالصة.



(١) المرجع نفسه

## فهرس الموضوعات

٥ .....	تصدير .....
٧ .....	المصادر ومدلولها .....
١٦ .....	مصادر الأدب .....
٢٣ .....	المكتبة .....
٢٦ .....	التراث وأهميته .....
٢٩ .....	فحولة الشعراء للأصمسي .....
٣٨ .....	طبقات الشعراء الباحثين والإسلاميين لابن سلام الجمحى .....
٤٦ .....	عيار الشعر لابن طباطبا .....
٥٦ .....	نقد الشرع لقديمة بن جعفر .....
٦٧ .....	الرسالة الثانية لأبي دلف .....
١٠٩ .....	الموازنة للأمدي .....
١٢٠ .....	رسالة الصاحب بن عباد والمتبنى .....
١٢٦ .....	الوساطة للقاضي الجرجاني .....
١٣٤ .....	كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري .....
١٤٠ .....	إعجاز القرآن للبلقاني .....
١٤٧ .....	الامتناع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي .....
١٥٧ .....	دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني .....
١٧٤ .....	منهج عبد القادر في أسرار البلاغة .....
١٩٢ .....	تهذيب الأخلاق لابن مسكويه .....
١٩٨ ..	رسالة الغفران للمعربي .....
٢٠٣ .....	سر الفصاحة للخفاجي .....
٢١٥ .....	الفهرس .....